



خُلاصَةُ التَّفْصِيل
عَن
أَحْوالِ الإِمامِ شَمْوِيل



المؤلِّفُ

السَّيِّدُ عبدُ الرَّحْمن ابنُ المرُشِدِ جمال الدِّين

الحُسَيْنِيّ الغازِي غُمُوقِيّ الدَّاغِسْتانِي

رحمهما الله تعالى







خلاصة التفصيل
عن
أحوال الإمام شمويل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

داغستان - محاچ قلعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا كتاب: «خلاصة التفصيل عن أحوال الإمام شمويل» بيّن فيه مؤلفه - رحمه الله - تفصيلا ما وقع للإمام شمويل حين خروجه من درغيه الجديدة في آخر أيام دولته حتى وصوله إلى بلدة كَالوگـه، وما لاقاه فيه من التبجيل والإكرام من الرؤساء والأمراء.

وينقسم الكتاب أساساً إلى قسمين:

في الأول: يتحدث عن صعود الإمام على جبل كِلَالْ، وخروجه منه قاصداً إلى ناحية جبل غُنِب، وعن إغارة مجرمي بعض القرى على خزينة بيت المال في الطريق، وعن تضييق الإمام وحسرته حين أخبِر باستسلام قلاعه، وخيانة نوابه بالصلح مع عدوه. وهذه الفترة كانت من أصعب حادث مَأْسَاوي للإمام ومن معه من المهاجرين.

وفي الثاني: يتحدث عن حياة الإمام في مملكة الروس، من لقائه مع إمْبِرَاطُور ألِكْسَانْدر الثاني عدة مراتٍ، ومما تلقاه منه مِن التوقير والإكرام، كإهدائه للإمام عَجلةً فاخرةً، وفرسيْنِ فارهيْنِ، وإعطائه له سيفا من ذهب غالٍ بيده، وعن الأماكن التي زارها الإمام هنالك كـ: سِلَاح خَنَه (مخزن الأسلحة) الكائن في فِتر گُوف، ومَضْرب الدراهم الكائن في قلعة فِتْرُ فَوْلُوْسْكِي، ومرصد بُولْكُوفُو في فتر بُرغ.

إذَا أَكْرَمَ الرَّحْمَنُ عَبْداً بِعِزِّهِ ... فَلَنْ يَقْدِر المَخْلُوق يَوْماً يُهِينُهُ.

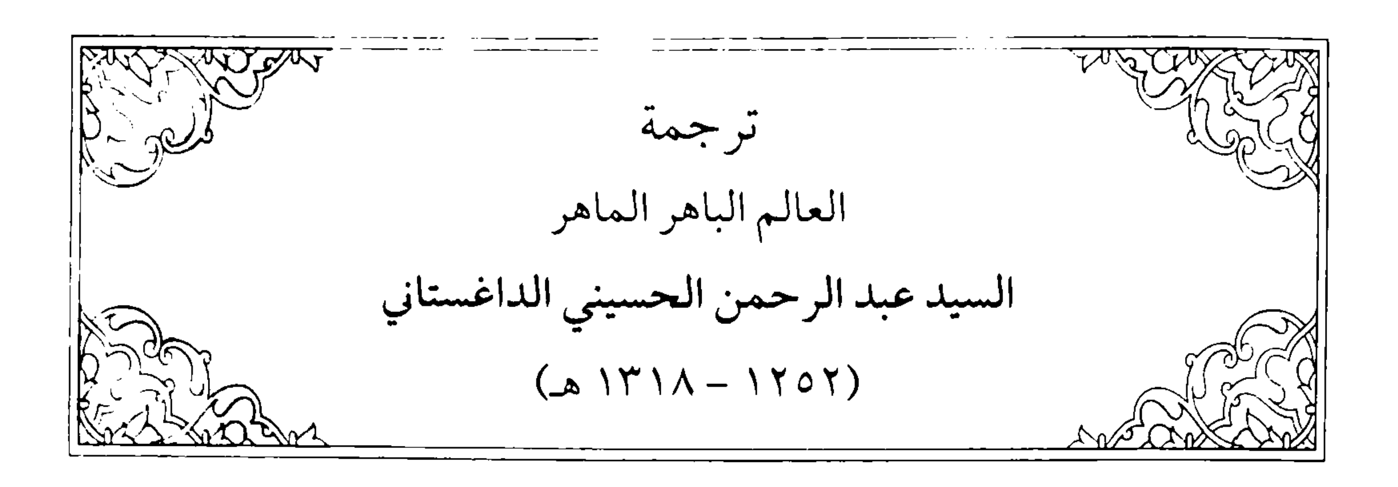
ثم يقول المؤلف رحمه الله: «فأعجِبْ من حرمة لا يماثلها من مالك آخر لمثل الإمام الذي كان مُعانِداً له، ولم يسمع في عهد الملوك الماضين نظيرها لأحد».

ومما يزيد قيمة هذا الكتاب: أن مؤلفه السيد عبد الرحمن تحدث فيه عما رآه عياناً في بلدة كالوگه، إذ كان إقامته عند الإمام هناك نحو: ست سنوات ونصف، وقبل ذلك في قوقاز إذ صاحبَه في أيام المحنة، ولم يفارقه حتى على جبل غُنب.

وأخيراً: أثنى على الإمام من علماء وأعيان، لا سيما مؤلف هذا الكتاب كما يقول: «ثم من المعلوم البيّن لكل ذي طبع سليم ورأي قويم.. أني لا أُحَسّن الكلام بما ليس في الواقع صادقاً، وأني استحققتُ المدحَ للإمام والثناء لما بَدا لي منه من الكمالة وعُلو الهِمة، وربما لا يبعد أن يظن فِيّ مَن في عقله طَيش وسَخافة مِن: أني مَدحت الإمام لمكان القرابة بيني وبينه، ولو لم يكن بيننا سوى العداوة.. لكنتُ لا أكتم ما فيه من كرم الأخلاق والشيم، وليس في إظهار الحقّ عَيب، وكفى له فخراً: أن مَن صاحبَه لحظة واجتمع به ولو ساعةً.. لا يكاد يفارقه لحلاوة كلامه، وسعة ـالهِ، وطلاقة محيّاه».

والله تعالى نسأل أن يتقبل من كل من تسبّب في طبع هذا الكتاب ونشره، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وسببا للفوز بجنات النعيم، آمين.

* * *



ترجمة
العالم الباهر الماهر
السيد عبد الرحمن الحسيني الداغستاني
(١٢٥٢ - ١٣١٨ هـ)

اسمه، ونسبه، ومذهبه:

هو: عبد الرحمن ابن الشيخ جمال الدين الحسينيّ النقشبندي، الشافعي الأشعري الغازي غموقي الداغستاني، ونسبة الحسينيّ تدل على أنه من نسل أهل البيت النبوي رضي الله عنهم أجمعين.

مولده، وأسرته:

ولد - رحمه الله تعالى - في ليلة الأحد (٢٢) من شهر شوال سنة: (١٢٥٢ هـ) في غازي غُموق. أما أبوه السيد المهاجر جمال الدين بن مَقَبُدَّ.. قد كان عالماً كاملاً، ومرشداً فاضلاً. ارتبط الإمام شمويل علاقة المصاهَرة بينهما بتزويج ابنة الشيخ السيدة زاهدة المدفونة في حَجُون مكة المشرفة. ثم تزوّج جمال الدين لابنيه عبد الرحمن وعبد الرحيم بابنتي الإمام نَفِيسة وفاطمة رحمهم الله تعالى.

طلبه للعلم:

تعلّم أولا عند أبيه قدس سره، ثم جال في البلاد والقرى، وأخذ عن علمائها، منهم: العالم الحاذق القاضي يوسف المهاجر السَّلْطِي في قرية مُهُوخ، والعالم الفقيه

محمد بن مرتضى علي الغُرْقُّكُلِيّ في قرية غُرْقُّكُلِ، وأخذ أيضاً: عن العالم الفقيه علي غَلْباژ الكُلُّوِي، وكان متعلماً أيضا: في قرية طِنْدِه، وفي خُشْدَدَه، وفي صُغْرَالْ، وفي قرى مُقَر عُور، وغيرهم.

وأهالي كلٍّ من القرى التي سكن بها عبد الرحمن.. كانوا يحترمونه احتراماً أكيداً لكون أبيه أستاذاً مشهوراً في قَوْقَاز، ومع ذلك الاحترام.. ما ترك أبوه له مجالاً لتلتذّ نفسه برتبة رفيعة، ومقام عالٍ له بين الناس.

وها هو يتحدث عبد الرحمن في كتابه: «التذكرة» عن كيفية تحصيل علمه: «وأما أنا.. فكنت غالباً أسافر ماشياً؛ لأن والدي لم يأذن لي في الركوب زمن التعلم، لينكسر به هوى النفس، فتَقْبَلَ العلمَ، وذلك مجرب».

حياته في الدولة الشمويلية:

عاش عبد الرحمن بعياله في دَرْغِيَه الجديدة، وبعد الاستيلاء عليها.. انتقل مع الإمام إلى داغستان، وسكن مدة على جبل حصين مشيّد في گُون بِيت، ثم نهض منه وصعد على جبل غُنِب، وكان به كاتباً للإمام إلى السَّرْدار، ورأى عياناً كل ما يحدث على ذلك الجبل. أحبّه شمويل لعلمه وغزيرة عقله.

حياته بعد سقوط الدولة:

بعد إرسال الإمام إلى بلدة كَالُوگَه.. بقي عبد الرحمن مع عيال شمويل في تِمِير خَان شُورَه مدة ثلاثة أشهر، فخرج بعد انقضاء ذلك المدة، ووصل لدى الإمام إلى كالوگه، وعاش في بيته إلى أن تُوفيت زوجته نفيسة بنت الإمام سنة: (١٢٨٢ هـ) هناك، فحمل نعشها إلى داغستان بطلب الإمام الإذن من الدولة الروسية.

ثم انتقل عبد الرحمن إلى تِفْلِيس، ومكث هناك نحو: خمس سنين، فبعد الرجوع منه.. خيّرت الدولة له أن يقيم بلدة تِمِير خَان شُوره، ثم بعد زمان عاد إلى مسقط رأسه غازي غُمُوق، وتولى القضاء بها.

مؤلفاته:

- «خلاصة التفصيل عن أحوال الإمام شمويل»، وهو كتابنا هذا، ألفه وكتبه في كَالُوگَه سنة: (١٢٨١ هـ)، غير أنه عاد إلى تهذيبه وتنقيحه بعد رجوعه إلى الوطن.

- «تذكرة في بيان أحوال أهالي داغستان وچَچَان»، ألّفه في تِفْلِيس سنة: (١٢٨٥ هـ).

- «سقوط داغستان وچَچَان»... كتبه سنة: (١٣٠٠ هـ).

ثناء العلماء عليه:

قال العالم محمد طاهر في كتابه «بارقة السيوف» واصفاً إياه: (صِهْرُ [الإمام] ورفيقه، ابن الأستاذ جمال الدين النبيل عبد الرحمن الآئب السيد الأصيل).

وقال المؤرخ نذير الدرگِلِي في «نزهة الأذهان»: (كان عالما فاضلا، وصهر الشيخ شمويل أفندي، كان قد تزوّج ابنته [نفيسة]).

وقال الشيخ شعيب أفندي الباگِني في كتابه «طبقات الخواجكان»: (أما أبناؤه الكرام عبد الرحمن وعبد الرحيم، فعبد الرحمن مات في (١٣١٧ هـ)، وعبد الرحيم في (١٣٢٢ هـ) فرحمهما الله تعالى وإيانا، ووهب ذنوبهما لهما ولنا آمين بفضله وكرمه.

وفاته:

تُوفي السيد عبد الرحمن - رحمه الرحمن - في قريته غازي غُمُوق سنة: (١٣١٨ هـ/م ١٩٠٠).

❊ ❊ ❊

وصف النسخ الخطية

اعتمدنا في مقابلة النص لهذا الكتاب على نسختين خطيتين كاملتين:

الأولى: مصورة من معهد المخطوطات الشرقية للأكاديمية الروسية للعلوم في سانت بطرسبرغ، ذات الرقم (٧١٠/ أ).

وهي نسخة كتبت بخط نسخي جميل بيد المؤلف في بلدة كَالُوگَه سنة: (١٢٨١ هـ)، عدد أوراقها (٦١) ورقة، عدد الأسطر (١١) سطرا، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١٠) كلمات، وفي هامشها كثير من التعليقات للمؤلف، ورمزنا لها بـ (أ).

الثانية: محفوظة في قسم المخطوطات الشرقية لمعهد التاريخ في محاچ قلعة.

وهي نسخة جيدة، كتبت بخط نسخي نميق، وهذه النسخة كتبت مما حرّره المؤلف بعد الرجوع إلى الوطن كما قال في الصفحة الأخيرة: إني كنت ألفت الكتاب في بلدة كالوگـه؛ مسكن الإمام بالأمن والأمان، ثم لما رأيت فيما ألفت وأفرغت قصورا ببسط ما لا جدوى فيه، وترك ما لا يستغنى عنه.. عدتُ إلى تهذيبه وتنقيحه بمثابة أخرى.

تقع في (٩٤) ورقة، وعدد الأسطر (١٣) سطرا، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (٩) كلمات، وناسخها: محمد منصور حيدربيكوف الأواري الگـنـچقي، وكان الفراغ من نسخها: في شهر محرم سنة: (١٣٤٨ هـ)، ورمزنا لها بـ (ب).

***

منهج العمل في الكتاب

سرنا في إخراج هذا الكتاب على الخطوات التالية:

- نسخنا الكتاب من نسخة المؤلف، وجعلناها أصلية.

- قمنا بمقابلته على نسختين، وإصلاح بعض الأخطاء النحوية، وإثبات بعض فروق نسخة (ب) مما له فائدة في الهامش.

- خرجنا الآيات القرآنية وحصرناها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾، وجعلناها برسم المصحف الشريف من رواية الإمام حفص عن عاصم رحمهما الله تعالى.

- خرجنا الأحاديث النبوية الشريفة دون الإطناب، وحسبما توفر بين يدينا من مصادر، وحصرنا الأحاديث بين قوسين صغيرين « ».

- ووضعنا بعض التعليقات لشرح غامض أو زيادة بيان الكلمات الغريبة، فكل ما عقبها علامة (*) فهي من إضافتنا.

- ترجمنا للأعلام الواردة في الكتاب ترجمة مختصرة ما لم تكن مشتهرة كالأئمة الأربعة والعلماء الكبار.

- ترجمنا في مقدمة الكتاب للمؤلف السيد عبد الرحمن رحمه الرحمن.

- أعقبنا فهارس لمحتوى الكتاب.

أخيرا نسأل الله المولى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم؛ وأن يغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

صور من المخطوطات المعتمدة

خلاصة التفصيل

عن احوال الشمويل

كاتبه المؤلف السيد عبد الرحمن بن

جمال الدين الحسيني

الغازي غموقي

الداغستاني

في كالوكة

سنة ١٢٨١

راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم بك العون يا معين

الحمد لله الذي اخرجنا الى نور الاسلام وشرفنا

برسوله محمد عليه وعلى سائر الانبياء افضل

الصلاة والسلام الذي شهد [illegible]

بخصوص كلامه صلى الله تعالى عليه وعلى آله

واصحابه بدور الظلام وليوث الغيرة الحوارد

في دين الملك العلام اما بعد

فقد سألني وانا الراجي الى رحمة ربي السيد

عبد الرحمن بن جمال الدين الحسيني الغندي من كان

عندي بالمحل الاسنى من الصداقة والزلفى الكاملة

اليه بالغاية القصوى والقدح المعلى من الكمالات

والمجد افلون زادو لونسكي الذي

الذي افاضه البادشاه الاعظم والقرم الهمام الاكرم

امبراطور الممالك الروسية بجزافيرساه وسائر الاطراف

الخارجية من الامصار والبلاد المعمورة والثغور

الموفوعة والقوة الوافرة والسواد الكثيفة

الشائكة والعدد والعدد الممدودة مد الله ظلال

عواطفه على الخواص والعوام ما سجع الحمام ورعد

الغمام ونبت الزهر في الاكمام افاضه في الرقاب لله

اباد نهب الاطواق واكليل الحمام عند الامام شمويل

الكراري لداغستان من بعد بحبته وسيفه شرقا

وغربا موفاق على من بغى وصبر بالجزاة بعدا ونا

وذلك ايام ظهور دولة ذلك البادشاه المذكور

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم .
الحمد لله رب العالمين ولا عدوان الا على
الظالمين الحمد لله الذي اكرمنا الى نور الاسلام
وشرفنا برسوله محمد عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة
والسلام الذي شيد اساس الهداية بنصوص الكلام
صلى عليه وعلى آله واصحابه بدور الظلام وليوث
[illegible] في ربع الملك العلام
اما بعد فقد سألني وانا الراجي الى
رحمة ربي سيد عبد الرحمن بن الشيخ السيد جمال الدين
الحسيني الغموقي الداغستاني من كان عندي با-
لمحل الاسنى من الصداقة والزلفى المشار اليه
بالغاية القصوى والقدح المعلى من الكمالة والمجد
[illegible] الذي نصبه الغازشاه الاعظم

والقرم الهمام الاكرم الامبراطور المالك الروسية بحفظ
فيها سائر الاطراف الخارجة من الامصار والبلاد
المعمورة والقصور المرفوعة والقرى الباهرة والسواد
الكثيفة السائلة والعدد الغزيرة الكساندر الثاني
حماه عن طوارق الآفات السماوية
امانت في الرقاب له اياد
هي الاطواق والناس الحمام
عنه الامام شمويل الغرادي الداغستاني من [illegible]
[illegible] وفادة علماء [illegible]
بعد [illegible] وذلك ايام ظهور دولة ذلك الباذشاه المذكور
على [illegible] داغستان [illegible] بعدما جرت بينهما الوقائع
والحروب المشهورة التي [illegible] عن البيان
سنة ١٢٧٦ ان اكتب له نبذة يسيرة من الوقائع

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

للاخوان وتحفة لابناء الزمان من اهالي داغستان
الذين يعتبرون الامور بدقة وامعان [illegible] بحسنها
كالمرجان والجمان ويتخلون عن السخائف والرذائل
والخذلان واني كنت الفت الكتاب في بلدة كالوغة
في روسية مسكن الامام بالامن والامان والفراغة
والاطمئنان مع جمود الطبيعة وكدورة الجنان ثم لما
رايت فيها [illegible] مالا عدد
فيه وترك ما لا يستغنى عنه عدت الى تهذيبه وتنقيحه
بعناية [illegible] رحمه الله تعالى [illegible]
واعتبر الاشيا بحقيقتها في ارض الله ولم يكابر [illegible]
[illegible] في جنب الله ودعى واستغفر للكاتب والمؤلف
ما دامت الاشيا [illegible] وصلى الله تعالى وسلم على المختار
من عباد الله انتهى :

لان ادركت في نظمي وكرمي
قصورا او قصورا في المعاني
فلا تسخر بنقصي ان رقمي
على مقدار تنشيط الزمان

بقلم محمد منصور [illegible] الادارى
[illegible]
30/XII-29

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)




خُلاصَةُ التَّفْصِيلِ عَن أَحْوالِ الإِمامِ شَمْوِيلْ

المؤلِّفُ

السَّيِّدُ عَبْدُ الرَّحْمٰن ابنُ المُرشِدِ جَمالِ الدِّين
الحُسَيْنِيِّ الغَازِي غُمُوقِيِّ الدَّاغِسْتَانِيِّ

رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى







بسم الله الرحمن الرحيم

بك العون يا معين

الحمد لله الذي أخرجَنا إلى نور الإسلام، وشَرّفَنا بِرَسُوله محمدٍ - عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام - الذي شيَّدَ أساسَ الهداية بِنُصوصِ الكلام، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه بُدُورِ الظَّلام، وَلُيُوثِ الغَيْرَةِ الحَوارِبِ في دِين المَلِكِ العلام.

أما بعد: فقد سألني - وأنا الراجي إلى رحمة ربي سيد عبد الرحمن بن جمال الدين الحسيني القِبْدِيِّ[١] - مَن كان عندي بالمَحل الأسنى مِن الصداقة والزُّلْفى، المُشار إليه بالغاية القصوى، والقِدح المعلّى من الكمالة والحِجَى أَفُلُّونْ رُونُوْسْكِيْ[٢] الذي أقامهُ الپاد شاه الأعظم[٣]، والقَرْمُ[٤] الهُمام الأكرم إِيمْبِرَاطُورُ الممالكِ الروسية بِحَذافِيرِها، وسائر الأطراف الخارجية[٥] من الأمصار[٦]، والبلادِ المعمورة، والقصور المرفوعة، والقوة الوافرة، والسَّواد الكثيفة الشائكةِ، والعَدد والعُدد المُمْتدَّة، مَدَّ الله

(١) الحُسَيْني: قَبِيلَةٌ. القِبْدِيّ: بلدة، وهي المشهورة بغَازي غُمق.

(٢) هو: أَفُلُّون بن إيوَان رُونُوْسْكِيْ (١٨٢٣-١٨٧٤ م)، مُشارك في الحروب القَفقازية، ثم أقامه الپاد شاه عند الإمام في كَالُوگه (١٨٥٩-١٨٦١ م) ليكتب مراداته إلى جنابه، فأعطاه رتبة النَّقِيب (كَفِطَان)، مات في تُرْكِستان. *

(٣) هو: إمْبِرَاطُور أَلِكْسَانْدِر الثاني ابن القيصر نِيكُولاي الأول (١٨١٨-١٨٨١ م)، تولى الحكم بعد وفاة والده في سنة: (١٨٥٥ م) إلى أن مات في فِتِر بُرْغ. *

(٤) القَرْمُ: السَّيِّد المُعَظَّم. «الوسيط». *

(٥) من مملكة الروس. (منه).

(٦) بيان للأطراف. (منه).

ظِلال عواطفه على الخواص والعوام، ما سجَعَ الحَمامُ، وَرَعَد الغَمام، ونَبَتَ الزَّهر في الأكمام.

أَقَـامَـتْ فِـي الـرِّقَـابِ لَـهُ[1] أَيَـادٍ ... هِـيَ الأَطْـوَاقُ وَالنَّـاسُ الحَمَامُ.

عند الإمام شمويل الكِمْراوي الداغستاني، مَن بَهَر بِصِيتِهِ وسَيفِهِ شرقاً وغرباً، وفاق على مَن بَرَع ومَهر بالجُرْأة بُعداً وقرباً، وذلك[2] أيامَ ظهور دَولة ذلك الپاد شاهِ المذكور على ديار داغستان، وظَفِرَه به - بعدَما جَرَتْ بينهما الوقائع والحروبُ المشهورة التي تغني شهرتها عن البيان - سنةَ: ستٍّ وسبعين، ومائتين وألف. أنْ أَكْتُبَ له[3] نُبْذَةً يسيرةً من الوقائع الشامِليّة[4] في الأيام الجِهاديةِ الآخرية في الديار الداغستانية، مع ما أضمُّ إليها من ذِكر المراحِم الإيمبراطوريةِ[5] الصادرة له مِن جَنابه العالي، مَحَطِّ رِحال الأمراء الأعالي، لتكون عِبرةً لمن خلفهُ، وتَبْصِرَةً لمن دُونَه، كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾، الآيةَ[6].

فإن قيل: «هل لا رخصةَ في الدعاء للپاد شاه بمثل ما ذكرنا؟!» **قلتُ**: «له رُخصة لا مُناقشةَ فيها وإن ظَنَّ بعضُ السفهاءِ خِلافَ الصواب، فقد صَرَّحُوا[7] في غيرِ مَوضِع بأنه يجوز الدعاء للمسيحي بنحو: صحة البَدَن، والهِداية[8]، بل قال في «شرح الكبير

---

[1] أي: للإمْبراطور الروس. *

[2] أي: نَصْب رُونُوْسْكِي عنده. (منه).

[3] أن أَكْتُبَ: جواب للسؤال. لَهُ: أي: لِرُونُوْسْكِي. (منه).

[4] أي: الإمام شمويل المذكور. (منه).

[5] أي: إيمبراطور الممالك الروسية، وَلِيِّ الأيادي والنعم، للإمام خاصة. (منه).

[6] سورة الضحى، الآية: ١١.

[7] أي: الفقهاء. (منه).

[8] إلى أماليهِ وحاجاته. (منه).

على الورقات»[١]: يَجُوز مَغْفِرة الذنوب لِلمَسِيحِيِّ»[٢]. فَانْدَفعَ بذلك ما يتعرَّض لِمَا ذَكَرْناهُ مِنْ قِبَل الأوْباشِ الجَهَلَةِ بما يُخالِفهُ، ورُبّما يَعْترض عليّ بذلك[٣] مَن لا خَلَاقَ له من العِلم دِرايةً ورِوَاية، وذلك لا يقدحُ الجَوَازَ، إذ كلُّ مَن حَفِظ.. حجةٌ على من لم يَحْفظ؛ كما لا يخفى على الفَطِن اللبيب.

فَأَجَبْتهُ[٤] على وجهٍ وَجِيز مُفِيدٍ، مُسْتغنٍ عن الأكاذيب المُخْترعةِ بعض الأوباش الجَهَلةِ من عند أنفسهِمْ، مِمّن لم يَشُمُّوا مِن شمويل ولا مِن وَقَائعهِ أدنى شيءٍ، وَلستُ بِمُدَّعِي علمٍ وَافٍ بهذا، ولكني قَرِيبٌ من ذلك دُونَ غيري، خصوصاً عنده، وأنشدت في ذلك[٥] قولَ الشاعر:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

البيتَ.

وسمّيتُ هذه النُّبذةَ: «خُلَاصَةَ التَّفْصِيل عَن أَحْوَالِ الإمَامِ شَمْوِيل»، وأرجو الله تعالى أن يُكوِّنَها تذكرة طَوِيّةً هياكِلَ الأخبار، وكُرّاسةً جَامِعَةً شواردَ الأفكار، إنه ولي الأبرار.

* * *

[١] كتاب «الشرح الكبير على الورقات» وهو شرح وضعه أحمد بن قاسم العَبادي على شرح جلال الدين محمد بن أحمد المحلي على «الورقات» لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني. *

[٢] انظر (١/ ٢٠٢). *

[٣] أي: بالدعاء؛ لأن كل مسلم يستعجبهُ ويستبعدهُ فيما أعلم. (منه).

[٤] أي لسؤال رُونُوسكي. (منه).

[٥] أي: فيما يذوقُه الإمام شمويل تحت حماية الپاد شاه الأعظم من لذيذ نَعْمَائه. (منه).

ولنَشرع أولاً في بيان انتقاله من دَرْغِه الجَديدةِ[1] إلى ناحية الجَبل، وهي قرية بناها في ساحة وِدِنْ - من ولاية چَچَان - للتوطن مع أصحابه المُهاجرين.

اعلم: أنه لما رأى شمويلُ تقاعُدَ عَزائم الناس عن المُقاوَمةِ مع الروس بأن كلَّ فردٍ مِن أجناس أهالي الجبال على اختلاف ألسِنَتِهم - رئيساً كان أو عاميّاً أو رفيعاً أو وَضِيعاً - يَتوجّهون إليهم، مُدْبرينَ عن الأمر الذي كانوا أقاموه من لَدُن الإمام الأولِ في ديار داغستان الشهيد في معْركة الروس غازي محمد الگِمْراوي[2] إلى زَمَن هذا الإمام الثالث شمويل؛ شريكهِ في العلم والكرم والجهادِ في الصِّغَر والكِبَرِ، إلا بعضاً منهم[3] لا يُعْتدّ، وتَيمُّماً لا يَمْتدّ[4]، كضيافة العائل... وَلِي في ذلك مَثَل سائر، مشهور لدى الشيوخ في داغستان، وذلك: أنهم يقولون: «ضِيافة العائِل العافِي.. كَمَشْيِ الحمار المُسِنِّ»، في أنهما[5] لا يَمْتدّان طويلا، ومع ذلك كان سيما المخالَفة[6]

[1] «دَرْغِيه الجديدة» (New Dargo): دار إمارة الإمام شمويل منذ سنة: (١٢٦١ هـ) إلى فتحها بعسكر يِوْدُكِيمُوف سنة: (١٢٧٦ هـ)، كانت تقع على الضفَةِ اليمنى لنهر خُلْخُلَاء، يقال لها أيضا: وِدَان؛ لأن بنائها كانت في ساحة قرية وِدَان. *

[2] هو: الإمام الأول، العالم الشجاع الشهيد غازي محمد بن محمد بن إسماعيل الگِمْراويّ الداغستاني (١٧٩٤-١٨٣٢ م)، انتَصب لقراءة العلم قائلا: «إنما أقرأ العلم لتنفيذ أمور الدين»، وأخذ الطريقة عن الشيخ جمال الدين الحسيني ومحمد أفندي الكُرالِي، ثم شَرع في دعاية العوامّ والخواص إلى إجراء أمور الشريعة، فإذا قَوي أمره، وكمل جيشه.. ساق إليه الدولة الروسية جنداً كثيفاً برياسة بَارُون رُوزِين، والتَحم القتال من ضحوته إلى العصر، واستشهد قدّس الله سره بُعَيد عصر يوم الإثنين، في الرابع مِن جمادى الأخرى سنة: (١٢٤٨ هـ)، وكان دفنه أولا في تَرْغُو ثم في مَقابر گِمْرَاه، يزار ويتبرك به. *

[3] استثناء من مُدبرين. (منه).

[4] وَتَيَمُّماً: وهو كناية عن سرعة الزوال. لَا يَمْتَدُّ: لِزواله عند وجود الماء للطهارة. ومرجع بيانه كتب الفقه، فراجعها. (منه).

[5] أي: ضيافة، ومشي الحمار. *

[6] أي: مخالفة رجال داغستان. (منه).

له يُعْرَفُ في وُجوهِهم وإن كان عكسُه يَجري من حُروف ألسِنَتهم كإسلام المنافق، وذلك لا يُسْمِن ولا يُغني من جُوع، وما أحْسنَ ما قيل في مثلِ ذلك الأمر وأجاد:

شعر:

النَّاسُ شِبْهُ ظُرُوفٍ حَشْوُهَا دَغَلٌ[1] ... وَفَوْقَ أَفْوَاهِهَا شَيْءٌ مِنَ العَسَلِ
تَغُرُّ ذَائِقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتْ ... تَبَيَّنَ الآنَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّغَلِ.

وَقول الآخر - لِلَّه تعالى دَرُّهُ وإلى نعيم الجنة رَدّه - حيث أحسن:

شعر:

وَإِذِ الصَّدِيقُ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقاً[2] ... فَهُوَ العَدُوُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَجَنَّب
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ ... حُلْوُ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ عَنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ العَقْرَبُ.

وقولُ الآخَر المجرّب الحكيم حيث أَجرى من فيه الزلال:

شعر:

وَلَمَّا بَلَوْتُ النَّاسَ[3] أَطْلُبُ صَاحِباً ... أَخَا ثِقَةٍ عِنْدَ ارْتِكَابِ الشَّدَائِدِ
تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا رَخَاءٍ وَشِدَّةٍ ... وَنَادَيْتُ فِي الأَحْيَاءِ هَلْ مِنْ مُسَاعِدِ
فَلَمْ أَرَ فِيمَا سَاءَنِي غَيْرَ شَامِتٍ ... وَلَمْ أَرَ فِيمَا سَرَّنِي غَيْرَ حَاسِدِ.

---

[1] الدَّغَلُ: محركةً، دَخَلٌ في الأمر؛ مُفْسِدٌ. (منه).

[2] التَّمَلُّقُ: أن تُعْطِيَ باللسان ما ليس في القلب. (منه).

[3] منصوب بنزع الخافض. (منه).

...صَعِدَ[١] على جبل كِلَالْ[٢]، وهي قريةٌ مُؤسَّسة في أصل هذا الجبل[٣]، وقد كان مُشيَّداً مسوّراً أي: محوَّطاً حوله، مَحفوفاً بالصخور العظام منذ عِدة أعوام بذلك القصد[٤]، بل وأحكمَه العساكرُ الشامِليّةُ ثانياً في آخر الأيام حتى صار في الإحكام على تِمْثال سَدِّ اِسْكَنْدر ذي القرنين المذكور في القرآن الشريف[٥]. ورافقه حينئذ مهاجرُوا چِرْكَه ونحوِهم، وسلاديتُ[٦] - كانوا في تربيَتِهِ منذ عدةِ سنوات - المجلوبُون من طرف الروس بأسرٍ وهَرْب، ومعهم المَدافِعُ والعُدد العسكرية الكائنة في دَرْغِه.

فسَكن بعضُهم قبل الصعود على الجبل في قرية إِچِچَالِي[٧] تَسْلِيَةً لِعِيال الإمام، والبعض الآخرُ: منهم محمد أفندي الأَعْوَرُ الهُيْمِي[٨] من وِلاية غَازي غُمُقْ[٩] وأضرابُه في قرىً حَوالِيْها بقصد الارتقاء إليه وقتَ الاضطرار، والسبب في تركهم السُّكْنَى معاً: لِضِيق دائرته لهم في قرية إِچِچَالِي. وحينئذ أُحْرِقَتْ قرى گُونْ بِيتْ وعَنْدَال بأمْر الإمام حتى لم يبقوا لها وَتَداً، وهم لا يُنْكِرونه في ذلك.

(١) جواب «لمَّا رأى» السابق. صَعِدَ: أي: الإمام وأصحابه. (منه).

(٢) أي: جبل قرية كِلَلْ (Kilatl)، من ناحية گُون بِيتْ (بَقْلُلَلْ). *

(٣) ويقال له بلسان أوار: «كِلْدِرِلْ مِعِرْ»، وأيضا: «گَنْـچِـل مِعِرْ». (منه).

(٤) أي: الصعود. (منه).

(٥) أي: في سورة الكهف. (منه).

(٦) «سلاديت» جمع «سُلْدَتْ»: كَلِمَةٌ رُوسِيَّةٌ، مَعْنَاها: جُنْدِيٌّ أَو عَسْكَرِيٌّ. *

(٧) «إِچِچَلِي» (Ichichali): قرية من قرى بَقْلُلَلْ، تقع خلف جبل المسمى بـ: جَبل كِلَال. *

(٨) هو: الشيخ الضرير، العالم العابد المهاجر محمد أفندي الهيمي الغازي غُموقي، المشهور بـ: كُور مُلَّا، كان زمنَ أسلان خان إماما في قرية مُحَرَّم، فبعد انتقال ولايته إلى ولده محمد مرزا (١٨٣٦-١٨٣٨ م).. حبسه، وَفَقأ إحدى عينيه لأمر مّا، ثم هرب لدى الإمام شمويل، ودام في خدمته، وكان الإمام يقدمه للدعاء حين يخرج للغزو، ولما سار الإمام إلى جهة غُنِب، ونزل في جبل عِيسْ.. حِيلَ بين العِير والنزوان، ولم يَتّفق له الصعود على الجبل، وبعد بُرهة عاد إلى قريته، وتوفي هناك في سنة: (١٢٨٦ هـ)، رحمه الله تعالى. *

(٩) «غَازِي غُمُوقْ» (Gazi Kumukh): قرية كبيرة، وولاية مشهورة في وسط داغستان. *

وفي مثل ذلك قال الشاعر يَصِف رِياستهم ونفاذَ حُكمِهم:

وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ ... وَلَا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ[1] فُلُولُ.

القصيدة.

وكان[2] أمراً مُتفقاً بين أهل المجلس والصَّحْبِ، ظنّاً منهم: أن الأعداء لو بَرَزوا عليهم على حِين غفلةٍ من أهلها[3].. لاتَّخَذوها مَحَلّا للقتال، فلا يُساعدهم المقاوَمةُ معهم، فصار الرأي على خلاف الأمر المُبْرَمِ بينهم لِمَكان[4] القَدر اللازم عليهم، فلا دَخْلَ في رَدّه عند حُلوله بِحِيل ولا مَحِيصَ عنه وإن اجتهد الخلاصَ مَن في الأرض جميعاً كما قيل: «إذا حَلَّتِ التقادِيرُ.. ضَلَّتِ التدابِيرُ»، وأنشدُوا في ذلك بهذا المعنى، ويُنسب إلى الشافعي رضي الله عنه:

مَا شِئْتَ[5] كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

خَلَقْتَ العِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ ... فَفِي العِلْمِ يَجْرِي الفَتَى وَالمُسِنْ

عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَذَا أَغْنَيْتَ وَذَا لَمْ تُغن

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ ... فَمِنْهُمْ قَبِيحٌ، وَمِنْهُمْ حَسَنْ.

ويُعجبني قولهم أيضاً في القدر:

---

[1] رجل دارع: عليه درع. (منه).

[2] أي: الإحراق. (منه).

[3] أي: كُونْ بيتْ وعَنْدَالْ، و... إلخ.

[4] والمكان بمعنى: الوجود. (منه).

[5] أي: يا ربّ.

قُـــــدْرَةُ اللهِ وَاقِـــعٌ ... حَيْثُ يُقْضَى وُرُودُهُ
قَدْ مَضَى فِيكَ حُكْمُهُ ... وَانْقَضَى مَا يُرِيدُهُ
فَـــأَرِدْ مَا يُــرِيــدُهُ إنْ ... لَـمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُهُ.

ومن الغرائب ما حُكي عن المتقدمين: أن الخليفة عبدَ الملك[1] بن مَروان - خامس خلفاء بني أُمَيَّة[2] - هَرَبَ من الطاعون، فركِبَ ليلا ومعه غُلامُه، وكان ينام على دابّته، فقال للغلام: «حَدِّثْني»، فقال الغلام: «وما أنا أحَقُّ أُحدّثكَ»، فقال: «على كل حالٍ حدِّثْ حديثاً سَمِعْتَه»، فقال: «بلغني أن ثعلباً كان يَخْدِم أسَداً ليَحْمِيَهُ عن الآفات والبليّاتِ، فرأى ذلك الثعلبُ يوماً عُقاباً يَقصدُه، فجاء إلى الأسد وأعْلمَهُ القَضِيّةَ، فقال الأسد: «لا تخف»، فلم يَسكن الثعلبُ، واشتدّ فَزعه ورَوْعه، فلما رأى الأسد خَوفَه.. أَقعدَه على ظَهْرِه، فانقضّ العقابُ فاختلسَهُ مِن ظهره، فقال الثعلب: «يا أجلَّ الحارث، أغِثْني فأين عهْدكَ؟!» فقال الأسد: «إنما أقدرُ على أهل الأرض، بل ربما لا أقدر عليهم أحياناً، وأما مَنْعك من أهل السماءِ.. فلا سبيلَ لي إليهم». فقال عبد الملك: «يا غلام[3]؛ وعَظْتَني وأحسنتَ، انْصَرِف»»، فانصرَف، ورضي بالقضاء، انتهى.

ثم: إن الإمام اجتهدَ في ضبْط أمور المحاربة على هذا الجبَل المشيَّدِ جدّاً بِحَسَبِ رأيِه قائلاً: «كل مَن أراد مُساعدتَه في الدين.. لا شكَّ في وُفودِه إليه من كل أوْبٍ بلا دَعْوة منه، وأما مَن دخل تحت مَنْطوق الآية من القرآن الشريف: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ

(1) وهو الذي قال لمّا أتتْهُ الخلافة - وكان قاعدا يَقرأ المصحف في حِجْره -: «هذا فراق بيني وبينك». (منه).

(2) فهم أربعةَ عشر خليفة، أولهم: معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم: مروان الحمار. (منه).

(3) فيا له من غلام أعقل من سيده الكريم، ويليق أن يُشترى مثله بملء الكف ذهباً. (منه).

ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].. فلا يَنْجَحُ فيه الدعوةُ ولا الرغبة، ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ الآية»[2].

ومن ثم وَفد إليه نفرٌ من أهل الغيرة، وامتنعَ الآخرون، وحالَ بينه وبينهم مَوْجُ الغَدْرِ والخيانة، مع أنهم كانوا يَحْلِفون[3] قَبْلُ على الموتِ لأيام المِحنة للإمام، وحينئذ تَمَثَّلَ بقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ﴾ الآية[4]، وهو يقول: «وسواءٌ عليَّ أن أُحارِبَ وَحْدي أو بِمُعينٍ، ومَعلوم: أني لا أَعْتَمِدُ على مَخلوق»، وأنشدَ في ذلك:

مَنِ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ الله فِي طَلَبٍ ... فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجْزٌ وَخِذْلَانُ.

فَصَمَّم العَزْمَ على هذا المِنوال، وجعَل الجهادَ يميناً وشمالاً.

فبعد مُضِيِّ زمن يَسَع فيه جمع حِزب الإسلام، وأطالَ النظَرَ إلى حُضور مَن عَلا في وجهه سِيما مُتابعة المنهَج التام، ورُموز الكلام.. أتى سماء السعادة بدخان الإدْبار، وعَلِم الآن بعلم اليقين: انْسِدادَ فُرَجِ المَعونة، وطُرقِ النصرة مِن كل مَن بنى على شَفا جُرُفٍ هارٍ، كما قيل: «إن السعادة إذا أَدْبَرتْ.. لا يَنفع معها شيء»، فنهَض إلى تَسْريج مَرْكب الهجرة مِن هذا الجبل الحَصِين إلى جهة جَبل غُنِبْ[5]، وأمَر أصحابَه بِرَفع خيام السكون والقَرار، وضربها في ساحة النُّقْلَةِ والبِدار، وجعَل يقول: «شدَدتُ عِصابةَ الفَتكِ والافتراس على مَن خرج علينا الآن من الطغاةِ البُغاةِ»،

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٦.

[2] سورة البقرة، الآية: ٧.

[3] أي: بالقرآن الشريف، بل بتطليق أزواجهم بلا تعليق، وذلك في المَجْمَع الآخر في أوار. (منه).

[4] سورة الكهف، الآية: ٢٩.

[5] «غُنِبْ» (Gunib): جبل في وَسَطِ داغستان، وآخر مَعْقل الإمام شمويل. *

والتزمَ على نفسِه الموتَ قُدّام أهل البيت، مُتذكّراً ما سَلَف مِن سِبط الرسول - عليه السلام - حسين بن علي رضي الله عنهما في المقاومة مع حِزب اللعين الباغي يزيدَ[1] المَشؤومِ، مِن استشهادِه[2] بين يَدَي أهلِه. القصة.

وأنشد عند ذلك قولَه[3]:

سَأَغْسِلُ عَنِّي العَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً ... عَلَيَّ قَضَاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَدْمَهَا ... لِعِرْضِي مِنْ بَاقِي المَذَمَّةِ حَاجِبَا

فَإِنْ تَهْدِمُوا بِالغَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا ... تُرَاثُ كَرِيمٍ لَا يُبَالِي العَوَاقِبَا

أَخِي غَمَرَاتٍ لَا يُرِيدُ عَلَى الَّذِي ... يَهِمُّ بِهِ مِنْ مَقْطَعِ الأَمْرِ صَاحِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ[4] عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ حَاجِبَا.

فَبَاتوا يُدْلِجون[5] مِن هنالك نحوَ غُنِب مِن جهة كَّرَطَه[6]، ويومئذ كان السَّرْدار كِيناز بَرَاتِنْسْكِي[7] بسَوادِهِ نازلاً في ساحة طَنْدُ[8] - قريةٌ مُشْرِفة على عَجَه بَطَ؛ موضع

---

(1) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. (منه).

(2) أي: حسين. (منه).

(3) شاعر.

(4) أي: عَدل. (منه).

(5) فَبَاتوا: أي: الإمام وأصحابُه. يُدْلِجُونَ: وهو السَّيْر في الليل. (منه).

(6) «كَّرَطَه» (Karata): أَكْبَرُ قُرَى كَّلَلَلْ. *

(7) هو: كِيناز أَلِكْسَانْدِر بن إيوَان بَرَاتِنْسْكِيْ (١٨١٥-١٨٧٩ م)، أرسِل إلى قَفْقاز عدّة مراتٍ، وفي سنة: (١٨٥٦ م) عُيّن قائداً على أمور عساكر القفقاز، وبعد فتح غُنِيه حصَل رُتبة غِنارال فِيلْد مَارْشال. *

(8) «طَنْدُ» (Tando): قرية مِن قُرى طِحْ نُزَّالْ. *

القلعة الروسية الآن في قرية بُولِخْ - ولم يكن بَينه وبين مذهب الإمام حينئذ إلا مَسافة ساعةٍ بِسَيْر مُعْتَدل، ولو تحرَّكَت سَرِيَّتُه عَلينا في ذلك الوقت.. لَصَعُبَ الخَلاص منهم علينا، ويَحْسُنُ في ذلك المعنى قوله[١]:

إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ ... خُطَاكَ خِفَافاً إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدا.

وَمِن الجانب الآخر كان غِنَارال بَارُونْ وَرَنْكِلْ[٢] مع جَيشِه الكثيف نازلاً في مَيْدانٍ قربَ قرية أَرْغُنَه[٣]، حِذاءَ قنطرة صَغْرٍ، وهي التي عَبرَها عسكره إلى جهة أَوَار، وحينئذ صار الإمام كالحَجر بَيْن الشجرينِ، فأمَر الأصحابَ على ساقِ النزول من سَنَام جبل كِلَال - المذكورِ آنفاً - بحمْل ما تَيسّرَ لهم حَمْلُه من الأمتعة، وأُجْرِيَ السَّلاديت الذين كانوا في تربيته خلفهم بِسَيْرِ الأثقال مِن الخَزائن؛ ما خَلا المدافعِ هنالك، فإنها بقيت على الجبل، وأمَر النائبَ قَدِ الإچچالِي[٤] بجَعْلها رَضاضاً بإضْرام نارٍ بالبارود، خوفاً على وُقوعها في أيدي العدوِّ، فجُعلت كذلك على ما سمعناهُ من الثقاتِ بَعد ذلك، ثم إن هذا النائب أُبْعِدَ في بلدة إِسْتَرْفُولْ[٥]، وتوفّيَ بها، هكذا سمعنا، والله أعلم.

---

[١] أي: الشاعر. (منه).

[٢] هو: جنرال أَلِكْسَاندر بن پِيوْسْتَافِينْ وَرَنْكِلْ (١٨٠٤-١٨٨٠ م)، مشارك في الحروب القَفقازية منذ سنة: (١٨٣١ م) إلى فتح جبل غُنِيه. *

[٣] «أرْغَنِه» (Argvani): قرية من قرى گُون بيت (بَقْلُلَلْ). *

[٤] هو: قَادِي الإچچَلِيُّ، نائب الإمام على قُرى إچچَل، لم يَعزله زمناً مديداً لشجاعته، وأمانته في الخدمة، فبعد استسلام الإمام.. حُبس وأرسل إلى بَلدة سْتَافرُوبُول، وتوفي بها رحمه الله تعالى. *

[٥] «سْتَافرُوبُولْ» (Stavropol): أكبر مُدن قَفقاز. *

ففي تلك الليلة بِتْنا عند جِسْرِ كَنْخِدَه[1]، وهي قريةٌ بها ماءُ الملح، وعندَهم يُجْعَل المِلح من الرَّمل النَّهْرِيِّ أي: يُوجَد في شاطئ الأنهارِ، وصِفته هكذا: مثلا يحْمِلون الماء المالحَ في بيوتهم بالقِرَبِ على ظهور البِغال، وكذا الرَّمْل، فيُجْعَل في القُدور الكبار، ويُصَبّ ماء الملح عليه، فيوقِدُون تحتها حتى يَنْقص شيئاً فشيئاً بالغَلْيِ الجَيّدِ، فيَنقلِبُ مِلحاً بذلك.

ففي صَبيحة الغَدِ تَوجَّهنا نحوَ قرية كَّرَطَه حتى إذا وَصَلْناها وقتَ الضحوة الكبرى.. صَلَّينا الظهرَ هنالك، وخرَجْنا وشرعنا في طريق عَخَّالْ[2]، ويومئذ رَأينا سواداً على سَواحِل جبل طَلَقُ[3] من بُعْدٍ، فاستخبرنا ممن كان عندَنا حينئذ عنهم فأُخْبِرنا بكونهِمْ سواد المِلِزِ يِّينَ[4] خَرجوا مع إبراهيم خان المِخْتُلِيِّ[5] بقصدِ قطع طريقنا إلى غُنِبْ، وكانوا على مسافة رَمي المِدْفع عنا نازلينَ، فلم نلتَفِتْ إليهم وسرنا مع الأهل والأولاد، وسيْر الأثقال في طريقنا، وتمثّل أصحابنا في ذلك بقول الشاعر:

فَدَعِ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي ... أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

البيت.

ويُماثِلُه في اللطافةِ والغَرابة ما كتبَه بعض السلاطين إلى مَن بَلغهُ منه تهديدٌ وتخويف:

---

(١) أي: عند جسر قرية «كَنْخِدَل» (Kvankhidatl). *

(٢) أي: في طريق قُرَى عَخَّخ (Akhvakh). *

(٣) وهو: جَبَل قربَ قرية سِؤُخْ مِن ولاية أوار. (منه).

(٤) أي: الشُّرطيّين. *

(٥) هو: إبراهيم خان بن أحمد خان المِخْتُلِيُّ، نَصَبه الروس خَاناً سنة: (١٨٥٥) حتى (١٨٥٩ م). *

يَا لِلرِّجَالِ لِأَمْرٍ هَالَ مَقْطَعُهُ ... مَا مَرَّ قَطُّ عَلَى سَمْعِي تَوَقُّعهُ
يَا ذَا الَّذِي بِقِرَاعِ السَّيْفِ هَدَّدَنِي ... لَا قَامَ قَائِمُ جَنْبِي حِينَ يَصْرعُهُ
قَامَ الحَمَامُ إِلَى البَازِي يُهَدِّدُهُ ... وَاسْتَصْرَخَتْ بِأُسُودِ البَرِّ أَضْبُعُهُ[1]
أَضْحَى يَسُدُّ فَمَ الأَفْعَى[2] بِإِصْبَعِهِ ... يَكْفِيهِ مَا قَدْ يُلَاقِي مِنْهُ إِصْبَعَهُ.

فَالجَزّار لا يُبالي بكثرة الغَنم، وكثيرٌ مِن الحَطب يَكفِيه قليلٌ منَ الضِّرَم، ولا يَفِرّ العُقاب بنَعيقِ الغراب، ولا يَفْزع أسود القِفار بِشُوس الحمار.

وما أحسن ما قيل:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ.

فبعد زمانٍ أُخْبِرنا بـ: أن إبراهيم خان المِخْتُلِي لما استَشارهُ بعض أصحابهِ في الهجوم علينا يومئذٍ.. لم يَستحسِن الرأيَ مُتعلّلاً بأن ذلك لا يَحْصُلُ لهم بِسُهولة، فامتنعُوا كلُّهم مِن ذلك، وعَلِموا: أن الضريرَ إذا قادَ ضريراً.. وَقعا معاً في البِئْر.

إِذَا التَقَى فِي حَدَبٍ[3] وَاحِدٍ ... سَبْعُونَ أَعْمَى بِمَقَادِر
وَصَيَّرُوا بَعْضَهُمْ قَائِداً ... فَكُلُّهُمْ يَسْقُطُ فِي البِئْرِ.

---

[1] أَضْبُع: جمع: ضَبُعٍ، وهي: سَبُعٌ كالذئب، إلا أنه إذا جَرى كأنه أعْرَجُ، فلذلك سُمّي السَّبُعُ العَرْجاءَ، ومَن أمْسَك بِيَدِهِ حَنْظلةً.. فَرَّت منه الضِّباعُ، ومَن أمْسك أسْنانَها معه.. لم تَنْبَح عليه الكلابُ، وجِلدُها إن شُدَّ على بطن حاملٍ.. لم تُسْقِط، وإن جُلِّد به مِكْيالٌ وكِيلَ به البَذْرُ.. أَمِنَ الزَّرْعُ من آفاتِه، والاكْتِحالُ بِمَرارَتِها يُحِدُّ البَصَرَ. (منه).

[2] وهي: حيَّة خَبِيثة. (منه).

[3] الحَدَبُ: المَوْجُ والرَّمْلُ، والغِلَظُ المُرْتفعُ من الأرض، ومن الماء: تَرَاكُبهُ في جَرْيِهِ. (منه).

وأنشد بعضهُم في ذلك المعنى:

إذَا كَانَ الغُرَابُ دَلِيلَ قَوْمٍ ... سَيَهْدِيهِمْ سَبِيلَ الهَالِكِينَا.

فَسِرْنا طُولَ اليوم إلى أن نَبيت في مكان قرب قرية عَسَه، وهي التي اشتهر أهلها بالفجورية والفُحولية في الفِسْق زمنَ ظهور الإمام شمويل بصِيتٍ مشهور مُستمِرٍّ في خارج الأقطار من دائرة داغستان، وربما يَليق أن أُنشدَ في حقه هذه الأبيات:

فَتىً كَالسَّحَابِ الجُونِ[1] يُخْشَى وَيُرْتَجَى ... يُرَجَّى الحَيَا مِنْهُ وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ
بِهِ يَقْشَعِرُّ الأَرْضُ خَوْفاً إذَا مَشَى ... عَلَيْهَا وَيَرْتَجُّ الجِبَالُ الشَّوَاهِقُ.

ولكن كنا حينئذ في تُهْمَةٍ – من طَرف أَوَار – ويقظةٍ حتى السحَر، لكون المنزِل غيرَ أمينٍ من الغَدْر والخيانةِ، كما سرى بذلك المثل المشهور: «مَن رَأى حَيَّةً في الصيف.. يَخافُ من الحَبْل في الشتاء»، فأمِنّا مِن شر المنزل والطائفة بفضلِهِ تعالى وكَرَمِهِ، ولقد أحْسَنَ من قال وأجْرى مِن فيه العَذْب الزُّلالَ:

بيت:

وِقَايَةُ الله أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ.

ومما ينسَبُ إلى العاقل اللبيب أيضا هذا البيت:

وَكُلُّ سِلَاح نَافِذٍ غَيْرُ نَافِذٍ ... إذَا كَانَ حِفْظُ الله لِلْمَرْءِ وَاقِيا.

---

[1] فَتىً: أي: هو فتى. الجُونِ: أي: السُّود. (منه).

ويُعْجِبني قولُ سِيبَوَيْهِ[1] أو غيرِهِ في صفة وادٍ كثيرِ السِّباع تَعَافَ السَّيْرَ فيه الطباعُ، حيثُ قال في ذلك المعنى:

مَرَرْتُ عَلَى وَادِي السِّبَاعِ وَلَا أَرَى ... كَـوَادِي السِّبَاع حِينَ يُظْلِمُ وَادِيا
أَقَـلَّ بِـهِ رَكْـبٌ أَتَـوْهُ تَـئِـيَّـةً ... وَأَخْـوَفَ إِلَّا مَا وَقَـى اللهُ سَارِيا.

فعَبرنا من ولاية هِيد حتى نَزَلنا على جبل قُرْب طِلِقْ[2] - مَوْلِدِ المرشد قِبِد محمد[3] الذي أُسِّسَ على شفا جرفٍ هارٍ - فبِتنا هنالك، وكانت الأطراف كمَوْج البحر المضْطربِ.

وأخبرَ شمويل: بأن النائب إسماعيل بن الحاج الأصمّ الـچُوخيّ[4].. قد صالحَ مع الروس، ودَخلوا في القلعة الـچُوخِيَّة[5]، ورئيسهم إذ ذاك غِنارال كِيناز تَرْخانُفْ[6]،

[1] هو: إمام النحو سِيبَوَيْه أبو بِشْر عمرو بن عثمان بنِ قَنْبَرِ الفارسي، ثم البَصْري (١٤٨-١٨٠)، سمي سِيبويه؛ لأن وَجْنَتَيهِ كانتا كالتفاحتين، بديعَ الحُسن، رحمه الله تعالى. *

[2] «طِلِقْ» (Teletl): قرية كبيرة في جهة عَنْدَلَلْ. *

[3] هو: العالم العابد قِبِد مُحَمَّد الطِّلِقِّيُّ، وَلّاه الإمام شمويل نائباً على أهالي طِلِقْ، فمُديراً على هذه القرى، ثم حبس في دَرْغِه سنة: (١٨٥٦ م) بعدما تَيقّن لدى الإمام مصاحبته مع أغلار خان في حق تسليم بعض قرى داغستان إليه، وحين خرج الإمام مِن إچِچَلِه.. فارق عنه، فأغار على خزينته في قَرَاخ، وبعد سقوط دولة الإمام.. جعله دولة الروس نائبا، ثم هاجر إلى الدولة العلية العثمانية، وفي سنة: (١٨٦٦ م) سار إلى الحج، ففي طريق الرجوع.. مات في مدينة اسْكَنْدَرِيَّة. *

[4] هو: النائب الباسل إسماعيل ابن النائب الحاج محمد الأصم الـچُوخِيُّ، نائب الإمام على قلعة چُوخَه في حدود سنة: (١٢٧٠-١٢٧٥ هـ)، كان من أجلّ أصحاب الإمام في الإقْدام، لكن صالح الروس، واستسلم قلعة چُوخَه وما فيها في (٩) من محرم لهم، وفي اليوم الخامس عشر ذهب لدى كيناز براتنسكي، وبعد استسلام الإمام.. جددت له النيابة من جهة الروس، ومات في قريته سنة: (١٣١٦ هـ). *

[5] «چُوخْ» (Chokh): قرية كبيرة من قرى عَنْدَلَلْ، كانت بها قلعة للإمام. *

[6] هو: كيناز إِتُوسِف بن دَاوِد (١٨١٦-١٨٧٨ م)، شارك في محاربة ضد الترك والإمام شمويل، وبعد فتح غُنب.. حصل رتبة غنارال مُيُور، وأقاموا في منصب حاكم غازي غُمُق. *

وهي التي بالغَ غنارال كِيناز أَرْغُتِنْسْكِيْ[1] في قَلْعِها واستِئصالها مرّاتٍ، فلم يُؤثّر فيها جَهده وحَربُه، فضاق بذلك[2] ذَرْعا، ونسَجَت الأحزانُ عند ذلك على جسده دِرْعا، وتَيقّنَ له: أن لا مَهْربَ من قضاء الله كرهاً أو طوعاً، فاسترجَع بلسان الحال وإن لم ينطِق به لِسان المقال، وذلك في بعض المواضع من كمال الحال، وفراغة القريحة والبال، وأنشدَ وأنفاسُه تَتصعّدُ، والقلبُ تَتوَقّد من شدة الحسرة على فَوت القلعةِ:

وَإِخْــوَانٍ حَسِبْتُهُـمْ دُرُوعــاً ... فَـكَـانُـوهَـا وَلَـكِـن لِـلأعَـادِي

وَخِـلْـتُـهُـمْ سِهَـامـاً صَـائِبَـاتٍ ... فَـكَـانُـوهَـا وَلَـكِـن فِـي فُـؤَادِي

وَهُـمْ قَـالُـوا: صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ ... لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ عَنْ وِدَادِي.

وهذا النائبُ كان مِن أحبِّ نوابه إليه، وأوْثقهِم لديه، لكن إذا استخْمَر الخَلُّ.. لا يَنجَحُ فيه الحِيَلُ، وفي المثل: إذا فَسَدَ اللحمُ وَجيفَ.. يُعالَجُ بالملح، فكيف إذا فسَدَ الملحُ نفسُه[3]؟!

ويا لِلَّهِ مِن تَوْلية الأراذِلِ على الأحرار، وتقدُّمِ الصغار على الكِبار، وكساد سَوْقِ الفضائل والمَعالي، واستِيثار الوَضِيع على الماجد العالي، وقد انتهينا إلى زمان يرَوْن الأدبَ عَيْباً، ويُعِدّون التضلعَ من الفنون ذنبا، وإلى الله الحَنّان المشتكى من هذا الزمان، إذ كانت الوُلاة سَلُّوا قواضِيبَ بَغْيِهِم، وعُدوانهِم على مَن تحلَّى

---

[1] هو: غنارال أَدْيُتانت كِيناز مُوئسِيْ بن زَخَار الأَرْمِيني، الملقب بـ: أَرْغُوت (١٧٩٧-١٨٥٥ م)، كان مع جميع جنوده مُوكَّلا لمحاربة الشيخ شمويل، ومات فريداً وحيداً في تِفْلِيس. *

[2] أي: بالإخبار.

[3] ونظم ذلك بعضهم بقوله:

بِالمِلْحِ يَصْلُحُ مَا يُخْشَى تَغَيُّرُهُ ... فَكَيْفَ بِالمِلْحِ إنْ حَلَّتْ لَهُ الغِيَرُ.

... إلخ. (منه).

بالفضائل، وتقدّمَ على أقرانه في الشجاعة والمهارة، فالتبسَ الدُّرُّ بالزجاج، واشتبهَ العَذب بالأجاج، وضاعَ أربابُ الألبابِ كالذباب في الضباب، فصارت المعارف طَيْف خِيال أو ضَيفاً على مُشْرف ارتحال، وضعُف أساس العلم وبُنيانه، وقام عِماد الجهل وطغيانُه، وضعُفَت سَواعِد المساعَدة، وانحَسَمَت موادّ الموادِدة، وذهبَ الحبُّ في الله، وجاء الميْل إلى الجاه، وخلَت الخلّة عن الصّدق والوفاء، فلا ترى إلا خليلاً خليّاً عن الصفاء، فإن استنَدْتَ إلى ذي جاهٍ وقدر مِن زَيْدٍ مثلا وعَمرٍو.. فأنت مَرفوعٌ إلى الرأس، ومحمُول على الحَدق وإن كنتَ أعيى مِن بَاقل[1]، وأحمق مِن هَبَنَقْ[2]، وإنْ عريت عن الاسْتِناد.. فأنتَ بمعْزل عن الاعتداد وإن كنتَ أفصحَ من سَحْبان وَائِل، وأبلغَ مِن قُسِّ أياد ابن الكريم[3]، وأنشدوا في ذلك:

قَـوْمٌ لَقَدْ نَبَذُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ... غُـرَّ الـوُجُـوهِ وَزُمْـرَةَ الـسُّـعَـدَاءِ
وَالأَخْـرَقُـونَ بَقِيَّـةُ مِـنْ عِـزَّة ... وَأُولُـوا النُّهَى مَنْبُوذَة بِـعَـرَاء[4].

وَقَد فَشَى فيهم اللَّوْمُ والوِقاحَةُ[5]، وقِلّة الكرَم والسماحة؛ بحيث لم يَبق مَن يلتجئ إلى بابه، ويرتجي مِن جَنابه إلا ما شذرَ ونذَرَ، فإنه أعز من الكبريت الأحمر، وهذا هو الحق الصريح بلا مِراء، وما كان حديثاً يفترى، وأنشدوا في ذلك أبياتاً:

---

[1] اسم رجل مشهور بالفهّاهة. (منه).

[2] اسم رجل مشهور بالحمق. (منه).

[3] هما: (أي: سَحْبَان وَائِل، وقُسِّ أياد) مشهوران بالفصاحة والبلاغة من أن يذكرا.
وهو (أي: قُسِّ أيَاد): أول مَن قال: «أما بعد» في الكتب، وأول من قال: «البيِّنة على المدَّعي، واليمين على من أنكرَ». (منه).

[4] والأَخرَقُ: الأحمق، ومَن لا يُحْسِن الصَّنْعَة. وَأولُوا النُّهَى: أي: الحجى. (منه).

[5] أي: قلة الحياء. (منه).

خَبَا مِصْبَاحُ كُلِّ فَتى ذَكِيٍّ ... وَفِي مِشْكَاتِهِ لَمْ أَلْقَ نُوراً
وَجُلُّ النَّاس فِي الإعْرَاض عَنْهُم ... قَلِيل مَنْ يَكُونُ لَهُمْ ظَهِيراً
وَهَذَا مَا التَّجَارِبُ عَلَّمَتْنِي ... فَإِنْ تَكُ غَافِلا فَاسْأَل خَبِيراً.

ولمّا أَيِسَ[1] من أصدقائه بعدما رأى عدم مروّتهم ووَفائهم، وَصَارُوا في مَعزلٍ منه ودُونَه في مَنْزِلٍ.. أنشَد:

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسُرُّكَ قَوْلُهُ ... وَلَكِن قَلِيل مَنْ يَسُرُّكَ فِعْلُهُ
وَلَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَلَوِّنٍ ... إذِ الرِّيحُ مَالَتْ، مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ.

ولي به أُسْوَة حَسَنة في هذا المعنى، وأنشدتُ أبياتاً:

الشَّاةُ تَعْلَمُ أَنَّ الذِّئْبَ يَأْكُلُهَا ... وَالذِّيبُ يَعْلَمُ مَا فِي الشَّاةِ مِنْ طِيبِ
خِفْ مَنْ أَمِنْتَ وَلَا تَرْكَنْ إلَى أَحَدٍ ... وَمَا نَصَحْتُكَ إلَّا بَعْدَ تَجْرِيبِ
فَالغَدْر فِي النَّاسِ طَبْعٌ لَا يُفَارِقُهُمْ ... وَالمَكْرُ فِيهِمْ مِثْل الخَبْث فِي الذِّئْبِ
لَا تَشْكُرَنَّ فَتىً حَتَّى تُجَرِّبُهُ ... وَلَا تَذُمَّ فَتىً مِنْ غَيْرِ تَجْرِيبِ.

ويَليق له[2] أن ينشدَ، وعن إخوان الخيانة أن يبعُدَ:

لَقَدْ صَاحَبْتُ لَكِنْ لَمْ أُجَرِّبْ ... فَفَرَّ الصَّحْبُ مِنِّي وَقْت ضِيقِي
جَزَى الله الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ ... عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي
إذا صَاحَبْتَ جَرِّبْ مَنْ تُصَاحِبْ ... فَحَالُ الخَلِّ يُعْلَمُ فِي المَضِيقِ
لَقَدْ جَرَّبْتُ آبَائِي وَأَهْلِي ... وَإِخْوَانِي ففَرُّوا وَقْتَ ضِيقِي.

---

[1] أي: الإمام. (منه).

[2] أي: الإمام. (منه).

ويُعارضه قول الآخر في النصح لأهل الخير:

إذَا كُنْتَ صَاحَبْتَ الرِّجَالَ فَكُنْ فَتىً ... كَـأَنَّـكَ مَـمْـلُـوكٌ لِـكُـلِّ رَفِـيـقِ
وَكُنْ مِثْلَ طُعْمِ المَاءِ عَذْباً وَبَارِداً ... عَلَى الكَبِدِ الحَرَّى لِكُلِّ صَدِيقِ.

ومما ينسبُ إلى إمامنا الشافعي رضي الله عنه:

صَـدِيـقٌ لَـيْسَ يَنْفَـعُ يَـوْمَ بُـؤْسٍ ... قَـرِيـبٌ مِـنْ عَـدُوٍّ فِـي الـقِـيَـاسِ
وَمَـا يَبْغِي الـصَّـدِيقُ بِـكُـلِّ عَصْرٍ ... وَلَا الإِخْــوَانُ إِلَّا لِـلـتَّـآسِـي
عَـمَـرْتُ الـدَّهْـرَ مُلْتَمِساً بِجُهْدِي ... أَخَـا ثِـقَـةٍ فَـأَكْـدَاهُ الـتِـمَـاسِـي
تَـنَـكَّـرَتِ الـبِـلَادُ عَـلَـيَّ حَتَّـى ... كَـأَنَّ أُنَـاسَـهَـا لَـيْـسُـوا بِـنَـاسِ.

وله أيضا:

وَمَـا أَكْـثَـرَ الـخُـلَّانَ حِينَ أَعُـدُّهُـمْ ... وَلَـكِـنَّـهُـمْ فِـي الـنَّـائِـبَـاتِ قَـلِـيـلُ
وَلَـيْـسَ كَـثِـيراً أَلْـفُ خِـلٍّ لِـوَاحِـدٍ ... وَإِنَّ عَـــدُوّاً وَاحِـــداً لَـكَـثِـيـرُ.

ومن ثم يَكون محل المودّة والإخاء حَالَ الشدة دُون الرخاء، ولا خَيْرَ في المُؤاخات التي جُلبَت بالتكليف:

إذَا الـمَـرْءُ لَا يَـهْـوَاك إِلَّا تَكَلُّفاً . . . فَـدَعْـهُ وَلَا تـبْـكِ عَـلَـيْـهِ تَـأَسُّـفاً
فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي التَّرْكِ رَاحَةٌ . . . وَفِي القَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ إذَا جَفَا
وَلَا كُـلُّ مَـنْ تَـهْـوَاهُ يَـهْـوَاكَ قَلْبُهُ . . . وَلَا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَهُ لَكَ قَد صَفَا
إِذَا لَـمْ يَكُنْ حِفْظ الـوِدَادِ طَبِيعَةً . . . فَـلَا خَـيْـرَ فِـي ودٍّ يَـكُـونُ تَكَلُّفاً
وَلَا خَيْرَ فِي خِـلٍّ يَـخُـونُ خَلِيلَهُ . . . وَيُـبْـدِ لَـهُ بَـعْـدَ الـمَـحَـبَّـةِ بِالجَفَا
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا . . . صَدِيقٌ صَدُوقٌ صَادِقُ الوَعْدِ وَالوَفَا.

ومما نظمَهُ بعضُ أبناءِ داغستان من أهل التجارب والعِرفان - الذي أحاط بهذه الواقعة علماً وإدراكاً - هذه الأبيات التي تظهِر عن أحوال ذلك الغائب المذكور، فقال وبحسن عبارتِه صالَ:

ثَالِثُهُمْ[١] ابْن الأصَمِّ الـجُوخِيِّ[٢] ... عَبْد القَفَا وَالبَطْنِ[٣] وَالرُّسُوخِي

أَحْرَصهُمْ فِي الجَمْع مِنْ حُطَام ... أَخْـدَعَـهـمْ بِـالـفِعْـلِ وَالـكَـلَام

فَـكَـمْ شَـكَـوْا مِنْـهُ إِلَـى الإِمَـامِ ... ظُـلْـماً وَزُوراً يُـدْهِـشُ الأَنَـام

وَأَوْقَـــدَ الـنِّـيـرَانَ فِـي الـرَّعَـايَـا ... وَأَتْـلَـفَ الـكُـنُـوزَ وَالـخَـبَـايَـا

مِـنْ كُـلِّ مِسْكِينٍ ذَلِـيـلِ الـقَـدْرِ ... وَكُـــلِّ ذِي رَأيٍ وَذِي تَـدْبِـيـرِ

فَـكَـيْـفَ وَلَّاهُ عَـلَـى الأُمُـــورِ ... وَقَـلْـبُـهُ مُـمْـتَـلِـئٌ بِـالـجَـوْرِ

وَلَـمْ يَـكُـنْ أَهْـلاً لِـرَعْـي الحُمُرِ ... فَـضْـلاً لَـهُ أَهْـلِـيَّـة فِـي الـخَـطَـرِ[٤]

فَـهُـوَ الـخَسِيسُ الـخَـائِـنُ اللَّئِيمُ ... أَخْـلَاقُـهُ مَـحْـكِـيَّـةٌ مَـعْـلُـومٌ[٥]

لَـوْ كَـانَ فِـيـهِ غَـيْـرَة الـذُّكُـورِ ... لَـمْ يَـتَـفَـرَّقْ[٦] آخِـر الأُمُـــورِ

وَحِـيـنَ كَــانَ نَـائِـبـاً لِـلْـخَـلْـقِ ... أَكْـرَمَـهُ الإِمَـــام طُـولَ الـدَّهْـرِ

وَلَـــمْ يَـكُـنْ لِـفَـضْـلِـهِ خَلِيقاً ... وَلَا لِـغَـيْـرِ الـــذُّلِّ مُـسْـتَـحِـقّاً

---

(١) أي: النُّوّاب الذين خانوا الإمام مع كونهم من أخيارهم المحبين المؤتمنين. (منه).

(٢) وهو: حاجي محمد الأصَمُّ الـجُوخِيُّ، المشهور بلسان أَوَار: عِنْقَوْ حَجِيَوْ. (منه).

(٣) كِناية عن كون همَّته تغليظُ قَفاه، وإدخال الطعام في بطنه لا غير، وذلك دأب المواشي، ولذلك قيل: «مَنْ لم يَكن هِمَّتُه إلا لِما يدْخُلُ في جَوْفِهِ.. فقِيمَتهُ ما يخرُجُ مِن جَوفِهِ». (منه).

(٤) أي: تفويض أمور الناس إليه. (منه).

(٥) أي: مشهورة عند الناس.

(٦) أي: من الإمام.

فَصَارَ رَأْيُهُ عَلَى الخِلَافِ ... وَمَا جَنَى الثِّمَارَ مِنْ خِلَافِ[1]
فَالعَجَبُ العُجَابُ مِنْ شَمْوِيلَ ... كَيْفَ سَهَى عَنْ ذَلِكَ الرَّذِيلِ
أَلَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ طَبْعَ الكَاسِي ... لِيَسْتَعِيذَ مِنْ شُرُورِ النَّاسِ.

ثم في تلك الليلة[2] طلب الإمام مَن يذهب إلى وَلده محمد شفيع[3] ليرْجعَ إليه ببَيان صِحّته، وكان ثاوياً في غُنِب مع أهلِه، فإذاً لم يُجِبْهُ في ذلك إلا حَج عَلِي بن مالك الـچُوخِيّ[4]، فذهب هو من هنالك مع عبد الله بن شيخ الـچِرْكاوِيّ[5]، إلى أن رَجع برسالتهِ إلى والده مخبرا فيها عن سلامته، وثباته في بَيْته بلا تحرُّكٍ إلى طرف آخر، فشكر الله تعالى على ذلك، وأثنى عليه لسَعْيه المبرُور[6].

---

[1] شجر لا يثمر، هو كناية عن ذلك النائب. (منه).

[2] أي: حين كان نَازلا على جبلٍ قُرْبَ طِلِقٌ للمبيت. *

[3] في (ب): إلى ولده محمد شافع بكتاب منه، وكان قبل ذلك بسنة مرسولا إلى غُنِب مديرا على قرى عَنْدَلَلْ بسؤال منهم.

هو: محمد شَافِع بن شمويل مِن زوجته فاطمة الگِمْراوية، ولد بعد عِشرين من رجب سنة: (١٢٥٥ هـ/ م ١٨٣٩) في قرية بِنُويْ من چَچَان، ونشأ بها، وبعد سقوط الدولة.. سار إلى كالوگه، وفي سنة: (١٨٦١ م) دخل في خدمة عساكر الروس في فِتِر بُرْغ، وبلغ إلى مَنْصب غنارال في مدة قليلة، ثم سكن في بلد قَازان، توفي رحمه الله تعالى سنة: (١٣٢٤ هـ/ م ١٩٠٦)، وقبره قرب قرية أُچْكِكِنْ من چِرْكِيشْك. *

[4] هو: العالم الحاذق حَجِ عَلِي بن عبد المالك الـچُوخِيّ، من قبيلة نَخِبَاش، ولد في سنة: (١٨١٩ م)، اشتغل بالعلم، فأخذ عن والده، وعن الحاج يوسف الـچَچَاني، كان أبوه خادما للروس، ولذا حبسه الإمام، ثم بعد زمان أطلقه وأخذ ولديه رهنا إلى دَرْغِه، وبعد نحو سبع سنين.. صار أمينا لدى الإمام، وجعله مهندسا، ومسؤولا عن تشييد التحصينات في جميع النواب الاثنتين والثلاثين، وكان رئيس الحَرس، وسَفيرا له إلى النواب. *

[5] في (أ): فتفقَّد، وفي (ب) زيادة: فذهب مع عبد الله بن شَيخ الـچِركَوِي، رئيس العشرة في وِدَان على مهاجري چِرْكَه.

[6] في (ب): وثباته في غُنِب، على أن بعض الناس يقولون له كأنه على قصد الهرب إلى الروس، فسر شمويل بذلك، وشكر سعي حج علي، وأما عبد الله الـچِركوي رفيقه.. فقد رجع في تلك الليلة من وسط الطريق قائلا: «إنه سقط عن فرسه بظلمة الليل، وفقد الفرس».

ونهَض رَوَاحة ذلك اليوم مع أصحابه المهاجرين نحو غُنِب، وحينئذ خرجَتْ علينا أكابر مُجرمي القرى الثلاثة: كُّيَدَه وَرُغْجَه وقُرُدَه، ووَقعوا في كل طريقٍ إليها ومَضيق يزعمون بعدم تخلية سبيلنا إلى غُنِب، والسببُ لذلك على ما سمعناه: أن الإمام الثاني حمزة بيك الهُرَّلِيّ[1].. كان قد خَرج عليهم أيام ظُهور شوكته على ديار داغستان، وأنه اعْتضدَ يومئذٍ بشمويل مِن جانب آخر، فوقع فيهم مِن القتل والأسر والسلب ما يُدْهِش العَقل بل يقال: «لم يكن له سِوى مجرّد الاسم، وكلما وَقع لهم في ذلك اليوم منَ المضَرّة والشدة.. إنما تَسبّبَ له الإمام شمويل»[2]، فبناءً على ما يقتضِيه الانتقامُ.. خرجوا عليه جَهْلاً منهم: أن فَتَيات البقور لا تدرُّ، فانقلبوا صاغرين، وأنشدتُ:

وَشَــأنُ الفَتَى لَا يَسْتَقِرُّ بِحَالَةٍ ... حَــوَادِث دَهْــرٍ مَـا لَـهُـنَّ نِـظَـامُ

فَسَكْرٌ وَصَـحْـوٌ[3] عـزَّةٌ وَمَـذَلَّـةٌ ... سُــرُورٌ وَغَــمٌّ صِـحَّـةٌ وَسِـقَـامُ

لِأَعْــوَامِ مُـلْـكٍ غَـايَـة وَنِـهَـايَـة ... وَأَيَّـــامُ عِــزٍّ آخِــرٌ وَتَــمَــامُ

وَعُـمْـرَانُ أَرْضٍ عرْضَة لِهَلَاكِهَا ... وَلَـذَّاتُ عـمْـرَانٍ عَلِمْتُ سَمَامُ.

فبينما الأصحاب في تِيهِ الخلاص.. قام واحد منهم يسمى بـ: أَدِيلْ عَلِي الـچِرْكاوِيِّ[4] يُحرِّضُهم على الهجوم على قُطاع الطريق، وسَبَّهم وشَتَمَهم، واستأذنَ من الإمام لذلك، وأنشَد:

---

[1] هو: العالم الشجاع الشهيد، الإمام الثاني حمزة بِيك بن علي اِسْكَنْدَر الهُرَّالِيُّ الداغستاني، ولد سنة: (١٢٠٣ هـ)، وَصَاحَب الإمام غازي محمد، ولم يفارقه زمن الإمامة، ولما استشهد الإمام.. استخلف العلماء حمزةَ مقامه، وكان ذا رأي وتدبير وسياسة، وفي سنة: (١٢٥٠ هـ).. تَشاور منافقو خُنْز على: أن يقتلوا حمزة يوم الجمعة، وقتل رحمه الله تعالى إذا دخله المسجد الجامع، في (١٥) من جمادى الأولى. *

[2] في (ب): ومصداقا لذلك: أعطاه الإمام حمزة يوم فتح رُغجْ مكفل وفرس سُلْطانَو؛ أمير أهالي عَنْدَلَلْ.

[3] والصَّحْوُ: ذَهابُ الغَيْم والسُّكرِ. (منه).

[4] في (ب): وكان رئيسا عليهم يومئذ من قبل شمويل.

إنَّ كُيَلْ[1] تَجَمَّعُوا ... وَبِقَتْلِي تَحَدَّثُوا
لَا أُبَالِي بِجَمْعِهِمْ ... كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثْ.

وزَاد عليه قول الشاعر يهجُو قوماً بأنهم نِسوة في صُورة رجال:

فَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ أَرَبٍ[2] لُحَاهُمْ ... سَوَاءٌ ذُو العِمَامَةِ وَالخِمَارِ
وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ ... كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ.

فصاروا[3] فرقتين، منهم: مَن حَسّن ذلك ونهضَ حَصْدَ البغاة، ومنهم: من أبى متعذِّراً بالخوف على العيالِ من جانب آخرَ، نظراً إلى أن الوقت حينئذ كان مُغيَّماً[4] بالغَضب من الجهات السِّتّ، وفي ذلك الخَطْب يقول العاقل اللبيبُ والعالمُ الأديب الداغستاني:

كَأَنَّ الدَّهْرَ غَضْبَانٌ عَلَيْهِمْ ... فَيَسْعَى خَلْفَهُمْ بِالانْتِقَامِ.

فانطَبق الأمر المبرَم بينهم إذا رَأوا تركهُ حَسناً من إنفاذه، واسْتُتر حيث خرجَ، وما أحسن ما قيل في مثلِه:

فِتْيَةٌ بَيَّتُوا عَلَى فِعْلِ خَيْرٍ ... حَمِدَ الصّبْحُ أَمْرَهُمْ وَالمَسَاءُ.

(1) «كُيَدَه» (Kuyada): اسم قرية بين جبل قُلِ مِعِزْ (جَبَل السَّرْجِ) وجبل غُنِب. *

(2) أي: حَاجَة.

(3) أي: الأصْحَابُ. *

(4) كناية عن نفور الإقبال من كل طرف. (منه).

فساروا نحوَ: بِرْ عُرْ[1]، وهي رِيفٌ مِن أرض قَرَاخ، مَسْكَنُ البَطل المشهور بُقْ محمد القِبُدِيِّ[2]، نائب الإمام وقائده إلى ولايةِ خَيْداق بالسَّريَّةِ، فحاربَ في قرية شِلَهِ من قراها، واستشهد بها بَعدما أصِيبَ جراحتان، وحُمِلَ إلى رئيس عَسْكر الروس هنالك، والقصةُ مشهورة. وسببُ إرسالِه: أن أهاليها استنصرُوا مِن شمويل في الدين مراتٍ بِتوجيهِ رُسلٍ ورَسائِلَ خُفْيَةً، وأرَوا له الطوْعَ والقياد لأمره. فأولاً: كان البطلُ المجرّبُ أيضا النائب حَجِ مُرَاد الأواري المشهور[3] مَرْسُولاً إليهم بأبطالٍ مُلْتَقِطين مِن فُتَّاكِ ولايتِه، وانضمّ بهم سِواهم، فرجَع من الطريق بعدما أغارَ على قرية بُيْنَاخْ[4]، وقتل الأمِير شَهْوَلِي[5]، وأسر زوْجه ووَلديْهِ، إلى آخر القصة[6].

---

(١) «بِرْ عُورْ» (Betsor): اسم نهر يجري من أرض قَرَاخ. *

(٢) هو: المهاجر البطل الشهير بُق محمد الغازي غُمُوقي، كان عابدا مخلصا، ذا تدبير في الحروب، مطيعا للإمام من صميم القلب، محبّاً له ولولايته الخُيور، ولاه شمويل نائباً على مُقَر عُور، وكان من خيار نوابه وأحبابه وثقاته، وقائد سريته إلى خيداق وطبسران، وحاصره عساكر الرُّوس في قرية شِلَهِ، ففي الخروج أصِيب جراحتان، فوجده الأعداء حيّاً، وحُمل إلى دَرْبَند، وفي (١٠) مِن ربيع الأخير سنة: (١٢٦٨ هـ) مات هنالك شهيداً، ودفن في مقبرة قِرْخ لَار باحترام، رحمه الله تعالى. *

(٣) هو: القائد المشهور حَجِي مُراد بن هِطِنَو محمد الأواري، كان في خدمة الروس في فترة اسْتيلائهم على ولاية أوار، فهرب لدى الإمام شمويل، وولي نائبا على الأواريين، وقبْله على طِخْ نُوسَال، وفي سنة: (١٨٥١ م) هرب إلى الروس، وأرسلهم إلى بلدة نُخُوه (شِكِه)، ففي نحو يومين من وصوله إليها.. فَرّ برفقاء نحو أربعة إلى طرف إِلِصُو، ولحقوا بهم يوم التالي قُرب قرية تَنْكِتْ مِن ولاية قَاخ، فقتلوه مع رفيقيه بعد غزوٍ شديد، وقُطع رأسه، وأرسل إلى فِتِر بُرْغ، وذلك في (١٥) رجب من السنة المذكورة. *

(٤) «بُيْنَاق» (Buynak): قرية قديمة من قرى السَّهْل، ودار إمارة لمتأخري الشَّماخِلِية سابقا. *

(٥) هو: شَهْوَلِي بن مهدي شَمْخال الثاني، أخو أبو مسلم شمخال. *

(٦) في (ب): وأسر زوجة سلطنة، وولديها: أُخَيْل (عُقَيل) وزبير الساكنين الآن في الوطن.

ثم أرسل ثانياً: النائبَ عمر السَّلْطِي[1] بسوادٍ وافر[2]، فانهزمَ من الطريق من مكان يُعرف بـ: «قُقْمَ»[3] بهجوم الأمير غِنارال سِوِّيتِ أَغلَار خَان[4] عليه على حين غفلة في جنْح الليل، فانتشرت أصحابُه في القِفار، ولم يَرْجعوا إلى أوطانهم إلا بَعد أيام، ويحسن الإنشاد في حقهِ هذه الأبيات:

إذَا لَـمْ يُـعِـنْـكَ الله فِـيمَـا تُـرِيـدُهُ ... فَـلَـيْسَ لِـمَـخْـلُـوقٍ إلَـيْـهِ سَبِيلُ
وَإنْ هُوَ لَمْ يَنْصُرْكَ لَمْ تَلْقَ نَاصِراً ... وَإنْ عَـزَّ أَنْـصَـارٌ وَجَـلَّ قَـبِـيلُ
وَإنْ هُوَ لَمْ يُرْشِدْكَ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ ... ضَلَلْتَ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاكَ[5] دَلِيلُ.

وأما هو وإن انهزم في تلك السرية.. ربّما لا يُعدُّ عيباً، وأنشدتُ في ذلك المعنى بيتاً لتكون جَبْراً لمساويه:

وَلَيْسَ الفِرَارُ اليَوْمَ عَاراً عَلَى الفَتَى ... إذَا عَرَفْتَ مِنْهُ الشَّجَاعَةَ بِالأَمْسِ[6].

فكان النائب بُق محمد المذكور ثالث المرسولين، والبالغ إلى مراده بالقوة المتين، وهو مستَحق للمدح والثناءِ:

---

[1] هو: العالم المهاجر عمر السَّلْطِيُّ، كان نائبا على أهالي هُزَّالْ، وصاحب الإمام في أكثر غزواته، وتَشجَّعَ في قلعة سَلطه، وفي سنة: (١٢٦٧ هـ) عزل عن النيابة بعد وقعة خَيْداق وَطَبَسَران، ثم بعد نحو سنة ولي ثانيا، مات في حُدود سنة: (١٢٩٤ هـ)، وقد زاد على تِسْعين، وقبره في سلطه، رحمه الله تعالى. *

[2] في (ب): أي: بخمسة آلاف رجل.

[3] في (ب): من الطريق الكائن فوق قرية خُسْرَاك من ناحية غازي غمق.

[4] هو: غنارال سِوِّيت أغلار خان بن عمر بيك الغازي غموقي، أمير تلك الولاية وكُرَاه مُنْذ: (١٨٤٧ م) إلى أن مات سنة: (١٨٥٩ م). *

[5] نجم نَيِّر. (منه).

[6] في (ب) زيادة: لأنه قام في قلعة گِرْگَبِ - ووطنه سلطه - غَيورا شجاعا.

كَفَاهُ عَنِ الأعْـوَانِ فِي الأمْـرِ بَأسُهُ ... وَأَغْنَـتْ بِهِ نَصْر الجُيُوش بَـوَاتِـرِهِ
وَمَا اللَّيْثُ مُحْتَاجاً إلَى نَصْرِ غَيْرِهِ ... إذَا سَلِمَـتْ أَنْـيَـابُـهُ وَأظَـافِـرُهُ.

فبيْنا كنا نازلين في رَحْبِ دُون بِرْ عُز.. طَلع علينا النائبُ قُرْبَنِلْ مُحَمَّدِ البَرْدِي[١] مع رفقائه القَرَاخِيِّين، وكان نائباً لهم يومئذ بعدما عزله الإمام من النيابةِ على ولاية صُغُور[٢] لوفور شَكواهُم المستمرّ إلى عَزلِهِ، وهو مِن خيار نوابه العلماء[٣]، فشاوَره بالذهاب إلى قلعة عِرِيَّة[٤]، كان بها السلطانُ دانيال الإِلِسَّوِي[٥] رئيساً، وهو غِنارال الروس قبل الهجرة إلى الإمام، ومِن ثم اتخذه أمينا محترماً، تزوَّج ولده غازي محمد بابنتِهِ كريمة، وعاشت معه إلى أن توفّيت في بلدة كَالُوكَه، ثم حُمِل نعشها إلى مدينة نُوخَه - من مدائن قَفْقاز - بوصيّةٍ منها[٦]. فلم يتفق أصحابُ شمويل على هذا الرأي الفاترِ والجهل القاصِر قائلينَ: «إنا لا نقدر المقاوَمة مع العدوِّ في قلعة عِرِبْ»،

---

[١] هو: العالم الفقيه محمد بن قربان البَرْدِيّ، كان أولا مُفتيا في صُغْرَاڨ، ثم وُلي نائبا على قُراها، وقبل نحو شهر من الاستيلاء على غُنِب.. عزل، وولي نائبا على قَرَلَلْ، مات رحمه الله شهيدا في قريته سنة: (١٢٧٨ هـ). *

[٢] «صُغْرَاڨ» (Sogratl): أكبر قرية من قرى عَنْدَلَلْ. *

[٣] في (ب): وكان مع ذلك من خيار نوابه العلماء، إذ كثيرا ما كان توجهات الإمام إليهم من بين العوام لحبه إياهم، وتوقيره لهم على المنقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم.

[٤] «عِرِبْ» (Irib): أكبر قرى قَنْصِرُخْ، وكانت بها قلعة مشيّدةٌ للمسلمين. *

[٥] هو: دانيال سلطان بن أحمد خان الإِلِصَوِيّ (١٨٠٣-١٨٧١ م)، تَولّى السلطنة بعد وفاة أخيه سنة: (١٨٣١ م) في ولايته إلصو، وفي سنة: (١٨٤٤ م) هاجر إلى شمويل بِچِينِ غِنارال مَايُور، واجْتَمع به في وقعة قنطرة قُرُدَه، فاحترمه الإمام وقربه، وولاه نائباً ثم مديرا، ثم خان للإمام في آخر الأمر، واستسلم قلعة عِرِب وما فيها إلى الروس في (١٥) من محرم، وفي (٢٠) سار برفقائه إلى بَرَاتِنْشكِي وهو في طَنْدُ، وصار مَعفوا عنه من جانبهم، وجَدّدت له الدرجة العسكريّة التي كانت قبل، وفي سنة: (١٢٨٦ هـ) هاجر إلى ولاية پاد شاه الإسلام، ومات هناك، رحمه الله تعالى. *

[٦] في (ب): ودفنت عند قبر شيخ هنالك، مزار مشهور بـ: بَرْتَمَ بَبَ. ثم تنكر الإمام عليه في أواخر الأيام بعدما كثرت عنه الوشاة بأنه يخون له ويتجسس في إيصال أسراره إلى الروس في قصة طويلة يمل عنها.

مقاوَمتنا في غُنِب، ولا يخفى على ذي لبّ ما كان بينهما مِن الفرْقِ الواضِح، بل ربما لا يبعد أن يُعدّ غُنِب مِن أحْصَن بقاع الممالك القَفْقازية حتى في بَسِيط الأرض، والأقاليم المعمورة، خصوصاً عند قِلّة الأنصار، وضعْفِ المأوى والدارِ، ولعل ذلك النائب أشارَ بذلك الرأي الفاترِ لِمَصلحةٍ يَظنُّها بعدما رأى كُدورةَ الزمان وأهلِه من الجوانب الأرْبع[1]، وإلا.. فالعاقل لا يقول به قط، كيف لا؟! مع أن جبل غُنِي.. غَنيّ عن التشييد والإحكام، بل هو مخلوق بالإحصان الفائِق.

وقد افتَخر به واحد من علماء داغستان على سائر البِقاع والقِلاع، والجبال العَوالي، وبالغ في مَدحِه له وقال:

دِيَــارٌ[2] فِـي جِـبَـالٍ رَاسِـيَـاتٍ ... وَأَقْـطَـارٌ عَـلَـى قُـلَـلِ الإكَــامِ[3]
وَتِـلْـكَ قُـرىً مُـحَـصَّـنَـةٌ وَعَـوْرٍ ... شَــوَاهِـقُ بَـيْـنَ أَعْــلَامٍ سَـوَامِ
لَـقَـد كَـانَـتْ مَـسَـاكِـنَ طَـيِّـبَاتٍ ... لِأَبْـطَـالٍ وَإِخْــوَانِ الـتِـزَامِ
نَـعَـمْ؛ لَا سِـيَّـمَـا جَـبَـلٌ غُـنِـيٌّ ... غَـنِـيٌّ عَـنْ حُـصُـونِ الاعْـتِـصَـامِ
هُوَ المَخْلُوقُ مَسْدُودُ الثُّغُورِ[4] ... وَمَسْدُودُ السَّبِيلِ إِلَى السَّنَامِ[5]
أَحَـاطَ بِـهِ الـسُّـرَادِقُ مِـنْ صُـخُـورٍ ... عَـلَـى أَطْـرَافِـهِ مِـثْـلَ الـعَـمَـامِ[6]

---

[1] في (ب): يظنها بعدما رأى تراكم غيوم الكدورة حينئذ من أبناء الزمان، لتكون وسيلة إلى نهب خزائن الإمام الكائنة مع دانيال، إن استدعت الضرورة إلى النقلة والهرب إلى مكان آخر، كما فعلوا ذلك في ليلة الارتقاء على جبل غُنِه كما يأتي، وإلا...

[2] خبر لمحذوف أي: الداغستان ديار. (منه).

[3] جمع أَكَمَة. (منه).

[4] أي: الأطراف. (منه).

[5] وهو: ما ارتفع من ظَهر الإبل، استعير لكل مرتفع. (منه).

[6] أي: مثل تدوير العمامة. (منه).

بِـهِ اعْـتَـصَـمَ الإمَـامُ وَأَهْـلُ دِيـنِ ... لَـدَى الإيقَانِ مِنْ ضُعْفِ القِوَامِ
وَمَـا أَغْـنَـاهُ مِـنْ سُـوءِ الـقَـضَـاءِ ... وَهَـلْ يُغْنِي عَنِ القَدَرِ اللِّزَامِ[1].

القصيدة.

وَمِن غريب ما بلغنا من أوصاف هذا النائب الذي سماهُ الإمام بـ: بُغَا، ومعناه بالعربية: الفحلُ من الثِّيرانِ: أنه خرج ذاتَ يوم إلى طرف مُقْعُرْ[2] - وهي قرية في حدِّ ولاية غازي غمق - ومعه مِن الخِيال والمشاة جمعٌ كثير، وفي قَرَبُوسِ سَرْج فرسِهِ حَقِيبةٌ بها عِدة قثّاءاتٍ، فجعَل يقشِّرها ويأكلها حتى أفنى شيئاً كثيراً، وأصحابه يطيرُون إلى صارِخي الوَغي كأنهم البُروق الخَواطِف، والأسُود الحوارِد إلى لحوم الصيْدِ. القصة.

ومِمّا يُنْسب إلى الشيخ ابن حجر العسقلاني هذه الأبيات:

ثَـلاثٌ هُـنَّ فِـي الـبِـطِّـيخِ فَخْر ... وَفِـي الإنْـسَـانِ مَـنْـقَـصَـةٌ وَذِلَّـة
خُـشُـونَـةُ جِـلْـدِهِ وَالـثِّـقَـلِ فِـيهِ ... وَصُـفْـرَةُ لَـوْنِـهِ مِـنْ غَـيْـرِ عِـلَّـة.

ووَقع له نظير ذلك مَرّة أُخرى في سَرِيَّتِهِ إلى نَهْبِ مَواشي قرى غازي غُمُق، بينما هو على تَلّ بين الفَريقين.. أمر أصحابَه بجمع أعْوَاد ألوية السّوادِ وغرزِها في الأرض، لتبْسطَ اللبدُ عليها فيَسْتظل بها مِن حَرّ الشمس، فأكَلَ تحتها الكمثرى وهو يُناول القُشورَ لمن يَليهِ، ويَحْسن له في ذلك قول الشاعر:

حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ ... وَلَـيْـسَ لِـمَـا فِـي بَـيْـتِـهِ بِمُضِيعِ.

---

[1] أي: اللازم عليهم: السابق في علمه الأزلي. (منه).

[2] «مُقَر» (Mukar): قرية على (٨) كم شمال غرب غازي غموق. *

ثم انهزَم من هنالك، وبقي بقيّةٌ من الثمار في المَنْزِل كبُيوض نعَامة طارَتْ عنها، ووَقع بذلك ضررٌ، فيهم قتلاً وأسراً على عَددٍ ما أفْنى مِن الثِّمار يومئذ حتى لم يُساعد له إدْخال حسَامه في الغِمْد رُعباً ودَهْشةً لمَا رأى ما نَزل بالأصحاب من الاستئصال، فهَرب من هنالك وقضيبُه في كفِّهِ... وقلتُ في وَصْف حسامه المغلول مِن قِراع الكَتائب بَيتاً، فما أحْسَنها له:

يَبِسَ النَّجِيعُ[1] عَلَيْهِ وَهْوَ مُجَرَّدٌ ... عَنْ غِمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُغْمَدُ.

...حتى إذا وصَل إلى المأمَن.. جَعل المنافقون يقولون: «أيها البطل الشهير النائب قُرْبَنِلْ مُحَمَّد؛ هل يكفي لك تلك الضيافة أم نزيدُكَ عليها؟» فلم يُجابوا بحرْف، ولا التفتوا نحوهُمْ بطَرَفٍ.

ففي تدبير هذا النائب وتوفر عَقله عِبرة لمن اعتبَر، وغُنية عن ذكر أوصاف سائر النواب، فغفر الله لنا وله، ولا يؤاخذه بذلك. هذا ما بلغنا من حكايته.

فكأن الإمام أخطأ في تسمية أمثالِه الظرفاء بـ: بُغْبٍ[2]، جَهْلاً منه: كونهُ وأضرابه من الفُحول التي تلوّثُ العُرى عند مسابقة الفرسان في مِضْمار الملاحِم، ومضائق المجامع، وفي ذلك يقول المادح المذكور الداغستانِي:

لَقَدْ وَسَدَ الأُمُورَ لِغَيْرِ أَهْلٍ ... وَظَنَّ الأَمْنَ فِي غَيْرِ المَقَامِ.

فإذ لم ينجَع فيه مَشورة ذلك النائب المشتهر بصِيتِه.. توجّهَ من ذلك الصَّعيد نحو غُنِب، ورجعَ هو مسترخى الآذان كحِمَار تعبَ بثقل الأحمال جَزاءً وِفاقا، ونزل في الفجر الكاذب في غُنِب.

---

[1] أي: الدم. (منه).

[2] أي: بالفُحول. *

وَقبل خلاصنا من أرض البغاة المعْتدِين.. لقينا نحو: خمسة من الرُّغْجِيِّينَ في ساحة دُونَ قرية رُغُجَه، وكانت أحمال السِّلاح، والكتب، والبَيضاء خلفنا تَقودُها السَّلاديت بِسَيْر خفيف، فأخبروا الإمام بأن ليس له ولأصحابه وتابعيه حاجبٌ سوى ما كان من رجال كُيِّدَه، وبعض من رجالِ رُغْجَه، وحينئذ كان هو وحزبه كالإبَر المهَيّأة للغرز في عيون مَن تَقدّم إليهم بسُوءٍ، فإذا رأوهم[1] على تلك الهيئةِ المهِيلة.. خافوا من القَدِّ والقتل؛ فانطلقوا، بل علمنا بعدُ: أنه كان في ذلك مكيدةٌ منهم، وإنما خرجوا لطلب العِظام ولو من المزابل، فأغاروا على تلك الأحمال بعدما عَلموا: أنها عُزْلةٌ.

ولله در الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال في أمثالهم:

مَا فِي زَمَانِكَ مَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ ... وَلَا صَدِيق إذَا جَار الزَّمَان صَفَى
فَعِشْ فَرِيداً وَلَا تَرْكَنْ إلَى أَحَدٍ ... فَقَدْ نَصَحْتُكَ فِيمَا قُلْتُهُ وَكَفَى.

وألطفُ من ذلك قول الآخر الظريف:

إذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ ... فَإنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا[2]
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إلَّا خِدَاعاً ... وَلَمْ أَرَ حُبَّهُمْ إلَّا نِفَاقَا.

فإن قيل: «لا ينبغي أن يعزَّ الذليل، ويذل العزيز إن كانت الاستقامة معه كما يزعمُ، كما هو عادة الدهْرِ غالباً، وذلك جَوْرٌ»، قلتُ: «لا، وذلك معلوم»، وأنشدت فيه:

---

[1] أي: خمسة من الرُّغْجِيِّين. *

[2] والقياس: ذقت، عُدِلَ عن ذلك لاستقامة النظم. (منه).

يطْرِقُ أهْل الفَضْل دُونَ الوَرَى ... مَصَائِب الدُّنْيَا وَآفَاتِها
كَالطَّيْر لَا يُسجَنُ مِن بَيْنِها ... إلَّا التِي تطْرُبُ أَصْوَاتها.

ويحسن في ذلك المعنى أيضا قول المجرب اللبيب:

لَا تُنْكِرِي يَا عِزَّ إنْ ذلَّ الفَتَى ... ذُو الأَصْلِ، وَاسْتَعْلَى لَئِيمُ المُحْتِدِ[1]
إنَّ البُزَاةَ رُؤُوسُهُنَّ عَوَاطِلٌ ... وَالتَّاجُ مَعْقُودٌ بِرَأسِ الهُدْهُدِ.

وأنشدتُ أيضا في وصف أبناء الزمانِ حَشْوهم الغدر والخِيانة، فمن تأمّل فيما أقول.. لا ينسبني إلى الجهل والحماقة فيما أظنُّ، والحق مرٌّ حيث كان:

المَرْءُ فِي زَمَنِ الإقْبَالِ كَالشَّجَرَةِ ... وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلهَا مَا دَامَتِ الثَّمَرَة
فَإنْ تَسَاقَطَ عَنْهَا حَمْلُهَا رَحَلُوا ... وَخَلَّفُوهَا تُقَاسِي الهَمَّ وَالعَبَرَة
تَبّاً لِأبْنَاءِ هَذَا الدَّهْرِ كُلِّهِمُ ... حَتَّى وَلَا وَاحِدٌ يُصْفِي مِنَ العَشَرَة.

وبَعد التي واللَّتَيّا[2] عَبرنا من أرض رُغْجَه بين رَمْي وطَعْن، وصَارخ وبَاكٍ حتى ارتقينا على جَبل غُنِب في الفجر الكاذبِ كما ذكرنا، وأحسن ما يقال في مثله قولهُ:

وَلَقَدْ أرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي.

فدَخلنا القريةَ الغُنِبّةَ، واجتمعنا بأجمعنا مع محمد شفيع، وأهلِهِ، وأهلِ غازي محمد[3] بلا مَسِّ ضررٍ في الطريق، صَحِيحين سالمينَ، سوى ما صار للخزائِن، فإنها

---

[1] الأصل والنسب.

[2] أي: بَعد جَرَيان أمر كذا وكذا. *

[3] هو: غازي محمد ابن الإمام شمويل من زوجته فاطمة الگمراوية، ولد في ذي القعدة سنة: (١٢٤٨ هـ)، وفي سنة: (١٢٦٦ هـ) بمشاورة العلماء ولي نائبا على ولاية كَّلَلْ، ثم مديراً، فبويع له بالإمامة بعد والِده، ثم

بَقيتْ كالجيفة في الفَلاة تجتذبها الكِلابُ، ويحسن في ذلك قوله:

وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ المَرْءِ نِعْمَةٌ ... وَلَكِنْ عَارٌ أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ

الأبيات.

وأزيد على هذا أبياتاً، فهُنَّ تنبتُ الإيناس أنباءً:

فَلَا تَضْجرُ أيَا خِلي ... عَلَى قَلٍّ وَلَا كَثْرِ
وَلَا تَغْتَمَّ يَا أَمَلِي ... عَلَى رِبْحٍ وَلَا خُسْرِ
فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا يَبْقَى ... عَلَى عُسْرٍ وَلَا يُسْرِ
فَكَمْ شَاهَدْتُ مِنْ نَارٍ ... بِأَعْنَاق مِنَ الأَسْرِ
وَكَمْ أَدْرَكْتُ إِدْرَاكاً ... وَأَنْصَاباً مِنَ اليُسْرِ
فَإِنَّ الصَّبْرَ مِفْتَاح ... لِمَا لَمْ يَأْت بِالعُسْرِ.

ثم لم أَرْوِ بهذا النَّهَل، والتَمَسْت العَلَلَ[1] من ذلك الحَوض، وطبتُ نفسا بالخوض، وقلت رجاء أن يكون تسْلية له ولأصحابه:

لَا تَيْأَسَنْ مِنْ فَرَجٍ وَلُطْف ... وَقُوَّة يَظْهَرُ بَعْدَ ضُعْفٍ
وَرُبَّمَا جَاءَكَ بَعْدَ اليَأْسِ ... رَوْحٌ بِلَا كَدٍّ وَلَا التِمَاس.

ذهب مع أبيه الإمام إلى كَالُوكَه، ففي سنة: (١٢٨٨ هـ) أطلق وأرسل إلى الدولة العثمانية، فأعطاه السلطان عبد الحميد الثاني رتبة مُشِير، توفي في المدينة النبوية في (٢٦) من جمادى الأخرى، ليلة السبت، سنة: (١٣٢١ هـ)، ودفن في البقيع عند أبيه، رحمه الله تعالى. *

[1] وَالعَلَلُ: الشُّرْب الثاني، يقال: عَلَلٌ بَعد نَهَل. «مختار». *

فصارَ الأمر كما قلتُ بل أزيد، والحمد لله الواحد الصمد، وكأني أتذكّرُ يومئذٍ حكايةَ واحدٍ ركبَ البحرَ، فتكسّر سفينته، فوقعَ في جَزيرةٍ، فمكث ثلاثة أيام لم يَر أحداً، ولم يأكل ولم يشرب، فتَمَثّل بهذيْن البَيتين، فقال رحمه الله تعالى:

إذَا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ[1]
وَصَارَ البَحْرُ مَرْتَع كُلِّ ذِئْبِ ... وَصَارَ البرُّ مَسْكَنَ كُلِّ حُوت.

فأجابَه مجيبٌ لا يُرى شَخصُه ويُسْمع صوتُه، فقال:

عَسَى الهَمُّ الذِي أَمْسَيْت فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ
فَيَأمَنُ خَائِف، وَيُفَكُّ عَانٍ ... وَيَأتِي أَهْلَهُ الرَّجُلُ الغَرِيبُ.

فإذاً سفينة قد أقبَلَتْ، فأوّحَ لهم، فحملوه، فأجاب خيراً كثيراً. القصة.

ثم إن خازن الإمام حَجِيَو العُرُطِيّ[2] قد بقي في رَحْب زُورِبْ[3] مع أحمال كنزه، والكتب، والسلاح بعدما مَنَعهُ البغاة من اللحوق به وأحزابه، فتلقوا الكنزَ بالاغتِنام من كل جهة.

وأرْسَل المرشدُ قِبَل محمد الطِّلِقِّي الرُّسُلَ والرسائل تترَى إلى أهالي القرى الثلاثة المذكورة آنفاً، ممّن ظفروا الإغارة على كنز الإمام، يَأمرُهم فيها بـ: أداءِ

---

(1) القَارُ: وهو شيء أسْوَدُ يُطْلى به السُّفُن ونحوها، وكأن الشاعر عدَّ خلاصةُ محالا؛ كما أن انقلاب القار لبناً، وشيب الغراب الأسود محالان. (منه).

(2) هو: خازن الإمام شمويل حَجِيَو بن عَارِف العُرُطِيّ، اسْتعمله الإمام نائباً، ثم خازنا لبيت مال المسلمين، وفي سنة: (١٢٨٦ هـ) أدّى الحج مع شمويل، وأقام بعد أدائه عنده في المدينة، وفارق عن الإمام في أصعب وقت عليه، يقال: إنه مات في طريق العودة إلى الوطن في إسلام بُول، رحمه الله تعالى. *

(3) «زُورِبْ» (Tsurib): قرية قَراخية. *

جميع ما ظَفِرُوا به من أمواله في أيديهم، ويزْعمُ بأن السَّرْدارَ كِيناز بَرَاتِنْسْكِي قد مَلَّكَهُ على أمواله[1]، ويُهدِّدهُمْ في الرسائل: «أن كل من بلغ إليه أمرهُ، ثم أبى عن ايتِماره.. فلا يَلُومَنّ حينئذٍ إلا نفسَه، فإنه لا يَقبل منهم بعد ذلك عذراً ولا قولاً». فاغترَّ أكثرهم بذلك القول، ودَفعوا ما تملّكوا به إلى أيدي رسلِهِ من النقد والسلاح والكتب، فجلَسَ على أمواله كالنعامة على بيوضها؛ خوفاً عليها من مَسِّ أيدي الأغيار أو الغُبار، ولكن لم ينتفع بها طويلا، بل صارت في الدنيا خَسارة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فبينما الخازن حجيو العرطي في هذا الاجتذاب من الجهات الأربعة كالجيفة بين الكلاب.. ألقِي إليه كتابٌ كريم حريص من طرف دانيال بيك الإلِسوي، صديق الإمام في الرخاء، وأما ما صَدر منه في البأساء.. فلا يُعْتدُّ به لدى الجُهلاءِ وإن اسْتَهْجنَه مَن فيه شائبة من اللب لأجل أنهم يَعدّون الحسَنَ ذمّاً غالباً، فلا اعتبارَ بهم، تأمل. وحاصلُ ما فيه على ما قال به مَن كان عند الخازن يومئذٍ: أن مُرْسِل الكتاب يُشاورُه في انتقاله إليه، إذ كان حينئذٍ في قلعة عِربْ مع العَدد الكثير والعُدد، ورَصَّع له[3] الأقوال، وموَّهها بتَمْوِيه المكيدة والخداعة لِما بلَغهُ ترفّهُ حالهِ[4]، وسعة يده، وغَزارة ما عنده من الدراهم. ومن ثم أراد شِراهُ بثمنٍ بَخْسٍ أقوال مُزيَّنةٍ مُسَرَّجةٍ مُنعَّلةٍ، فتفطّنَ الخازن له، وأبى من قبول سَراب بِقِيعَةٍ يَحسَبُه الظمْآنُ ماءً، حتى إذا جاءه.. لم يَجده شيئاً، ولكن وإن خابَ البِيكُ مِن هذه الجهة.. فقد فازَ فوزاً عظيماً من جهة أخرى كما سيأتي بيانه.

---

[1] أي: الإمام. *

[2] سورة الزمر، الآية: ٢٦.

[3] رَصَّعَ: أي: مُرْسِل الكتاب دانيال سلطان. له: أي: للخازن حَجِيَو. *

[4] أي: الخازن. *

ويعجبني قولهم في هذا المعنى:

بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى ... وَلَا سَابِقاً شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِياً.

ويقال: مَبلغ ما جمعَهُ قِبد محمد مِن أموال الإمام ثمانية الآف منات خالصَةٍ[1]، سِوى الحليّ، والحُلَل، والسلاح، والكتب.

وما أحسن ما قيل في مثله:

قَـدْ يُـجْـمَـعُ الـمَـالُ غَـيْـرُ آكِـلِـهِ ... وَيَـأْكُـلُ المَالَ غَيْرُ مَـنْ جَـمَعَهُ.

وألطف من ذلك قول العاقل المجرِّبِ للأمور:

عَـنَـتِ[2] الـدُّنْـيَا لِطَالِبِهَا ... وَاسْـتَـرَاحَ الـزَّاهِـدُ الفَطِنُ

كُـلّ مَـلِـكٍ نَـالَ زُخْـرُفَـهَا ... حَـسْبُـهُ مِـمَّـا حَـوَى كَـفَـنُ

يَـقْـتَـنِـي مَـالاً وَيَـتْـرُكُـهُ ... فِـي كِـلَا الحَالَيْنِ مُفْتَتِنُ

أَمَـلِـي كُـونِـي عَـلَـى ثِـقَـةٍ ... مِـنْ لِـقَـاءِ الله مُـرْتَـهِـنُ

أَكْـرَهُ الـدُّنْـيَا وَكَـيْـفَ بِهَا ... وَالَّـذِي تَسْخُو بِـهِ وَسَـنُ[3]

لَـمْ تَـدُمْ قَبْلِي عَلَى أَحَـدٍ ... فَـلِـمَـاذَا الـهَـمّ وَالـحَـزَن.

ولله دَرّ مَن قال وأجْرى مِن فيه الماء الزُّلال:

إِنَّـمَـا هَـــذِهِ الـحَـيَـاةُ مَـتَـاعٌ ... فَالجَهُولُ الجَهُولُ مَنْ يَصْطَفِيهَا

مَا مَضَى فَـاتَ وَالـمُـؤَمَّـل غَيْبٌ ... وَلَـكَ الـسَّـاعَـةُ التِي أَنْـتَ فِيهَا.

---

[1] مَنَات (مُنِيتَ): العُمْلة المَعدنيّة، والمَنات الواحد كان يُساوي: رُوبْلاً واحداً. *

[2] أي: شقت. (منه).

[3] تَسْخُو: أي: تكلّف. الوَسَنُ: ثَقْلة النوم. (منه).

فإذا كان مِن شأن الزمان هذا.. فلِماذا الحُزْنُ على ما فاتَ والفرحُ بما هو آت؟!

فَالكُلُّ عِنْدِي مِنْهَا سَوَاءٌ ... فَلَا تحمّلْ فِيهِمَا العَنَاءُ.

ولَمّا كان مِن قِصّة ذلك المرشدِ الجامع المانع قِبِد محمد ما يُعجب منه السامع والناظر.. أورَدتُ هنا قصيدة غير طويلة مُشيرة إلى بعض شمائله، فلتكنْ عبرةً لمن خلفَهُ، ولا يَسْرِ على رِسْلِه كما يقال: «خُذ الثمارَ وخلّ العُودَ في النار» أو «اعْبَر الجِسرَ الفلانيَّ ولا تُعمِّرْهُ»، وهي هذه:

قِبِد مُحَمَّد كَانَ كَالعِمَادِ ... لِلدِّينِ وَالاحْكَام وَالرَّشَادِ

وَيَنْصُرُ الإِمَامَ بِاجْتِهَادَ ... فِي الحَرْبِ وَالقَمْعِ[1] ذَوِي الفَسَادِ

وَقَامَ[2] يَدْعُو النَّاسَ لِلْجِهَادِ ... بِالسَّيْفِ وَالمَالِ وَكُلّ زَادِ

وَشَيَّدَ القِلَاعَ بِالأَوْتَادِ ... وَرَفَعَ القُصُورَ كَالشَّدَّادِ[3]

وَصَوَّغَ المَدَافِعَ الكِبَارَ ... وَأَظْهَرَ البُغْضَ لِكُلِّ حَادِّ

بِعَذَبَةٍ طَوِيلَةِ الإِرْسَالِ ... وَرَايَةٍ مُمْتَدَّة الأَعْوَادِ[4]

وَلِحْيَةٍ خَضِيبَة الشُّعُورِ ... وَنِيَّةٍ سَرِيعَة الرَّمَادِ[5]

وَبِرِدَاءِ المَيْنِ مِنْ أَوْبَارِ ... وَدِرَّةِ التَّعْذِيرِ كَالجَلَّادِ[6]

---

(١) من ولاية داغستان. (منه).

(٢) أي: أول الجهاد في ديار داغستان. (منه).

(٣) شَدَّادُ بنُ عَاد، وقد بنى مدينة تسمى: إرَم على مثال الجنة، لما اطلع على أوصافها في الكتب القديمة، والتواريخ العتيقة، القصة مشهورة. (منه).

(٤) كلاهما (أي: عذبة وراية) من أمارة المريد الخالص المجاهد. (منه).

(٥) كناية عن سرعة الزوال كما أن الشهاب يحورها في أسرع وقت. (منه).

(٦) كناية عن ضعف نيته، وفتور اعتقاده حيث أظهر علامات الزاهد المخلص من العمامة العظيمة، وتخضيب

حَتَّى إذَا وَلَّاهُ لِلتَّدْبِيرِ ... انْعَكَسَ الأمُورِ بِالعِنَادِ[1]
وَانْخَلَعَتْ عَنْهُ ثِيَابُ الآئِبِ ... وَزَيَّنَتْ لَهُ جُلُود المَارِدِ[2]
فَيَا لَهُ مِنْ زَلَّةِ الوَبَالِ ... بالطَّرْدِ وَالحَبْسِ لَدَى الوِدَادِ[3]
كِيلَ لَهُ بِكَيْلِهِ[4] القَدِيم ... كَالَ مَعَ الأَغْلَارِ ذُو الأَوْتَادِ[5]
سُبْحَانَ مَنْ يُظْهِرُ سِرَّ العَبْدِ ... لِعَبْدِهِ[6] الجَلِيلِ ذِي اعْتِمَادِ
إذْ كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ الوَفِيّ ... فِي الصِّدْقِ وَالأَمْنِ وَفِي السَّدَادِ
فَضَرَبَ الرِّقَابَ مِنْ كِرَام[7] ... وَقَدَّهُمْ نِصْفَيْنِ كُلَّ وَادِ
وَهْوَ لَعَمْرِي أَجْلَد الأَنَامِ ... دِيناً وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الفُؤَادِ
تَبّاً لَهُ مِنْ خَادعٍ مَكِيد ... وَصَاحِبِ الخِيَانَةِ الشَّدِيدِ[8]
ابْتَدَأَ الجِهَادَ بِاجْتِهَادِ ... وَصَارَ فِي الآخِرِ كَالمَرِيدِ
فَلَا تَثِقْ مَنْ خَانَ لِلرَّحْمَنِ ... يُظْهِرُ مِنْهُ الأَمْنُ لِلْعِبَادِ.

اللحية، وإرسال العذبة الطويلة، ورِدَاءَ الصوفية، كَمَن في ضميره خلاف الظاهر، وذلك علامة المكار الخداع، ويسمى ذلك: تلبيس إبليس، نعوذ بالله تعالى من أمثال هذه الأمور، وَمِن الخِيانة بعد الأمانة، انتهى. (منه).

[1] أي: إذا جعله الإمام مديراً على الخلق.. ادعى الإمامية، وأضمر في نفسه الحقد والخيانة، وذلك من شيم اللئام، والخائن خائن عندنا وعند الروس، وحيثما كان نكالا لخيانة، فما أكرم الأمين على الله تعالى وعلى الخلق، تأمل. (منه).

[2] الشيطان اللعين. (منه).

[3] بِالطَّرِدِ: أي: مِن وطنه طِلِقٌ. وَالحَبْس: أي: في دَرْغِه لدى الإمام. (منه).

[4] أي: قِبِد محمد. (منه).

[5] كناية عن كونه ذا الرعية. (منه).

[6] سر العبد: أي: قبد محمد. لعبده: أي: الإمام. (منه).

[7] أي: چُنْكَب. (منه).

[8] حُذِفت التاء للوزن. (منه).

ثم إن دانيال بيك الإلِسَّوي.. كان أميناً عند الإمام وعند الروس أيضاً قبل ذلك[1]، وأنه كان مقبولَ القول والفِعل عند الناس، فاقتضَت شُهرتُه ذكرَ مكارمِه وفضائله وإن كانت مَغْشوشة مموّهة بما لا يخفى تزيّغُه.

فبناء على ذلك أتيتُ هنا أبياتاً نظمها مَن نظم قبلُ في حق المدير قبد محمد، والنائب إسماعيل، وقد سبق ذكر أوصافهما البَهيّة، فليكن هذا البِيكُ مُنخرطاً في سلكهما لِشِبْهِه بهما في أكثر الشِّيم الكريمة التي لا توجد في غالب الناس الأمناء، ومن ثم كان خليلا له[2] في الرخاء، واستيلاءِ سيفهِ على أمثالِه الأمراء، خصِيماً له في البَأساء، وهَذْءِ نَسيم صَبَا[3] المراد عنه، وهَبِّ[4] دبور الاصطلام والعَناء، فصار من الأحقاء لذكر سَجاياه، ولإعطاء حَظٍّ من المدح والثناء جَزاء لخباياهُ، وتلك الأبياتُ هذه:

ثَانِيهِمُ[5] الخَائِنُ دَانِيَال ... مِنْ قَبْلُ لِلرُّوسِ فَلَا يَنَالُ[6]

هَاجَرَ مِنْهُمْ إِلَى الإِمَام ... وَكَانَ عِنْدَهُ مِنَ الكِرَام

يَبْدُو لَهُ بِزِيِّ ذِي النَّامُوسِ ... فَانْعَكَسَ الأَمْر إِلَى الجَاسُوسِ

فَخَانَهُ اللَّئِيمُ فِي الأَوَاخِرِ ... فَهْوَ إذاً مِنَ الشُّرُورِ الخَاسِرِ

بِأَنَّهُ السَّارِقُ مِنْ كُنُوزِهِ ... مَعْ كَوْنِهِ لَدَيْهِ مِنْ أَخْيَارِهِ

[1] أي: قبل الهجرة إلى الإمام. (منه).

[2] أي: للإمام. (منه).

[3] ريح تهبّ من صوْب الكعبة. (منه).

[4] ريح تهبّ من جهة الجَنوب. (منه).

[5] أي: النواب الذين خانوا الإمامَ مع قربهم لديه، واختياره إياهم من سائر العوام. (منه).

[6] أي: الخير. (منه).

وَصَــــارَ هَــذَا أَعْـبَـدَ الـعُـبَّـادِ ... وَأَزْهَــدَ الـزُّهَّـادِ فِـي انْـفِـرَادِ[١]

وَلَـمْ يَـزَلْ عَوْناً لِأَهْـلِ الدِّينِ[٢] ... بِـالـعَـدَدِ وَالـعُـدَدِ الـمُـبِـينِ

أَنْــفَــقَ فِـي اللهِ بِـكُـلِّ زِيـنَـةٍ ... كَابنِ عَـفَّـانَ[٣] لِجَيْشِ العُسْرَةِ

وَكَابْنِ عَـوْفٍ[٤] قَائِدِ الجُيُوشِ ... لِـجَـنْـدَلٍ وَسَـائِـرِ النُّـحُـوسِ

بَلْ شَابَهَ الصِّدِّيقَ فِي الإنْفَاقِ[٥] ... بِـكَـنْـزِهِ وَالـمَـالِ وَالـنِّـطَـاقِ

وَفِـي جِـهَـازِ الجُنْدِ وَالأَنْـصَـارِ ... فِي الحَرْبِ كَانُوا كَالأُسُودِ الضَّارِّ

مَـا أَشْـجَـعَ الـسُّـلْـطَان دَانِـيَـال ... فِي نَهْبِ أَمْـوَالِ الإمَام شَمْوِيل

أَلَـمْ يَـخَـفْ مِـنْ بَـارِئِ الأَنَـامِ ... لِـيَـأْكُـلَ الـحَـرَامَ كَالجَحِيمِ[٦]

إِذْ كَــانَ يُـدْعَـى أَنَّــهُ الـكَـرِيـمُ ... كَيُوسُفِ الصِّدِّيقِ وَالكَلِيمِ[٧]

---

[١] من الناس.

[٢] لأنه أنفقَ أموالاً لمُؤَنِ الجهاد بتشييد القلعة، وإفراغ البنادق، وإعطاء الحوائج للمهاجرين، ونحو ذلك. (منه).

[٣] وهو: عثمان بن عفان صهر النبي عليه السلام، أنفق مرّةً لتجهيز الجيش ألفَ دينار، وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله تعالى، وعند ذلك دعا له النبي عليه السلام بقوله: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُثْمَانَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»... إلخ. (منه).

[٤] وهو: عبد الرحمن بن عوف عاشر العشرة المبشرين بالجنة، وقد جعله النبي عليه السلام قائدا لسرية إلى الجَنْدَل، وعمّمهُ يومئذ بيَدِه الكريمة، ودعا له، و... إلخ. (منه).

[٥] وهو: أبو بكر شيخ الخلفاء يوم الفتح. القصة. (منه).

[٦] أي: كَنَارِ جَهَنَّم المحرّم على نفوس المؤمنين. (منه).

[٧] أي: موسى كليم الله عليه السلام. (منه).

سَيِّد جَمَالُ الدِّين[1] كَانَ يَزْعُمُ ... بِأَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ بنُ الأَدْهَمُ[2]

بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَام ... لَا يَرْتَقِي الإِنْسَان إِلَى المَقَام

مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ خُلَّصِ الرِّجَالِ ... فِي الأَمْنِ وَالإِيمَانِ وَالكَمَالِ

أَرْسَلَهُ الإِمَامُ بِالسَّرَايَا ... فَلَمْ يَزَلْ يَرْجِعُ بِالبَلَايَا

فَكَمْ قِتَالٍ طَارَ بِانْهِزَام ... وَرَغْم أَصْحَابٍ مِنَ الكِرَام

كَانُوا كَأَتْرَاسٍ مِنَ الحَدِيدِ ... مِنْ نَسْج دَاوُود نَبِيِّ الهَادِ

رَمَاهُمُ الأَعْدَاءُ فِي الأَرْجَاءِ ... بِالقَتْلِ وَالأَسْرِ وَبِالعَنَاءِ

فَهُوَ الشُّجَاعُ البَاسِلُ الضِّرْغَام ... لَكِنْ إِذَا لَانَ لَهُ الأَنَامُ

إِنْ قُلْتَ: يَا صَاح شَدِيد القُوَى[3] ... فَلَا تَعِب عَلَيْهِ كُلَّ حَال

لِأَنَّهُ الآخِذ مَعْنَى الخَانِ ... سَمَّاهُ مُنْذ قَبْلُ مِنَ الزَّمَانِ

أولئكَ السَّادَاتُ أَهْلُ الحَقِّ ... أَعْمَامُ خَيْرِ الرُّسُلِ وَالخَلِيقِ

أَوْلَادُ حَمْزَةَ وَعَبَّاس مَضوا ... يَغْزُونَ فِي الله لَنَا بِهِ رَوَوْا

حَتَّى إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى البِلَادِ ... بِقَهْرِ أَهْلِ الفِسْقِ وَالعِنَادِ

وَلَّوْا عَلَيْهِم[4] عِدَّة النُّوَّابِ ... وَصَوَّاهُمْ بِالعَدْلِ وَالصَّوَابِ

فَمِنْهُمْ سَلَاطِنُ الإِقْلِيم ... بِلَادُ خَيْدَاقٍ وَتَبَسَرَانِ

---

[1] وهو: وَالِدي قدس سره العزيز. (منه).

[2] مِن أبناء الملوك، الوليّ المشهور... إلخ. (منه).

[3] في (ب): شديد القول.

[4] أي: أهل البلاد ومن قبيل ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾. [سورة يوسف، الآية: ٨٢]. (منه).

كَـذَا الْمُسَمَّى بِأَبِي الإِسْـلَامِ[1] ... شَمْخَالُنَا الوَالِي لَهُمْ[2] وَحَامِي
وَمِثْلُهُمْ أَسْـلَانُ[3] وَالأَغْـلَارُ[4] ... وَكُـلُّـهُـمْ قَـدْ رَغِـمُـوا وَبَـارُوا
لِـكَـثْرَةِ الـجَـوْرِ عَـلَـى العِـبَـادِ ... رَمَـاهُـمُ اللهُ إِلَـى الـلُّـحُـودِ
فَـيَـا لَـهُـمْ مِـنْ شِـدَّةِ الـعَـذَابِ ... فِي يَوْمِ حَشْرِ الخَلْقِ لِلْحِسَابِ
فَـبَـعْـدَ عِــدَّةٍ مِــنَ الأَعْــوَامِ ... قَدْ أُخْبِرُوا[5] مِنْ حَيْفِ كُلِّ ذَامٍ[6]
بِــأَنَّ كُــلَّ نَـائِـبٍ وَخَــانٍ ... خَـانَ لَـهُـمْ بِـالـيَـدِ وَالـجَـنَـانِ
فَباعْتِبَارِ مَعْنَى هَـذَا اللَّفْظِ[7] ... لَا تَغْفَلُوا مِنْ جَـوْرِهِـمْ وَغَيْظِ
وَغَـيْـرِهِـمْ مِـنْ سَـائِـرِ الـنُّـوَّابِ ... كَانُوا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الصَّوَابِ[8]
قُـرْبٍ مِـنَ الـكِـلَابِ وَالـذِّيَـابِ ... وَمِـنْ جَنَابِ الحَقِّ فِي الإِيَابِ
فَـغِـلْـظَـةُ اللهِ عَـلَـى الــوُلَاةِ ... قَدْ جَرَّعُوا[9] الكُؤُوسَ مِنْ عُصَاةِ
وَرَحْــمَــةُ اللهِ عَـلَـى الـهُـدَاةِ ... مِـنْ هَـذِهِ الأُمَّـةِ وَالـكُـمَـاةِ[10].

---

[1] وهو: غنارال أَدْيُتَانْتْ أبو مُسلم شمخال المرحوم. (منه).

[2] أي: لأهل الإسلام. (منه).

[3] وهو: غنارال لِيُطِنَانْطَه أسلان حسين خان؛ أمير غازي غمق. (منه).

[4] وهو: غنارال سِوِّيت أمير غازي غمق أيضا. (منه).

[5] أي: لأولادِ حمزة رضي الله عنهم أجمعين. (منه).

[6] أي: ذي عيب. (منه).

[7] لأن كل خان لا يخلو من الخيانة؛ لأنه مشتقّ منها، ولذلك سمّي بخان. (منه).

[8] إلا قليلاً منهم. (منه).

[9] فمن راب على ذلك.. فليستخبر ممن ذاق عذابَ الهون بجورهم، فإنه يحلف بصدقه بلا شكّ. (منه).

[10] أي: الشجعان. (منه).

تذنيبٌ: بعدما وَصل الإمام إلى غُنِب.. وَجد الشابَّ الفَطِن مُرْتَضَى العُرْكَچِيّ[1] - وهو الذِي كان رئيساً لمهاجري الإمام وأصحابه في دَرْغِه، وَقد صاحَبهُ في أحُلْ كُحْ، كَانَ به الوقعة العظمى بَيْنهُ وبين گِرَابِّ غِنارال[2]، وبه دَفع ابنه جمالَ الدين[3] في أيدي الروس أمانةً إلى أن رجَع آخرا إليه مُبدّلاً بعيال چَوْچَوَازْ كِينَاز[4]، والقصة مشهورة - مُتسلحاً بأبطالٍ من المهاجرين نحوا من ستين بقصدِ المحاربة مع العدوّ، مُتحصِّنِين في طرفٍ من الجبل على جهة قرية رُغْجَه، وفي طرف آخر: إبراهيم بن بَرْتِخَان الـگِمراوي[5] - ابن عم الإمام - مع رفقائه، وكذلك العالم النائبُ المعزول أَمِرَصُّلْ محمد الكُدَالِي[6] الشهيد في غُنِب، والنائب المعزول أيضا نُور محمد الصُّغُورِي[7] - ويكنّى بِخُرْشِ - في طَرَفٍ، وهكذا على أطراف الجَبل، فإذا رآهم

---

[1] هو: مُرْتَضى بن محمد بن مرتضى العُرْكَچِيُّ، كان مع والده في أَحُلْكُحْ، فاستشهد أبوه وبقي مرتضى سالماً، فإذا استَقرّ الإمام في دَرْغِه.. جعله رئيساً لمهاجره وأصحابه إلى فتحها، وكان الإمام يُحبّه لشَجاعته وأمانته في الخدمة، ثم هاجر إلى قَارْص مع عدة مريد لشمويل، وكان رحمه الله تعالى حيّاً سنة: (١٢٨٥ هـ). *

[2] هو: غِنارال فَاوِيل بن خَرِسْتُفُور گُرَبِّ (١٧٨٩-١٨٧٥ م)، مُشارك في الحروب النابَلِيونية والعثمانية، وفي القفقازية منذ سنة: (١٨٣٨ م) إلى أن عزل سنة: (١٨٤٢ م) بعد وقعة كُجُلِكْ. *

[3] هو: جمال الدين بن شمويل من زوجته فاطمة الـگمراوية، ولد سنة: (١٢٤٧ هـ) في حدود أواسط محرم الحرام، فسماه باسم شيخه جمال الدين الحسيني، وهو أكبر أولاده، دفعه شمويل إلى أيدي الروس على اسم الرَّهن للمهادنة في (١٨) جمادى الثاني سنة: (١٢٥٥ هـ) في غزوة أَحُلْ كُحْ، ورجع في الثالث من رجب سنة: (١٢٧١ هـ)، فإذا رجع.. مَرِض بالصَّدر، ومات في يوم الخميس، السادس والعشرين من ذي القعدة سنة: (١٢٧٤ هـ) في كِّـرَطَه، وقبره هناك مشهور، رحمه الله تعالى. *

[4] في (ب): وأرْبِلِيَانُوف، وأربعين ألف منات.

[5] هو: إبراهيم بن بَرْتِخان الـگمراوي، كان نائباً على أهالي هَرَكَان وگِمْراه، وبقي زمناً مديداً ثم عُزل، كان ثقيل اللسان، حليما صامتا شَجيعاً، سار إلى الحج، وتوفي في المدينة، ودفن في البقيع رحمه الله تعالى. *

[6] هو: الشيخ الهَرِم، النائب المعزول محمد بن أَمِير الكُدَلِيُّ، وقد استشهد هو وأكثر أصحابه رحمهم الله تعالى وهم يصلّون صلاة الصبح جماعة يوم فتح غُنِب، في (٨) من صفر. *

[7] هو: البطل الأصيل نور محمد الصُّغورِيّ، استعمله الإمام نائباً على قرية صُغور بعدما عُزل عبد الله

على هذا العزم المصمَّم.. دعا إلى الله تعالى بالنصر والتثبيت على شدائِد الحرب، ثم وصَفهُم بهذا البيت:

ثِقَالٍ إذَا لَاقَـوْا، خِفَافٍ إذَا دُعُوا ... قَلِيلٍ إذَا عُدُّوا، كَثِيرٍ إذَا شَـدُّوا[1].

وحَاول العُزلة[2] في جانب سُورِ بُني في أصل الجبل مع المهاجرين الـچِرْكاويّين، وولدُه غازي محمد مع أصحابه الـكَّـرَطِيّينَ في طرف حُطُچ گِـنْدَخْ، وكنتُ حينئذٍ معه مدةً يسيرةً، ومع الإمام البتّةَ إلى أن يفتحَ جبل غُنِب.

ثم تمثّلَ[3] بهذا البيت:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَائِخٍ[4] ... كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَثَمُوا مُرْدٌ[5].

فمَضَتْ مُدة على تلك الحالِ يشيّدون الأطرافَ، يَحفِرون الخَنادقَ، ويفرَغون البنادقَ بالاحتياط الأكيدِ، محاصَرِينَ بعساكر الروس من جميع أطراف الجبلِ، لا يَمر أحدٌ منهم إلينا ولا مِنا إليهم.

الصغوري، ثم عُزل بكثرة شكوى أضداده الذين لهم طَمع إلى النيابة، وفي سنة: (١٢٩٤ هـ) كان رئيس المحاربة ومُدبّرها في القلعة حين تحركت فتنة صغور، وجُرح هناك، ومات بذلك رحمه الله تعالى. *

[1] (ثِقَالٍ) أي: لشدة وطائهم على الأعداء، (إِذَا لَاقَوْا) أي: حاربوا الأعداء، (خِفَافٍ) أي: مسرعين إلى الإجابة، (إذا دُعُوا) إلى كفاية مهمّ ودفاع ملمّ، (قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا) ذكر أحوال المشايخ وأضاف إلى كل حال ما يناسبها بأن أضاف إلى الثقل حال الملاقاة، وإلى الخفة حال الدعاء، (كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا) لقيام واحد مقام الجماعة. «مختصر المعاني» (ص ٢٧٦) لسعد الدين التفتازاني. *

[2] أي: الإمام نفسه. (منه).

[3] أي: الإمام. *

[4] بِالقَنَا: أي: الرمح. وَمَشَائِخ: وهم أصحابه. (منه).

[5] أي: يطلب حق نفسه بالرماح، وأصحابه لا يفارقون الحرب، فلا يفارقهم اللثام، فكأنهم مرد حيث لم تر لحاهم، واللثام: ما يجعل على الوجه من فاضل العمامة. *

فبينما نحن كذلك أخبرَ شمويل بـ: «أن فُلْكُوْنيك لَازَرُوف»[1] - حاكم وسط داغستان الآن[2] -، «ودانيال بيك الإلِسّوي» - الممدوح بالأبيات المذكورة - «قد حَضرا إليه مع سائر الوجوه من ذوي النشانِ، ينتظرون تحت السُّورِ مَن يَتكلم معهم في حق المصالحة، والاتحاد مع الروس، لتكون أنفعَ فيما مَضى وما سيأتي». فأرسل ولدَه غازي محمد مع عدةٍ من المريدين، فيهم: إنْكَچِلْ دِبِرْ[3]؛ نائب أَوَار، الخالِي من الجيش حينئذ، والعالم الحاذق حَجِ علي الـچُوخِي؛ سفير الإمام إلى النواب قبل ذلك، وأمِينُه على مِساحةِ الأماكِن للقِلاع، وكان عليه يومئذ دِرْع الإمام أهْدَتْهُ له الأميرةُ أم كلثوم - حليلة غنارال لِيْطِنَاط أسْلان خان أميرُ غازي غمق - حين فتحها، وكان درعاً لم ينسَج على مِنْوالِه آخرُ في الصَّفاء واللمعانِ، كأنه من الفضة الخالصةِ، بل كان مكتوباً على كل حَلقةٍ منه «الله» بخَطٍّ ضَرْبِيّ[4]، ومِثلهُ يَندُرُ وجوداً[5].

وكنتُ معهم يومئذ، فاجتمعَا[6] تحت السور، وتحاورا في حق الأمر المذكور، فبعدما أطالوا الكلام - ونحن قائمون حولهم - تفرقوا إلى منازلِهم، ونشروا الكلامَ المنُوط بالصلح بين يدي الإمام، فأجاب لهم بـ: «أن السِّلْمَ بينهُما مَشروط بتخلية

---

[1] هو: غِنارال إِيوَان بن دَاوِد لَازَرِيوْ (١٨٢٠-١٨٧٩ م)، أرسِل إلى قَفقاز وشارك في استيلاء على قرية خُبار، وكَيْرْكَبِ، وفي سنة: (١٨٥٠ م) أسكنه الروس حاكم مِخْتُلِي، وفي: (١٨٥٩ م) حاكما وسط داغستان، وقائد القوات. *

[2] أي: سنة: (١٢٨٠ هـ).

[3] هو: العالم النائب دِبِير بن إنْكَچِ الكِنِچُقِّيُّ (١٨١٦-١٨٩٦ م)، نائب شمويل وقاضيه في ناحية أوار، وكان سَفيرا إلى السردار في غُنِب، فاعتزل عن الإمام بعياله في رِيف، وافتتن بذلك، ثم تخلص بعد نحو: ستة أشهر، وقرّبوه بجعله نائبا على ولايات شتى، توفي رحمه الله تعالى في كِنِچُقْ. *

[4] أي: طبعيّ.

[5] في (ب): في ديار قفقاز.

[6] غازي محمد ولَازَرُوف. (منه).

سَبيلِهِم إلى الحج مع الأهل والأصحاب، وأما إن حُجبوا عن ذلك المرام.. فلا اتحادَ بينهما سوى القتال».

ثم في اليوم القابل ألقِي إليه كتابٌ من السَّرْدار كِيناز بَراتِنسْكِي، وحاصل مَضمونِه: «قد أوتِيتَ سُؤْلَكَ، فأرِحْ فُؤادَكَ»، لكن لم يَثِق الإمام بهذا الكلام قائلا: «إن الروسَ خَدَعوني مراتٍ، فكيف الوُثوق بهم الآن؟! فأولا: أعطيتُ لهم ابني جمالَ الدين في أَحُلْ كُحْ أمانةً بشرطِ انجلاءِ عساكرهم عنه في ذلك السفر؛ فخانُوه، ثم دَفعتُ ثانياً وَلد بنت أختي حمزة في وقعة طِلِقّْ، فكذلك خانوا، وهكذا في غالب الأماكن».

فقال أهل مجلِسهِ: «لو أرسلتَ إلى السردار رجالا مِنا مُعْتَبرين لاختبار حالِ السردار يكون حَسناً»، فاتفقوا كلهم على إرسال اثنين من خيار أصحاب الإمام: يُونس الـچِركاوي - سفيره إلى الروس في أَحُلْ كُحْ مع ولَده جمال الدين -، والنائب دِبير ابن إنْكَـچِ الأوارِي، ويحسن في مثل تلك الواقعة ما أنشده بعض الشعراء:

ثَـلاثَـةٌ أَجْـوَدُهَـا العَتِيقُ ... الـرَّاحُ، وَالدِّينَارُ، وَالرَّفِيقُ.

فانطلَقا إليه يومئذٍ.

ففي الغَد رَجعا كحمارٍ مَجدوع الآذانِ، مُنكّسَا الرؤوس[1]، فَعَلِمنا: أنْ لا مَطر لنا

[1] في (ب): معنى هذا مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام، كَطَالبِ القرون جُدِعَت أُذُنَاهُ، قال الثعالبي: «تزعم العرب في أحاديثها: أن حمارا وثورا كانا في معلف، وكان الثور ينطح الحمار عن العلف، فظهر منه شدة الهزال وسوء الحال، فشكا ذلك إلى بعض إخوانه من الحمير، فقال: «إنك لو أكلت كثيرا حتى تَمنت.. نبت لك قرنان، فقدرتَ على مُناطحة الثيران، فترصد الحمار غفلة بعض أصحابه الزرع، فأقبل يأكل الزرع، فأخذ وجدعت أذناه»».

قال أبو العيناء، وبعضهم يرويه لبشار بن برد:

لَقَبِيحٌ فِي النَّاس مِن غَيْرِ جُرمٍ ... بَـعْـدَ وَصـلٍ قَـطِيعَـةُ الأَخَـوَيْـنِ
لا تَكُن كَالحِمَارِ إذ طَلَبَ القرْ ... نَ لِـنَـفْـعٍ فَـضَـيَّـعَ الأُذُنَـيْـنِ.

في ذلك السحاب، وأخْبَرا له حينئذٍ: أنهما لم يفهمَا من حال السردار سوى الخَداعة، كما يقال: «لسان الحالِ أنطَقُ مِن لِسان المَقال»، فبذلك الكلام تغيَّر اجتهاد الإمام، خُصوصاً لمّا رأى تبرّأ يُونس من الصلح معه، وفي ذلك يقول الظريف المجربُ الأديبُ شعراً:

عَلَيْكُمْ بِالثَّلَاثَةِ فَاكْتُمُوهَا ... شَجَاعَتُكُمْ وَعَيْلَتكُمْ وَمَالُ
فَإِنَّ النَّاسَ حُسَّادٌ عَلَيْهِ ... فَلَا يُرْضِيهِم إِلَّا الزَّوَالُ.

ولكني أرى في أمثال هذه الوقائع ما قالهُ بعض العقلاء الكامِلينَ، وأحسَن فيه وأجاد:

إذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ ... فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا[1]
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلَّا خِدَاعاً ... وَلَم أرَ حُبَّهُمْ إِلَّا نِفَاقاً.

وقال الآخرُ أيضاً في ذلك المعنى وأحسن:

دَعْوَى الإخَاءِ عَلَى الرَّخَاءِ كَثِيرَةٌ ... لَكِنْ بِالشَّدَائِدِ يُعْرَفُ الإِخْوانُ.

وقال آخر: «ذهب الحمار ليستفيد لنفسه قرنا، فآب وما له أذنان»، وقال الآخر:

أَتَيْتُكَ أَرْجُو رَدّ قَلْبِي وَرَجْعَة ... فَأَحْزز ذِهْنِي فَانصَرفْتُ بلا ذِهْن
فَكُنْتُ كَذات الأذنِ جَائَت مَرِيدَة ... لقرن فَلَم تَرْجِع بأذُن وَلا قرن.

فصار هنا مثلا سائرا في داغستان يقول أهلها في حق من ذهب لطلب ما هو أكثر وأقوى من حظه ثم رجع خائبا منهما: «ذهب الحمار يطلب القرون، فرجع بلا أذن»، وما حكيته هنا مأخذ المثل، وكثير عنه غافلون ظانين: أنه من مخترعاتهم لا أصل له. ولنرجع إلى ما هو بصدره، فأخبر سفيرا الإمام... .

[1] والقياس: ذقتُ، على صيغة التكلم، عدل عنه الشاعر للضرورة. (منه).

وأمرني[١] حينئذٍ بكتبة جوابٍ لرسالة السردار بما حَاصِله: «فإن خَلّيْتم سَبيلي إلى الحَجِّ مع الأهل والأولاد وعِدّةٍ مِن الأصحاب.. فَبيْنَنا الصلح والاتحادُ، وإلا.. فالسيفُ مسلول، واليدُ مَبْلولٌ»، ولم يكن على الجواب ختم الإمام لبقائه مع كَنزِهِ في الطريق، فاغتاظَ السردار بذلك الجواب المُرِّ، ولا عَيْبَ عليه بل وعلى الإمام، وإنما أفسَدَ ذات بينهما من كان سفيراً من طرفه كما هو معلوم لمن حَضر عندهُ يومئذٍ.

فَاحْتالُوا[٢] للصعود على الجبل بأيّ وَجْهٍ كان، فبَرَزُوا علينا بلا طول فصل من الكلام من جهة النائب المعزول أمِرَصُّلْ مُحَمَّد الكُدَلِي في جُنح الليل الأليلِ[٣]، وكان رقيباً مع نحو: أربعة رجال في طرف الجبل مُشْرفٍ على قرى كُيَدَه[٤]، وحينئذٍ كان الإمام مع أنصاره المهاجرين في منزل الحاج الأصمّ الـچُوخِي[٥] خلف السُّور[٦]. فبينما هو في بيته بين اليقظة والرُّقادِ أُخبِرَ بـ: أن الروس هجموا على ولده غازى محمد من طرف حُطُچْ، ولم يكن عندهُ إلا أنا وحَج علي الـچُوخِي ورجل آخر لا أفهَمُه[٧]، والوقت كان نِصْف الليل، وكأني أظنُّ حينئذٍ أنه أنشد بيتاً من شِعْر الأُدَباء، واستَمْلَحْتُه جداً:

---

(١) أي: شمويل الإمام.

(٢) أي: الروس من ذلك اليوم.

(٣) وَلَيْلٌ أَلْيَلُ: شَدِيدُ الظُّلْمَةِ. «مختار». *

(٤) في (ب): والبارز سَكُورف؛ رئيس رُوت السلاديت، وكان هذا بعدة رجال في طرف جهة كُيَدَه، فبينما هم في النوم.. ارتقوا عليه، فهرب من هرب، واستشهد محمد الكدالي.

(٥) هو: الشجاع المشهور الحاج محمد الـچُوخِيُّ، المشهور بـ: عِنْقَوْ حَجِيَو، صديق الإمام، والمجاهد القديم، ومن النواب المختارين لدى شمويل، ولي على النيابة لشجاعته وحرمته في قومه، ولم يفارق عن الإمام حتى على جبل غنب. *

(٦) في (ب): المبني حذاء باب القلعة الفنية الآن المسمى بـ: باب السردار غنارال فيلد مارشل كيناز براتنسكي، ليخلد اسمه ما دام على أنه فاتح الجبل.

(٧) في (ب): وحسن الكُدَالِي. وفي «التذكرة» (٢٩٤): والعالم حسن الكدالي. *

لَقَد أَصْبَحْتُ مُضْطَرِبَ الفُؤَادِ ... كَحُوتٍ فَارَقَ المَاءَ الزُّلَالِ.

وذلك: لِخُلوّ أطراف الجبل من العسكر لقلّتِه وَسَعَة الجبل. فأمرَ بإحضار فَرَسِهِ مِن المَرعى في تلك اللحظةِ، ورَكِبْتُ أنا معه، وعَامِلُه على ثُلث الزكاة قبل ذلك عَامِر الـچِرْكاوي، وأما حَج علي.. فقد طار إلى طرف آخر من الجبل قائلا: «إني أُسَوِّرُ في مكانٍ فُلانيّ غير أمينٍ»، وكان به رقيباً مع رُفقاء مِلِّكْ مُرْتَضَى علي الـچِركاوي[1]، فانطلقنا إلى طرف غازي محمد لما أخبرنا بهُجوم الروس عليه، فاستمعنا هنالك وإذاً يُنادون كرجل واحدٍ بـ: «أَرَّا! أُرَّا!»، نسمَعُ أصواتَهم ولا نرى أشخاصهُم من شدة الظلمة، فأسرعَ بعضٌ ممن حَرسوا أطراف الجبل في جهة حُطُچْ إلى رَمي الصخور العظام على الروس التي كانت متهيئةً لذلك لدى الحاجةِ، فنادى عَامِر الـچِركاوي بأعلى صَوته إلى مَن كان يَرمي الصخورَ: «لا تضيّعُوا الصخورَ عبثاً، وأمْسِكوا، فإنا نجد فرصةً لذلك، وهذه[2] مكيدة من الروس، وقد حضر الإمام، فاطمئنوا، وأمْسكوا رميَكم»[3]، فقال لأصحابه[4]: «والله؛ إن هذه الأصوات وضرْب الطبول عبثٌ منهم وهَزْلٌ، وليس فيه إلا الخداعة الصِّرفة، فإن كان ما أظنهُ حقاً.. لا شك في ارتقاء هؤلاء الروس علينا مِن طرفٍ آخر، وإنما يفعَلون هذه الأشياء ليشغَلونا عن تفحُّص أحوال سائر الأطراف».

---

(١) هو: النائب المهاجر، والرجل الكامل مرتضى علي الـچِرْكَوِيّ، الملقب بـ: مِڤْرِكْ، كان صديقا للإمام من الزمان القديم، ولاه شمويل أولا نائبا على ولاية چَرْبِلِ، ثم على عَوُخَه بعد النائب غَتِ، فإذا كثر شكواهم عنه.. عزل، وأخذ منه جميع ما حاز من خلقه على سبيل البطلان، ومع ذلك لم يفارقه حتى على جبل غُنِب، وبعد سقوط الدولة.. هاجر إلى إنْدِرِي، ومات هنالك رحمه الله تعالى. *

(٢) في (ب): وهذه الدعوة بـ: «أُرَّا...».

(٣) في (ب): قال عامر هذا؛ لأن الرماة لم يعلموا حضور الإمام إذ غشاهم ظلمة الليل.

(٤) إمام شمويل رحمه الله تعالى.

فطلع حينئذ على حينِ غفلةٍ إنْكَـچِـلْ دِبِرِ الأواري[1] وقال للإمام: «طِبْ نفساً، إني أذهبُ في هذه الساعة، وأدرك حقيقة هذا الأمر»، فتفقّدَ من هنالك، ولم نرهُ بعد ذلك غير أنا سمعنا: أنه حُمِل في آخر الأمر مكتوفاً إلى الروس[2]؛ لأنه عقِب سَماع صُعود الروس على الجبل دَخل في قرية غُنِب، فحمل منها عياله ومَضى[3].

ثم مَكثنا في المكان المستَصْرَخِ إلى إسْفار الصبح، فبانجِلاءِ ظُلمة الليل عنا.. رأينا كل مَن كان ينادي بـ: «أُرَّا» ويَرفع به صوته فإذاً تقرَّبوا إلينا حتى يَصلوا إلى أصل الجبل[4]، ورَجع الإمام إلى منزلِه بعْدما صَلّينا هنالك صلاة الصبحِ، وبقيتُ مع الحاجِّ الأصم الـچُوخي ورجلٍ آخر چِركاويٍّ في ذلك السورِ، وكان يُنسَب إلى المهاجر الحاج نصر الله القَبِيرِي الكُرَالِي الشهيد في غُنِب[5]، فرمَيتُ أنا وهما عدّة مكافيل[6] إلى مَن قربَ إلينا في أصل السورِ.

فبينما أنا كذلك دعاني مِن خلفي قائلا: «ذهَبَ الإمام ومَن كان معه إلى قرية غُنِب بسَماع ارتِقاءِ الروس على الجبل»، ولم يعلم هذا الخبر كل مَن أقام خلف سُور الحاج الأصم من مهاجري چِرْكه، فبادرتُ حينئذ إلى فَرسي، ورَكبتُ عليها، ومَضيت خلف الإمام إلى غُنِب إلى بيت وَلدِه محمد شفيع كان به عيالنا، فإذا وَصلتُ.. لم أجِد الإمامَ ولا العيالَ إلا يُونس الـچِركاوي مع زوجته، وحَج علي

[1] في (ب): الذي كان مع رفقاء في معزل من أطراف الجبل.

[2] في (ب): غير أنا علمنا: أنه أسر من ريف قرب غُنِب، وحمل مَكتوفاً إلى الروس.

[3] في (ب): وحمل منها عياله، واستقر فيه.

[4] في (ب): فرمينا ورمينا.

[5] هو: العالم المهاجر الحاج نصر الله القَبِيريُّ الكُرَالِي، كان عابداً مُتقياً مع تشرفه بحسن الخط، وتكلّفِ المشاق في تحصيل مثل علم الكِيمِياء، كان اتخذ له للمحاربة مكاناً قرب ولد الإمام غازي محمد في أصل الجبل من جهة خُطُج، واستشهد رحمه الله تعالى في الثامن من صفر سنة: (١٢٧٦ هـ). *

[6] مَكافِيل، واحده: مِكْفَالٌ: بُنْدقيّة، تكون قَصيرة كَـ «كَارَبين»، وطويلة عادِية على عكسها. *

الـچُوخي، وخُسْرُ[1] مع رفيقَيْهِ نائب الأراضي السَّبْعَةِ[2]، فسألتُ هنالك عن مذهب الإمام، فدَلوني إلى المسجد، فبصرتُ به وبرفقائهِ مُتهيئينَ للقتال، مُشَمّرين الذيُولَ وأكمامَ الثياب مِن السواعدِ، وعندهم عُدد الحرب على وَجْهٍ تامٍّ[3].

ثم بادرتُ إلى مَذهب عِيالِنا، فوجَدتُهم في بيت واحد جوار المسجد كأنهم فِراخ الخُطّاف عند تعرُّضِ الأيدي لها، وهم يبكون من هَوْل اليوم، وما أحسنَ ما قيل فيه:

فَإِنْ تَسْأَلَنْ عَنْ صُبْحِ الحَصَارِ ... فَـلَا تَـسْـأل فَـذَا يَــوْمُ القِـيَـامِ.

ففي تلك اللحْظة أُمْطِرْنَا بعساكر الروس من الجوانب الأربع حتى ضاقَ الجبل من كثرتهم برَحْبه، وتَحرّك الآن سكانُ السورِ نحوَنا إلى غُنِب، وذلك: لذهولهم في أول الأمر عن سماع هذا الخبر، فإذا وَصلوا إلى رَحْب خارجَ القرية.. أحاطوا[4] بهم، فحمَلوا حملةَ واحدٍ على الروس، فاستشهد هنالك من استشهد، وانْفلَتَ البعض

---

[1] هو: زُبَير الـطُّوخِيُّ، الملقب بـ: خُسْرُ، وُلي رحمه الله تعالى نائبا على أَنْصُخْ بعد عبيد الله الأنصخي سنة: (١٢٧٥ هـ/ م ١٨٥٩). *

[2] المشهورة بين الجبليين باسم: أَنْقْ رَقْ. (منه).

[3] في (ب): وأخبر قبل الوصول إليه: بأن الروس ارتقوا إلى الجبل من جهة كُيَدَه، فإذا سمعت أنا وأصحابي هذا الخبر.. لحقنا بالإمام، وذهبنا معا إلى غُنِه، وأسرعنا لئلا يدخلوا بها قبلنا، ولم يقدر الإمام على إعلام الخبر لكل من كان خلف سور غُنِه من أصحاب المهاجرين، وكانوا نحو: ستين رجلا، وكانوا لا يبرحون ليلا ونهارا لئلا يدخل الروس في غُنِه في حين غفلة، فإذا وصلنا مع الإمام إلى طرف القرية.. دخل عساكر الروس من جميع أطراف الجبل، واستشهد جميع المهاجرين خلف السور، وحضر في القرية في مسجدها، وقبل ذلك دخلنا في بيت محمد شافع ولد الإمام، وكان بها: يونس الـچركوي؛ السابق صاحبه في البأساء والضراء، وكانت على زوجته زينب عمامة بيضاء وسلاح، فإذا سألتها عن ثياب الرجال وزيهم.. أجابت لي بـ: أنها تغزو مع الروس. فإذا التفت إلى ناحية البيت.. رأيت حينئذ خُسْر مع رفيقين نائب الأراضي السبعة قبل ذلك، وكان يكسر رأس سكر وجد في بيته، ويملأ وعائه ليأكل لدى الحاجة، وأخذ بعض المهاجرين من أسلحة ما أرادوا بإذن الإمام؛ لأن لا ينهبها الروس، واجتمعوا بالإمام في المسجد، وكانت عياله كفراخ الخُطاف.

[4] أي: الروس. (منه).

الآخر بجَرْح أو تَوار، ومِمّن قُتِل حينئذ: حاج نصر الله القَبِيرِيّ المهاجر، وأولاد شاه عباس الغراني[1]، والمهاجر كمال الغُلُدِيّ، وحَصَّنِلَوْ الـچركاوي، وغَزَالِ أيضاً، وشبانٌ من غُنِي وأمثالهم[2]، فتمثّل الإمامُ عند ذلك بهذه القصيدة، فما أحسنها:

صُـرُوفُ اللَّيَالِي مَزَّقَتْ كُـلَّ فِيئَةٍ ... وَسَـهْـمُ المَنَايَا مُـرْسَـلٌ بِالتَّشَتُّتِ

وَلِـلـدَّهْـرِ وَالأَيَّـام جَـوْرٌ إذَا بَـدَى ... يَحُطُّ مُلُوكَ الأَرْضِ تَحْتَ الرَّهِينَةِ

وَمَنْ ذَا الذِي مَا خَانَهُ الدَّهْر وَاعْتَدَتْ ... عَلَيْهِ اللَّيَالِي بِـانْـقِـلَابِ المسَرَّةِ

سَقَتْنَا اللَّيَالِي مِنْ كُؤُوس تَمَازَجَتْ[3] ... بِهَا نَائِبَاتُ الدَّهْرِ فِي كُلّ جُرْعَة

وَكَمْ أَنْهَلَتْنا مِنْ حِيَاضٍ تَدَاهَقَتْ[4] ... بِفَيْضِ الـرَّزَايَـا مِـنْ هَـوَامِ البَلِيَّةِ[5]

وَمِنْ وَابِلِ الأَوْزَام كَمْ طَافَ طَائِفٌ[6] ... عَلَيْنَا وَكَـمْ بَحْرٌ طَمَا بِالمُصِيبَةِ[7]

وَكَمْ صَيِّبٍ مِن فَجْعِهَا قَد تَدَافَقَتْ[8] ... يَـنَـابِـيـعُـهُ كَـالأَبْـحُـرِ الـمُـسْـتَـمِـدَّةِ

---

(1) هو: العالم المهاجر شاه عباس بن محمد الغَرَنِيُّ، صديق الإمامين: غازي محمد وشمويل في الصغر، ومعينهما من أوائل الأمر إلى آخرها، كان أولا إماما في قريته، وفي زمن شمويل هاجر إلى درغيه لديه، ثم استوطن في قرية بِتِّ مُخُّ من چَچَان، وتوفي هناك رحمه الله تعالى. *

(2) في (ب): وممن قتل: حاج نصر الله المهاجر القَبِيري الكرالي، وأولاد شاه عباس الغراني: حسن، وزبير، وسيّد أحمد، ومحمد، والمهاجر كمال الغُلودي، وحَصَّنِلَو الـچركوي، وغَزال أيضا، وشبان من غُنِه، وسائر المهاجرين والأنصار.

(3) مِن النَّهَل، وهو الشرب ثانيا منا، ومَزَجَ الشيء: خَلَطَه. (منه).

(4) دَهَق الكَأس: كجعله مَلأها، والماءَ: أَفْرَغَه إفراغا شديداً، منه كأدهقت. (منه).

(5) الرَّزايا: مصيبة. هوَام: عظام. (منه).

(6) الوَابِلُ: المَطَر الشَّدِيد الضَّخْم القَطْرِ. الوَزْمُ والأَوْزَامُ: قَضَاءُ الدَّيْن، وجَمْع قَلِيلٍ إلى مِثْلِهِ. (منه).

(7) طمَا: أي: علا. (منه).

(8) صَيِّب: انْصِبَابٌ. فجْعهَا أي: رزيّتها. تَدَافقَت: أي: تَفَجَّرت. (منه).

طَمَتْنَا بِأَنْوَاءِ الفَجَايَا وَزَمْجَرَتْ[1] ... رُعُودُ القَضَايَا مِنْ سَمَاءِ الفَجِيعَةِ[2]

وَكَمْ صَارِخٍ مِن هَوْلِ أَهْوَالِ مُزْعِجٍ ... يَوَدُّ اعْتِصَاماً بِالحُصُونِ المَنِيعَةِ

بُرُوقُ المَوَاضِي بِالقَوَاضِي تَزَاعَجَتْ ... خَوَاطِفُهَا فِي مُبْهَمَاتِ الدُّجُنَّةِ

وَكَم أُنْزِلَتْ مِنْ صَاعِقٍ قَد تَرَاجَفَتْ ... لِوَقْعَتِهِ شُمُّ الجِبَالِ الرَّسِيَّةِ

وَكَم ضَعْضَعَتْ مِنَّا صَيَاصٍ تَمَنَّعَتْ ... عَنِ الزَّيْغِ مِن أَرْجَافِهَا المُسْتَهِدَّةِ

وَكَمْ بَذَلَتْ فِينَا حُسَاماً مُهَنّداً ... وَكَم رَعْبَلَتْنَا بِالحِدَادِ الصَّقِيلَةِ.

ثم ابتدأ منا ومنهم مقدّمَة الرمي، وتحصَّن وَلد الإمام غازي محمد مع أخيه محمد شفيع في دُورٍ بطرف القرية، وكان معهما عدة من مريدي كَُرَطَه، واشتدّ القتال شيئاً فشيئاً إلى أن حُمِيَ الوَطِيسُ حتى أَمْطَرَتْ علينا سحابَ البنادق من الجوانب الأربع، ومن الفوق والأسفل؛ بحيثُ لا نقدر عُبوراً مِنْ أَزِقّة القرية، ولا مُروراً إلى البعض مِنَّا.

فبينما نحن في تلك الحالةِ نُودِينا من أطراف عَسكر الروس: «أمْسِكوا رُماتكم، ولا تلقُوا بأيديكم إلى التَّهلكةِ، وصونوا دِمائكم من الإراقةِ، وأعْراضَكم من الشناعة والفَضاحة»، وحينئذ أمسكنا واستمعْنا بأصواتهم، وأصغَيْنَا بأقوالِهم، وكان مَن في القرية يَتسَلّلونَ لِواذاً كأغنام شردَتْ من طرفٍ إذا جهَدتَ لجمْعها مِن آخرَ.

وحاصل مرادهم منا بالنداء والصراخ.. إرسالُنا إليهم مَن يتكلم في حق ما هو خيرٌ لنا فيما يسْتقبل، فبعضهم استحْسَنهُ ولَانَ قرنُه، وبعضهم استشكلهُ وأشخصَ بَصَرهُ نحو الإمام كأنه يُريد ذلك ولا يتفوّه به خوفاً من العارِ، كما يقال: «النار خيرٌ

[1] وزَمْجَرَ الأَسَدُ وَتَزَمْجَرَ: رَدَّدَ الزَّئِيرُ. (منه).

[2] مُصيبة.

مِن العار»، والإمام ساكتٌ لا يجيبُ بشيءٍ غير أنه صمَّمَ العزم على الموت، وضربِ حُسامِه حتى يَنكسرَ. فلم يزل فريقٌ ممن استحسَنوا الأمرَ يُبالغون في الإلحاح له حتى طَوّعُوه بِتَراكُم السؤال عليه من كل جَانبٍ إلى أن توسّلوا إليه في ذلك المطلب بوَلده غازي محمد، فلم يَجد بدّاً من الإجابة لهم لمّا رأى صَرْفَ رَغبتِهم عما طُلِبوا، ومع ذلك سألهم: «أليس فيكم مَن يقتلني بسيفِه أو بمكفله؟! فأُحِلّ له دَمي، ولا يُريني ضِدّي»[1]، فلم يخرج مَن يجيب له في ذلك.

وأرسلوا إليهم يونس الچركاوي وحَج علي الچوخي، ولم يتفطنوا لكونهِ مكدِّر أمورهم أولَ الأمر[2]، فانطلقا، ولا أعلم ما صِير الأمر إليه حينئذ، فرجَع يونس إلينا وبقي حج علي عندهم[3].

وحاصل ما أتى به يونس من عندهم: كونُهم يريدون إحضارَ الإمام إلى السردار للمحاورة معه شفاهاً، ويَبثّ إليه حالهُ وأرَبهُ ليكون على بصيرة في فعله. فاستحسنَ هذا الكلام كل مَن سواه[4]، وأما هو.. فلم يَلْتفِت ولم يَتعاقد عليه بشيء قائلا: «فَلْيَمْضِ إليهم مَن شاء، فلا نريد منه[5] إلا الوداع، وإني لم أحارب مع الروس إلى الآن اعتماداً على مخلوقٍ»، وأنشد:

أَلَا لَيْسَ إِلَّا مَا قَضَى الله كَائِن ... وَمَا يَسْتَطِيعُ المَرْءُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً.

---

[1] أي: الكافر. (منه).

[2] في (ب): ولم يتفطّن كون الأول ممن كدر أمره في أول الوقت حين أرسل إلى معسكر السردار على جبل كُهز.

[3] في (ب): يزعم: أنه لا يخليه أخوه الصانع الماهر دَاوُودِلَوْ الذي في معسكر الروس.

[4] أي: الإمام. *

[5] أي: مِن السردار بَرَاتِنْسكِي. *

ثم إني استحْققتُ المدحَ له والثناء لما بَدا لي منه من الكمالة وعُلوّ الهِمّة، وربما لا يبعُدُ أن يظن فِيَّ مَن في عقله طَيش، وسَخافةٌ، وتهوُّرٌ ما لا ينبغي صُدوره من العاقل المُنْصِف مِن أني مَدَحْتُه لمكان القرابة بيني وبينهُ تجلبُ المدحَ من بعضنا إلى بعضٍ، ولو لم يكن بيننا سوى العداوة.. لكنتُ لا أكتم ما فيه من كرم الأخلاق والشيَم، وليس في إظهار الحق عيبٌ، ولا لذلك حاجبٌ، وكفى له فخراً لو لم يكن معه سواه، أن مَن صاحبَه لحظةً واجتمع به ولو ساعةً.. لا يكاد يفارقه لحلاوة كلامه، وسعة بالِه، وطلاقة محيّاهُ، فسَنَح لي ذكره بهذه القصيدة:

سُلَيْمَانُ[1] هَذَا العَصْر بِالعِزِّ وَالقَدرِ ... لَقَد أَيَّـدَ الإسْـلَام بِالفَتْحِ وَالنَّصْرِ
يُـلَاذُ بِـهِ مِـنْ كُـلِّ جَـوْرٍ فَـإنَّـهُ ... مَنِيعُ جَمِيع النَّاسِ أَمْناً مِنَ الضُّرِّ
فَـذُرْوَة أَفْـلَاكِ الـكَـمَـالِ سَرِيـرُه ... طَـرَاوَة أبْـرَاج الـجَـلَالِ مِـنَ النَّبْرِ
وَأطْـلَـعَ بَـدْر الـحَـقِّ مِـن بُـرْج عَـدْلِـهِ ... فَأصْبَحَ إنْصَاف سَلِيماً مَن الكَسْرِ
وَأشْرَعَ شَمْسُ الشَّرْع مِن شَرْقِ شَوْكه[2] ... فَنَوَّرَ وَجْه الأرْضِ عَن ظُلْمَةِ الجَوْرِ
خَشِيتُ عَنِ الإمْـلالِ فِي عَدِّ وَصْفِه ... وَإلَّا فَلَا يحْصَى إلَى الحَشْرِ وَالنَّشْرِ
فَـلَـيْسَ إلَـى عَـدِّ الـمَـدَائِـح قُـدْرَة ... لِـدَعْـوَتِـهِ طَـابَ العَزِيمَة فِي العَصْرِ
فَـنَـادَيْـتُـكَ: اللَّهُمَّ يَـا عَـوْنَ مَـن دَعَـا ... أَجِبْ دَعْوَةَ المِسْكِينِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
إلَـهِي بِـلُـطْـف مِـن مَـوَاهِـبِـكَ التِي ... تَفِيضُ عَلَى المَخْلُوقِ فِي السِّرِّ وَالجَهْرِ
تَفَضَّل عَـلَـى هَـذَا بِـإنْـصَـاف نِعْمَة ... تَـطُـولُ بإحْسَان وَجُـودٍ مَـعَ اليُسْرِ
إلَـهِي بِـطَـوْلٍ مِـنْـكَ حَـصِّـلْ مُـرَادَهُ ... وَيَـسِّـرْهُ مَـا يَـرْضَـاهُ بِاليُمْن وَالخَيْرِ

---

[1] أي: هو سليمان. (منه).

[2] في (ب): وأشرق شمس الروع من شرق عدله ....

وَقَــدِّرْ لَـهُ عُـمْـراً طَـوِيـلاً مُـؤَيَّـداً ... وَأَيِّـدْهُ يَا ذَا الجُودِ بِالعَوْنِ وَالنَّصْرِ
وَكُـنْ حَـارِسـاً عَـنْ كُـلِّ كُـرْهٍ حَرِيمَهُ ... وَكُـنْ حَامِياً مَـأوَاهُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ
بِأَسْمَائِكَ اللَّـهُمَّ؛ فَاحْفَظْهُ دَائِماً ... بِمَا كَانَ فِي الآيَاتِ يُتْلَى مِنَ الذِّكْرِ.

ثم إنه نَهَض إلى السردار بعدما ألجأه الإلحاحُ والسُّؤْلُ من أصحابه، لا سِيّما متوسلين بولدِه الأعزِّ، واستصْحَب منهم نحو: اثني عشر رجلا؛ وأنا فيهم.

قيل: عَيَّر بذلك بعضُ سفهاء أهل العَصر بـ: أن الموت كان حَتْماً عليه دُونَهم، أليس ذلك جهل منهم وحَماقة وافرةٌ؟! كيف لا؟! مع أنه لم يُخصّصْهُ الله تعالى له ولا للجهاد، وإنما أرادوا بذلك القول: مجرّدَ تلذّذِهم بالنظر إلى القتل والحرب بينهُ وبين عدوِّهِ القديم، وبقاءَهم في أمانٍ مِن الجانِبَين اعتماداً على حربه، وذلك ظرافة منهم، كما أن الأولَ حَماقة، ويحسن فيهم قول الشاعر:

مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّى الـمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ ... تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ.

وقال الآخر وهو الأَخْيَرُ وبالتفكر فيه أجْدرُ:

أَنَـفْـسـاً تَـطِـيـبُ بِـنَـيْـلِ الـمُـنَـى ... وَدَاعِـي المَنُون يُـنَـادِي جِـهَـاراً.

فإذا وصَلنا طرف القرية.. تقدّم إليه فُلْكُوْنيك لَازَرُوف مع صاحبٍ له مُعْتَزليٍّ[1]، ويقال: إنه كاتب غِنارال بَارُون وَرَنْكِلْ، وقال له: «أيها الإمام؛ طِب نفساً وقَرَّ عَيْناً، فإنك لا تَندَم بالقدوم على السردار، ثم على الپاد شاه أبداً»، فصار الأمر كما قال بل وأحسن.

---

[1] اسمه: مِرزَه خُدَيْنَة. (منه).

فسرْنا - وَلَازَرُوف قُدّامَنا - إلى السردار، وعند ذلك صَاحَت العساكر المشْرِفَة علينا مِن الجوانب بـ: «أُرَّا! أُرَّا!»، فأشار يونس الـچركاوي إليه بـ: أن يَمنعهُم من ذلك الصراخ، فامتنعوا كلهم بنَهيه، وأما الإمام فكان راكباً على فرس رَمادِيّ اللون، لا يَلتفِتُ يميناً ولا شمالاً إلا إلى عَرْفِ الفَرَسِ، فإذا انتهَينا قربَ منزل السردار.. حُجِبْنا عن الإمام إلا يونس والحاج الأصم الـچُوخِي، فذهبا معه، ورجعنا إلى القرية كأنا فقدناه.

ثم عقبَ دخولنا في المسجد وَجَدنا غازي محمد، فاستخبرَنا عن والده وقال: «أين تركتمُوه؟»، فقلنا له: «إنا حُجبنا عنه، ولم يُخَلُّونا السبيلَ إليه، ولا نعلم ما صار إليه»، وعند سَماع هذا الخبر الكريه.. عَزم على نقض الصلح الذي جَرى بينهُما، وظن: أن الإمام فُقد عنه بالكليّة، فلا يَراه بعد ذلك، فأمسكه إبراهيم ابن عمِّهِ بَرتخان الـگمراوي وقال له: «لا توقِدْ نار الفتنة التي خمدتْ بالكلية بِعَناءٍ شديدٍ، ولا تجلِب آفةً على والدك وبقيةِ عِيالِكَ»، فتفكّرَ وأمْسَك.

وسببه: أن ذَهاب الإمام إلى السردار في أول الأمر لم يكن إلا بكثرة الدعوة، وبُلوغ الإلحاح مِن خارج القرية وداخلها، وبشرط إرجاعِه إلى أهلِهِ ثانياً بَعدما اجتمعَ بالسردار مرة، فإذا خالَفوا الوعْدَ، ولم يخلّوهُ إليهم حتى حُجبت أصحابهُ عنه عند اللقاء معه.. استصْعَبَ ولده ذلك الأمر، وكرهَ الحياة بعدَه، فلذلك أراد نقض الصلح، فإذا تيقّن له: أن ليس فيه شيء مَّا من الغَبْنِ وسوء العاقبة لوالده، وبقية عيالهِ.. رَجع عن القصدِ المبرَمِ.

فلَحِقَهم فُلكوْنيك علي خان الأواري في تلك اللحظة، وطيّب قلبَهُ بذهاب الإمام مع السردار، وأنه أمَره بتبليغ سلامه إليه وإليهم، وبلحُوقهم به، فانشرَحَتْ به صُدورُهم، وطارت أحزانُهم، فانطلقوا خَلفه كلهم.

فبينما هم في تشويش ما حَل بهم.. دَخل دانيال بيك الإلِسَّوِي على بنته كريمةَ - حليلة غازي محمد - وحاز جميعَ ما عندها من البيضاء والصفراء، وسائر العمارات التي جمَعتها تحت شوكته نحو: عشرة أعوام، فطارَ بمائة جَناح، فمَنِ الذي يَصِيدُه حينئذ إلا الله تعالى، فانظر إلى عُصارة إكرام الإمام له، ونتيجة قضيّة المصاهرة بينه، وفي ذلك المعنى يقول العاقل الأديبُ والمنصف اللبيب شعراً:

لَقَدْ رَبَّيْتُ جِـرْواً طُـولَ دَهْـرِي ... فَـلَـمَّـا صَـارَ كَـلْـباً عَـضَّ رِجْلِـي
لَقَد عَلَّمْتُ عِلْمَ السَّهْمِ غَيْرِي ... فَـلَـمَّـا صَـارَ أُسْـتَـاذاً.. رَمَـانِـي.

والحاصل: أن المُلكَ والظلمَ ضِدّان لا يجتمعانِ، كما يُعْلم ذلك بالعقل والنقل. فينبغي أن يقال: سببُ زوال الملكِ عن الإمام.. فشوُّ الجوْر بين وُلّاتِه، واعْوِجاجُ باقي الخلق بسبَبِه.

ففي الخبر الصحيح: «المُلْكُ يَبْقَى مَعَ الكُفْرِ وَلَا يَبْقَى مَعَ الظُّلْمِ»[1]، و: «إنَّ الكِبْرِيَاءَ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهَا.. قَصَمْتُهُ»[2] الحديث.

وقال أيضاً: «خَمْسَةٌ قَد غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ، وَإن شَاءَ أَمْضَى فِيهِم غَضَبهُ وَمَقَرّهُمْ فِي النَّارِ: أَمِيرُ قَوْم يَأْخُذُ حَقّهُ مِنْهُمْ، وَلَا ينْصِفهُمْ مِن نَفْسِهِ وَلَا يَرْفع الظُّلْم عَنْهُمْ» إلى أن قال: «وَرَجُلٌ ظَلَم زَوْجَتَهُ فِي صَدَاقِهَا»[3] الحديث.

وفي الخبر أيضاً: «كُلّ ظُلْم عَلِمَهُ السُّلطان وسَكت عنه.. يُنسب عليه وعُوقب

---

(1) أورده الغزالي في «التبر المسبوك» (ص ٤٤)، والفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٧٨). *

(2) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٩) عن أبي هريرة، ولفظه: «قَالَ الله تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي.. قَصَمْتُهُ». *

(3) هذا بعض من الحديث الذي أورده الغزالي في كتابه: «التبر المسبوك» (ص ١٦). *

به»[1]. «إذا عَدل السلطان لَم يحتج إلى الشَّجَاعَةِ»[2].

قال الشاعر:

وَمَـا مِـنْ يَـدٍ إلَّا يَـدُ الله فَـوْقَـهَـا ... وَلَا ظَـالِـمٌ إلَّا سَيُبْلَى بِظَالِم.

وَلِلَّهِ دَرُّ الآخَر حيث قال وأحسنَ وأجادَ:

لَا يَأمَنُ الدَّهْرَ ذُو بَغْيٍ وَلَوْ مَلِكاً ... جُنُودُهُ ضَاقَ عَنْهَا السَّهْلُ وَالجَبَلُ.

وكان لِكِسْرَى خاتَم للخَراج، فَصُّه ياقوت أحمر تتّقد كالنار، نقشه: «العَدْلَ العَدْلَ»، وكفى للعدل فخراً - لا يعَادلُه شيء آخر - كونُه من أسمائه تعالى.

حكي: أن موسى - عليه السلام - دَعَا ربه بإهلاك فِرعون وقال: «إلهي؛ لأيّ حكمةٍ أمْهلتَه على الأرض، وهو يدعي الربُوبيّةَ؟!»، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى؛ ليس لي ضررٌ من ادعائِه، ولكنه يعْدل بين خلقي، فلذلك أمهلتُه. فتفكر فيه، كيف يحب العدل بين عبَاده وهو أعدَل العادلين.

فبناء على ما يقتَضِيه الأحاديثُ والمنظومات والآثارُ.. ينبغي على الولاة أن يعْدلوا بين الرعايا لينتظم لهم خيْرَيِ الدنيا والآخرة، ويحُوزوا مصالح الأمّة، وإلا.. فلا شك في انتزاع المُلك مِن يده[3]، فيَبقى وحيداً فريداً، ولله در القائل:

فَأَبْقِ لَكَ الذِّكْرَ الجَمِيلَ تَـدُمْ بِهِ ... فَمَا لِسِوَى الذِّكْرِ الجَمِيلِ بَقَاء.

---

[1] أورده الغزالي في كتابه «التبر المسبوك» (ص ٢٢) نقلا عن التوراة. *

[2] هذا من قول أرسطاطاليس كما ذكره الغزالي في «التبر المسبوك» (ص ٦١) . *

[3] أي: الظالم. (منه).

وأما هِممُ ولاتِنا - رحمهم الله تعالى - قد رَسِخَت في جمع الحطام، ورَفْع القُصور والأهرام، وتحليةِ السلاح، والترفُّهِ في الطعام بمال الضعفاءِ أو الأرامِل والأيتام، مُتَّسَمِين لما جمعوها ببَيْتِ المال، ويَرَوْن أنهم هم المستحِقون لها دونَهم، وأنهم المختصون؛ كلّا ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وَ ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[١]، كما أفاده سِياق الحديث المذكور آنفاً، وهم وسعوا دائرة الرِّشوة والهَدية، وضيّعوا الراحة على الرعية، فيا لها مِن جَوْر لو عُرض على شُمِّ الجبال لدَكَّتْ أو على السموات لطَيَّتْ أو اقشَعرّت، ومع ذلك كيف يُنْصرُون، وإلى سبيل الخير هم يُهتدون؟! ولكن الإمام لم يكن يَطّلع عليهم، ولا هم يَفْشون له سوى ما هو الأنفع لهم، فمن أين له زَرْقاء[٢] اليَمامة لتنظر إليهم بعينِها أو أين يُفَتِّش هُدْهُدَ سليمان[٣] لِيخبره عما خُبِئ تحت الأرض، ومن الطول والعَرض.

وما أحسن ما قيل فيهم:

وَهُمْ[٤] قَد ضَيَّعُوا لِأَمَانَتِيْهِ[٥] الـ ... رَّعِيَّةِ وَالرِّعَايَةِ لِلذِّمَامِ[٦].

ولكونهم مستحقينَ للمدح لأجل أنهم فازوا منه بالقِدَح المعَلّى، والمنزلة الأسنى، والأُبَّهَةَ العليا.. نظمهُمْ واحد من علماء داغستان ظريفٌ بشأنِهم، خبيرٌ بحالِهم في قصيدتِه هذه، فأنشدَ رحمه الله تعالى:

---

[١] سورة الحجر، الآية: ٧٢. وسورة المطففين، الآية: ١٥.

[٢] اسم امرأة كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام إن كانت الأرض مسطّحة، وقصتها مشهورة في الكتب. (منه).

[٣] وقد كان الهُدهد يخبر سليمان عليه السلام عن موضع الماء تحت الأرض إذا قربت الصلاة، فيأمر الجنّ يحْفَرُ المكان المعيّنُ، فيَظهر الماء، فراجع التفاسير إن شئت البيان. (منه).

[٤] أي: الولاة. (منه).

[٥] والضمير راجع إلى الإمام. (منه).

[٦] وَالذِّمَامُ: الحَقُّ وَالحُرْمَةُ. «قاموس». *

وَخَــادَعَــهُ[1] أَخِـلَّـتُـهُ الـلِّـئَام ... وَعَـادَ صَدِيقُهُ أَعْـدَى الخِصَامِ
فَكَم مِنْ كَـاذِبٍ فِي الـوُدِّ أَبْـدَى ... مَــوَدَّتَــهُ لِـجَـاهٍ أو حُـطَـامِ
وَدَارَ عَـلَـيْـهِ يُـدْرِي بَـل يُـدَارَى ... إذَا دَارَتْ رَحَـاهُ عَـلَى الـمَـرَامِ
فَـإذْ هَــدَأَتْ نَسِيمُ صَـبَـاهُ عَنْهُ ... فَـقَـدِ ارْتَــدَّ عَـنْ دِيـنِ اهْـتِـمَـامِ
وَإذْ ضَـاقَـتْ مَـذَاهِـبُـهُ عَـلَـيْـهِ ... تَـلَـقَّـى كَـنْـزَهُ بِـالاغْـتِـنَـامِ
وَكَـمْ مِن عُصْبَةٍ أُخِـذَتْ عَلَيْهِم ... عُــهُــودٌ أُكِّــــدَتْ لِـلالْـتِـزَامِ
وَهُـــمْ عُـمَّـالُـهُ عُـمَّـالُ سُـوءٍ ... وَهُـمْ غَـدَرُوا لَهُ يَـوْمَ اصْطِدَامِ[2]
وَكَـمْ حَلَفُوا عَلَى مَـوْتٍ وَفَـوْتٍ ... لِأَيَّـــامِ الـكَـرِيـهَـةِ لِـلإمَــامِ
فَـلَـمَّـا جَـاءَ مَـا حَـلَـفُـوا عَـلَـيْـهِ ... فَـقَـدْ مَـدُّوا إلَـيْـهِ يَـدَ اصْـطِـدَامِ[3]
بَـــدَا نُـــوَّابُـــهُ نُـــوَّابَ سُـــوءٍ ... نَـعَـم؛ كَـانُـوا نَـوَائِـبَ لِـلأنَـامِ
خُصُوصاً[4] مِنْهُمُ العُلَمَاءُ حَتَّى ... عَـلَا ظُلْمُ الـظَّلَامَةِ فِي الـكِـرَامِ
فَـمِـنْ ذَا أَدْبَــرَ الإقْـبَـال عَنْهُم ... وَأَقْـبَـلَـهُـمْ دَوَاعِــيَ الانْــهِــزَامِ
فَمَا زَالُـوا بِـذَلِـكَ فِـي الـحُـرُوبِ ... إلَـى أنْ صَـارَ نَـهْـجٌ فِـي انْـخِـرَامِ
قَـرَأْنَـا فِـي أَحَـادِيـثِ الـرَّسُـولِ ... بِـأَنَّ الـمـلْـكَ لَا يَـبْـقَـى لِـزَامِ[5]
نَعَم؛ قَالَ الرَّسُولُ بِـ: أَنَّ كُفْراً[6] ... يُـصَـاحِـبُـهُ بِـشَـرْطِ الاحْـتِـرَامِ

[1] أي: الإمام. (منه).

[2] في «البارقة»: في اضْطِرَام. *

[3] في «البارقة» وفي نسخة (ب): يَدَ اصْطِلَام. *

[4] مما ألحقتهُ إلى قوله: وَوَلَّاهُمْ... إلخ. (منه).

[5] أي: صاحب عيب، المراد به: الظلم. (منه).

[6] بقوله عليه السلام: «المُلْكُ يَبْقَى مَعَ الكُفرِ وَلَا يَبْقَى مَعَ الظُّلمِ». (منه).

فَـإنَّ الـعَـدْلَ نُـورٌ فِـي الأَنَـامِ ... بِـهِ أَمْـر تَـحَتَّـم فِـي الـكَـلَامِ
فَمَنْ يطْلُبْ بِظُلْمٍ مُلْكَ أَرْضٍ ... يَـخِبْ حَقا وَحَـتْماً عَـنْ مَـرَامِ
يُحَاكَى مَا تَـرَاهُ الآنَ صَاحِ ... بِمَا أحْكِيهِ مِنْ خَيْرِ الأَنَـامِ
كَفَى لِلْعَدْلِ فَخْراً مِنْ نَبِيٍّ ... لَقَدْ أبْدى التَّأَسُّفَ لِلْكِرَامِ
مُلُوكِ الأَرْضِ[1] أَحْيَوْهَا بِعَدْلٍ ... إِذِ الـكِسْـرَى يُلَاقِيهِ الحِـمَامِ
وَلَـمْ يَكُ حُزْنهُ مِنْ فَوْتِ كُفْرٍ ... وَلَـكِـنْ بِـالـذِي يُـحْـي الأَنَـامِ
وَوَلَّاهُـمْ عَلَيْهِم كَالرُّعَاةِ ... فَكَانُوا كَالذِّيَابِ عَلَى النِّعَامِ
وَوَصَّاهُمْ بِعَدْلٍ وَانْتِصَافٍ ... فَـزَادُوا فِي اعْتِسَافٍ وَاهْتِضَامِ
فَضَاقَتْ مِن مَظَالِمِهم عَلَيْهِم ... وُجُوهُ الأَرْضِ مِنْ طُولِ انْتِقَامِ
وَهُـمْ قَدْ أَعْجَزُوهُم عَنْ جِهَادٍ ... وَهُـمْ قَد أَضْعَفُوهُم عَن قِوَامِ
وَقَـد سَمَّاهُـمُ الأمَـنَـاء كُـلّا ... تَصَامَمَ عَنْ تَظَلُّم ذِي اظْطِلَامِ
فَكَمْ رَدَّ[2] الأَذِلَّـةَ يَشْتَكُونَ ... وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ عَلَى انْسِجَامِ
لَقَدْ وَسَدَ الأُمُـورَ لِغَيْرِ أَهْلٍ ... وَظُـنَّ الأَمْـنُ فِي غَـيْرِ المَقَامِ
نَسُوا تَغْلِيظَ أَيْمَانٍ عَلَيْهِم ... وَتَثْلِيثَ الطَّلَاقِ بِلا انْضِمَام[3]
وَإِذْ قَدْ غَابَ عَنْ تِلْكَ العُيُونِ ... بَـدَا لِلْبَعْضِ إِبْـرَازُ الـمَلَامِ
فَكَمْ مِنْ مُطْرِئٍ فِي المَدْحِ إِذْ ذَا ... كَ يَأْكُلُ لَحْمَهُ حَتَّى العِظَامِ

---

(1) بدل من كرام. (منه).

(2) أي: الإمام. (منه).

(3) أي: النواب الذين غلّظ الإمام عليهم الأيمان في المجمع الآخر في قرية طَانُسِ - من ناحية أَوَارِسْتَان - بعدم الخيانة له وللدّين، فنقضوا العهدَ الذي تعاهَدوا به بينهم، فإنا لله... . (منه).

فَلَمَّا غَابَ أَمْسَوْا كَالنُّجُوم ... إذَا غَابَ الإيَا[1] بَيْنَ الظَّلَام
فَتَبّاً ثُمَّ وَيْلاً ثُمَّ سُحْقاً ... لِأَوْبَاشٍ أولئِكُمُ اللِّئَامِ.

القصيدة.

وهنا تم الكلام على أصحاب الإمام وأهالي داغستان.

* * *

ولنذكر لك أيضاً نُبذة يَسيرة مما تلقّاه الإمامُ في رُوسيّة من الپاد شاه الأعظم - والصِّنديد المطاع الأفخم - من الكرامة والفضل والإصالةِ التي لم تسمع لها نظيرٌ في الملوك الماضيةِ، والأقيال الخالية، وذلك يُوجب الشكر كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ.. لَا يَشْكُرِ اللهَ»[2]، وشُكر المُنْعِم واجبٌ، وكما قال تعالى في القرآن الشريف: ﴿اعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[3]، وَأنشدتُ في ذلك المعنى قول العاقل الأديبِ:

وَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِعِزَّة مُلْكٍ أو عُلُوِّ مَكَانِ
لَمَّا أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِشُكْرِهِ ... وَقَالَ: اشْكُرُوا لِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ.

ولله در الآخر حيث نَبّهنا عن الغفلة بكُفرانِ النعمة فقال:

---

(1) وهو: بتخفيف الياء -: ضَوْء الشمس. (منه).

(2) أخرجه الترمذي (٢٠٧٠)، وفيه «لَمْ» بدل «لَا». *

(3) سورة سبأ، الآية: ١٣.

وفي (ب): وشكر الإنسان لنعم الإنسان.. شكر الله تعالى حقيقة، إذ هو مسبب الأسباب.

إذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإنَّ المَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَدَاوِمْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإلهِ ... فَإنَّ الإلهَ سَرِيعُ النِّقَمْ.

وأرجو أن تكون تَذكرتي هذه سبباً للزيادة، وعَوناً لجلب المصلحة لمن عَدانا إن تفكر فيما قلتُ وأقول، ولم أرِد بذلك تفاخراً أبْغي به المدحَ أو الثناء عليّ، وإني مُعْترف بأني أقلُّ الناس عِلماً ومَعرفةً وشكراً، بل إنما طلبتُ بكلامي هذا مجرّد التذكير لمن شغلتْهُ الغفلة عن إحسان المُحْسنِ، ومع ذلك ربما يُوجد عند المفضول ما لا يُوجَد عند الفاضل، والبعوضة تُدْمي مُقلة الأسد، كما أن الزنبُور تلسع لَسْعَ الحَيّةِ، والفِيلة تفزعُ من الفأرة، فلا غَرْوَ في ذلك:

أَرَى الإحْسَانَ عِنْدَ الحُرِّ دَيْناً ... وَعِنْدَ النَّزْلِ مَنْقَصَةً وَذَمّاً
كَقَطْرٍ صَارَ فِي الأَصْدَافِ دُرّاً ... وَفِي فَمِّ الأَفَاعِيِّ صَارَ سَمّاً.

ثم إن الإمام شمويل بَعدما طال سعيُه في تسخير أهالي السَّهل والجبل، وقاسَى بذلك الشاقة والعَناء حتى إنه نظمهُم في سِلك السياسةِ بإخراجهم من ظُلَم الوَحشة والغفلة، وكانوا قوماً فَوْضى لا رئيسَ لهم، ولا ينقادون لأحدٍ دُون غيرهم، بل كان النهب والإغارةُ دَأبهُم، فلا يمكنُ العبُور من قرية إلى أخرى لأبناء السبيل فيهم حتى شُبِّهوا بقطاع الطريق، وقد سمعتُ أحوالهُم الماضية مِمَّن أَثِقُ به من شيوخنا الطاعِنينَ في السِّنّ.. سَلّمَه الله تعالى[1] في أيدي پاد شاه الدولة الرُّوسِيَّة الذي استحقَقْنا الشكرَ له على إحسانه المتتابع المتواتِرِ، سِيّما بمدح فائقٍ، وثناء لائقٍ لمنصبه العليّ، وجَنابه الوَفي البَهِيِّ، وقد ذكرت أوّلَ هذه الكراسة: أنْ لا مَحْذور عن الثناء لمخالف الدين،

[1] جواب لـ: (بَعْدَمَا طَالَ سَعْيُهُ). (منه).

بل وعن الدعاء له بالخيْر، خصُوصاً للمُحْسن المعْتدي به، فسنحَ لي أن أنشر مكارمَه وشمائله بقصيدةٍ هي أحْرى للنسْخ بالتِّبْرِ الأحمر، وقلتُ بهذا المعنى:

سَمَيْذَعٌ[1] مَاجِدٌ زَادَتْ مَهَابَتُهُ ... تَحْتَ الوَلَايَةِ فِي عِزٍّ وَبَيْقُور

كَأَنَّمَا هُوَ بَحْرُ الخَيْرِ فَائِضَةٌ ... عَلَى الوِلَايَةِ فِي عِزٍّ بِمَيْسُور

فَأَصْبَحَتْ صَفَحَاتُ الأَرْضِ مُشْرِقَةً[2] ... وَعَادَ أَكْنَافُهَا نُوراً عَلَى نُور

سُبْحَانَ مَنْ مَلِكٍ جَلَّتْ مَفَاخِرُه ... عَنِ البَيَانِ بِمَنْظُومٍ وَمَنْثُورِ

كَأَنَّمَا وَيَرَاعُ الوَاصِفِينَ لَهَا ... بَحْرٌ مَقِيسٌ إلَى مِنْقَارِ عُصْفُورِ.

فينبغي: أن لا يكون بذلك جَزَعٌ[3]، إذ ما مِن شيء على الأرض ولا رَطْب ولا يابسٍ.. إلا هو في كتاب مُبين جُفَّ القلمُ بما هو كائنٌ في الأزل، فلا يزاد ولا ينقصُ في المقادير شيء إلى يوم القيامة، ولكنه تعالى أجَّلَ لكل شيء بأجَلٍ معلوم، ووَقت موسُوم، فلا مَردَّ له عند حُلوله بحِيَلٍ وإن اجتهَد فيه جميعُ الخلائق، ولله دَرُّ من قال في مثله:

وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِيتُ مُقَدَّرَةٌ ... وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَان.

يعني: إذا انتهى الكتابُ أجَله.. لا مَحالة يقع ذلك الشيء إن شاءَ العبدُ وإن لم يشأ، فالواجبُ على الإنسان: أن يكون راضياً بجميع ما ساقه الله تعالى إليه وعليه من

---

[1] السَّمَيْذَعُ: السيِّدُ الكريم الشريف، السّخِيّ والشجاعُ. «قاموس». (منه).

[2] أي: بالعَدل الذي لا يعادله آخر، بل ولم يُسْمع مثله على وجه الأرض منذ ما خلقت، وهو: إطلاق رقاب العبيد لا يحصُون كثرة من رِبقة الرِّق والهَوان، وأيّ رحمة على خلق الله تعالى أعظم من ذلك؟! فكيف لا يستحق المدحَ مع هذا الأمر العظيم؟! (منه).

[3] للإمام بأسْره. (منه).

الخير والشر، والنفع والضرّ، فإن رضي.. فلهُ الرِّضاء، وإن سخط.. فعليه السَّخْط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ الآية[1]، ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[2] لا يَفْلِتُ منه في مَلَكوته شيءٌ، فإذا كان الأمر كذلك.. ليس شيء أبهى من الصبرِ على القضاء والقدر، هذا.

فلنذكر لك أولاً أيها السامعُ الواعي ما صَدر من السردار كِيناز بَراتِنْشكِي لشمويل من الحرمة والإعزاز:

ففي السنة السادسةِ والسبعين، بعد الألف والمائتين.. نزل على جبل كُهُرِ[3] بجِوارِه[4] مع كافة عياله في خيمةٍ فاخرة جدّاً، وبها من البُسُطِ - وسائِر الفُرش الجيدة النظيفة والبهاء - شيء كثيرٌ لا يُعْرِب عنها ناطقٌ بفم، وأحْضَرُوا لنا في تلك الساعة طَبّاخاً مسلماً لئلا نَعافَ طعامَهُمْ، وقَدَّمُوا لنا أطعمة ناعمةً، وفواكهَ مختلفةً لذيذة في أواني الذهب والفضة، وأظن: أن حُسّادَه حينئذ كانوا يَخْنَقون أنفسَهم من شدة العداوة له لما رأوا من الكرامة، وفي ذلك المعنى أنشدت:

شَـجْـوُ حُـسَّـادِهِ وَغَـيْـظُ عِـدَاهُ ... أَنْ يَـرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ.

ولله در الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال في صفة الحُسّاد:

وَلَيْسَ الذِّئْبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... وَنَـأْكُـلُ بَعْضُنَا بَعْضاً عِيَاناً.

---

[1] سورة الطلاق، الآية: ٣.

[2] سورة الجن، الآية: ٢٨.

[3] أي: جبل قرية كِهُرِب (Keger)، الذي يقع على قبالة ساحة غُنِب. *

[4] أي: بجوار بَرَاتِنْسكِي. *

ثم إذا تَيقّنَ له[1] بالقول والفعل أن مَن صَبّح مشَجّراً بشعاع شمسِ فضائل الپاد شاه.. لا يُروّح مُسْتظلماً بأفولها على أن لا أُفولَ؛ لِمَا طَلع من سماء الملوك الكِرام مع الضياء التام، وأن لا خُسوف ولا كسُوف لقمر به[2] بعارض مَّا أو حاجب.. أنشد الإمامُ وأحْسَن وقال:

مَـاذَا يَضُرُّ العَنَاء وَالخَيْر يَعْقبُهُ ... وَأَيُّ خَيْرٍ لِمَعْقُوبِ العُقُوبَاتِ.

ولله در الإمام الشافعي رضي الله عنه حيثُ قال في ذلك المعنى:

عَـوَاقِـب مَـكْـرُوهِ الأمُـورِ خِيَارٌ ... وَأَيَّــام شَـرٍّ لَا تَــدُومُ قِـصَـارُ
وَلَيْسَ بِبَاقٍ بُؤْسهَا[3] وَنَعِيمِهَا ... إذَا كَـرَّ لَـيْـلٌ ثُـمَّ كَـرَّ نَـهَـارُ.

فكيف لا يَتفطنون[4] لِمَا يَنكسف به شمسهُم مع أنه لا يخفى عليهم وقت انكِساف شمسِ الله في السماء التي هي بعيدة عنا بمسيرة خمسمائة عامٍ؟! فما ظنك بالتي هِيَ في الأرضِ؟!

ثم ظهر لي أن أنشد هنا أبياتاً تسليةً للإمام، ودَاهيةً قاحِمةً لحساده اللئام، فقلت:

الـدَّهْـرُ يَـوْمَـانِ ذَا أَمْـنٍ وَذَا حَذَر ... وَالعَيْشُ شَطْرَانِ ذَا صَافٍ وَذَا كَدَر
قُل للَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَل عَانَدَ الدَّهْرَ إلَّا مَن لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى الرِّيحَ إنْ هَبَّت عَوَاصِفهَا ... فَلَيْسَ تَعْصِفُ الأَعَالِي الشَّجَرُ

---

[1] أي: للإمام. (منه).

[2] أي: الپاد شاه. *

[3] أي: الدنيا. (منه).

[4] أي: الروس. (منه).

وَكَم عَلَى الأَرْضِ مِنْ خضَر وَيَابِسَةٍ ... وَلَيْسَ يُرْجَمُ إِلَّا مَا بِهَا ثَمَرُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا ... وَلَيْسَ يَكْسِفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَا حَسِبْت بِمَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ
سَالَمَتكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوَةِ لَيْلٍ يَحْدُثُ الكَدَرُ.

فبينما الإمام في تلك الحالة الناعمة، والفَراغة الوافرة.. جاء إليه يوماً فُلْكُونيك علي بيك اليَخْساوِيُّ[1] - وكان تَرجماناً بينه وبين السردار - فقال له: «أرْسَلني السردار إليك، وأمَرَني بِعَدِّ عِيالِك لِيَصِلَ لهم بصِلاتٍ لائقةٍ، وجائزةٍ سَنية»، فأخبره الإمامُ بما طُلِب منه، ورَجع إلى مَصْدرِهِ.

ففي اليوم القابل دَخل أيضاً ذلك الترجمانُ على الإمام بهَدايا من قِبل السردار، ووَضعَها بين يَديه، وأراها له واحداً فواحداً قائلا: «هذا لِفلانٍ وهذا لفلان»... إلخ، منها: ساعَتانِ مُرَصَّعتان بالبِرْلِيَانَاتِ - وهي أحجارٌ مشهورة بيننا بأَلْمَاس - لِكل واحِدةٍ مِن زَوجَيْهِ: أختِنا السيدةِ زاهدة[2]، والمؤلَّفةِ شُعْوَانَةَ[3]، وكلُّ واحدة مِن تَيْنِك الساعتين تُساوي بألف مناتٍ على القيمة المُعتدِلة، وخَاتَمانِ آخَران لِبنتيْهِ

---

[1] هو: علي بيك فِنْزُلايِيف اليخساوي القُموقي (١٨٢٣-١٩١٠ م)، أرسِل ترجمانا مع الإمام إلى روسية، ورجع منها حين رجع غازي محمد، مات في رتبة غِنارال مُيُور. *

[2] هي: السيدة زاهدة بنت المرشد جمال الدين الحسيني الغازي غُموقِي (١٨٢٩-١٨٧١ م)، تزوجها الإمام في ذي الحجة أواخر السنة: (١٢٦١ هـ)، فوَلَدت له ابنتين: نَجابة وبَاخُو مِسِدُ، وابنه محمد كامل، توفيت بمكة بعد الإمام بثلاثة أشهر، ودفنت في مقبرة المُعَلَّاة رحمها الله تعالى. *

[3] هي: شُعْوَانَة التي سَبَاها محمد بن أَخْبِرْدِ في سريّته إلى بلدة مُزْدُوك سنة: (١٨٤٠ م)، فتزوجها الإمام شمويل بعد إسلامها، وولدت له صفيّة، ماتت رحمها الله تعالى في اسْطَنبُول سنة: (١٨٧٧ م)، وقبرها في مقبرة قَرَاجَة أحمد. *

المُزَوَّجَتين حليلتي نَفِيسةَ[1]، وحليلةِ أخي فاطِمةَ[2]، وإبْرَتان تُغرَزانِ على جَيْب القميصِ مُرصَّعتان بالبِرْليانات أيضاً - أي: كالخاتميْن - لحليلتَيْ وَلَديْهِ كريمة وآمنةَ[3]، وفَرْوة للإمام نَفسهِ تُساوي بألفي مَناتٍ عند الروس، وهذه الفَرْوَة كانت على السردارِ؛ فخلَعَها له مُبالَغةً في الإكرام[4].

فَمِن أين عندهم ما يظنُّهُ الجهلة الذين ليس لهم علمٌ بأحوال الكِرام، ولا بأقوالِهم، ولم يخالطوهم في الأفعال مِن أنهم اعتقدوا دائماً على أنْ لا حرمة ولا فضل لأحدٍ عند الروس، بل ولا يعلمون كيفيّة إنزال الناس مَنازلهم بحسَب عقلهم، وعِلمهِم، ونَسبِهم، بل وَجدنا أوهامَهم كاذبةً، وما يعتقدونه باطلةً، كما يشاهَد ذلك عياناً، وأما الخائن اللئيم.. فلا غُرْوَ في إلقائِه ظَهْرِيّاً، واتخاذه شيئاً فَرِيّاً، وتركه نسياً مَنسيّاً، وذلك جزاء الخائنين، فكيف يحترمُونهم؟! والله تعالى يقول في كلامه الشريف: وَ ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، و ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

ثم سِرنا من جبل كُهِرْ إلى قلعة تميرخان شوره، فمذ سكنا بها.. لم نرَ منهم سوى الإعزاز والإكرام فوق ما يقال، فارتحل الإمام من هنالك مع غازي محمد ومريديْهِ:

---

[1] هي: نفيسة بنت شمويل الإمام من امرأته فاطمة الگمراوية، وزوجة عبد الرحمن الحسيني، ولدت في چَچَان سنة: (١٨٤٢ م) تقريبا، وتوفّيت رحمها الله تعالى في كَالُوگـه في ذي الحجة سنة: (١٢٨٢ هـ/ م ١٨٦٦)، وحملوا جنازتها إلى داغستان، ودُفنت في قُبّة الإمام غازي محمد، قرب قبره المبارك. *

[2] هي: فاطمة بنت الإمام شمويل من امرأته فاطمة الگمراوية (١٨٤٥-١٨٧٠ م)، وزوجة عبد الرحيم بن جمال الدين الحسيني، حج إلى بيت الله الحرام مع أبيها، وتوفيت رحمها الله تعالى قبله في المدينة المنورة سنة: (١٢٨٧ هـ)، ومرقدها ملتصقة بقبر أبيه شمويل في البقيع. *

[3] هي: آمنة الچُوخِيّة ابنة النائب الحاج محمد الأصم، وزوجة محمد شافع، توفيت رحمها الله تعالى في قريتها سنة: (١٨٦٥ م) بعد أن رجعت من كَالُوگـه مريضة، ودفنت في مقبرة العليا. *

[4] في (ب): وفروة من جلود دابة عَمِرْكَان [أمريكا] للإمام، وكانت على السردار يوم قدومه عليه، فخلعها له مبالغة في الإكرام، وهي التي أهداها له الپاد شاه الأعظم في فِترِ بُرغ.

حَجِيَو بن غَزِيَو الـكِّـرَطِيّ[١] وَتَوُشْ محمد[٢]، وكاتبِ الإمام المَعزول عبدِ الكريم ابن القاضي تَهْمَاس خان الـچِرْكاوي[٣]، والترجمانِ فُلكوْنِيك علي بيك اليَخْسَاوِيِّ[٤]، وتَرَكَ عيالَه في القلعة مع ولدِه محمد شفيع، ولم أكن معهم حينئذ، ولكن أذكُرُ هنا بجميع ما رأوا في السفر إلى الپاد شاه كأني معهم، وذلك بإخباري الإمام.

فَمَضَوْا جالسين على عَجَلَة السردار التي لم يُر مثلها في رُوسِيّة ما عدا عجلتهُ - فلا حاجة إلى ذكْرها - حتى إذا وصَلوا إلى بلدة چُكَيف.. وَجدوا الپاد شاه فيها، وهي قُربَ مدينة خَرْكُوفْ[٥]، بينها وبين فِتِرْ بُرْغ مسافة: (١٣٧٤) وِرْساً[٦].

وحاصل كلامهِ له عند الملاقاة: «طِب نفساً، إنك لا تَندِمُ بالقدوم عليّ»، فصار الأمرُ أحسنَ مما قال.

ثم خرجَ الپاد شاه راكباً إلى الصحراء لينظر على عساكره الركبان الذين لا يَبْرحُون من خَرْكوف وحواليها البَتّةَ على عادته في كل سنة، وهم من خِيار عساكره، وفيهم أنفار مختلفة؛ مِن غُسَارْسْكِي فُلْكْ، وأُلَان[٧]، وفلان وفلان، فكانوا يومئذٍ نحواً من خَمسةَ عشر ألفاً، فتَناضَلُوا هنالك وافْتَرَقُوا فِرقتين، ولَعِبوا برَمي المَدافع والمَكافيل

(١) هو: العالم النائب حَجِيَو ابن العالم غَزِيَو الكِّـرَطِيُّ، كان في كَالُوكَه خادما للإمام، وبعد الرجوع.. ولي نائباً على قِّنْصِرُخْ ثم على أُنْقْ رَقّْ، قتله مظلوماً بأيدي شرار رجال سِلْدِه في خَرْشِي السُّفلية في شعبان سنة: (١٢٨٨ هـ)، رحمه الله تعالى. *

(٢) هو: الشجاع تَوُش محمد بن قُرَ محمد الكِّـرَطِيُّ، كان نائبا على ناحية قُرُقْ مُخْ مِن قِبل الرُّوس. *

(٣) هو: كاتب الإمام الحاج عبد الكريم ابن القاضي تَهْمَزْ خان الـچِرْكَوِيُّ، بعد الذهاب إلى روسية وإعادته منها مع غازي محمد.. توطن في قريته، فتوفي هناك سنة: (١٢٩٥ هـ) رحمه الله تعالى. *

(٤) في (ب): والترجمان عيسى إوَانْچ غرَامُوف (گْرَامُوف) النصراني إلى عند الپاد شاه.

(٥) «چُگُـيوْ» (Chuguev)، و«خَارْكُوْ» (Kharkov): بلدتان تقعان اليوم في أُوكْرَانِيَا. *

(٦) وِرْسْتَا، جمعه: وِرْسات: مِن مَقاييس المسافة الروسِيّة قديما، وتساوي: (١٠٦٦,٩) مِتْرا. *

(٧) يعني: فَوْجُ «هُوسَار» (Hussar)، وَ«أُلَانْ» (Uhlans). *

بَعضُهم إلى بعض حتى كان يُرى مِن بُعْدٍ كأنّ هنالك مَلْحمةً عُظمى، والپاد شاهُ يَغْدُو بفَرسهِ يميناً وشمالاً يَختبر العساكرَ، وكان الإمامُ يَسْري معه راكباً على عجلة نفيسةٍ ويَسْألهُ الپاد شاهُ: «كيف رأيتَ هذا وهذا؟» فيُجيبُه جواباً لائقاً لِمَنصبِهما.

ثم أمَره الپاد شاه بالذهاب إلى مسكنِه مدينة فِترْ بُرغ حَضرةَ الملِكَةِ[1]، إيفاءً لِوَعدِه لها بذلك إن ظَفِرَ به، فمضى بولده الأعزّ وأصحابه وترجمانه، فإذا بَصَرتْ به.. سألتْهُ عن حاله، وعمّا ذاقه في السفر من الراحة أو المشقة، وقالت ما قاله الپاد شاه في أول الملاقاة معه، ورَجع من عندها إلى منزله.

ثم أروْا له[2] جميعَ العجائب التي لا توصَف حُسْناً من القصور الپاد شاهيّةِ، وما فيها من الأسْلِحة، والكنز، والعِمارات التي لم تَسْمع مثلَها عند الملوك قطُّ، وكذا سائرُ العُدد مِن المدافع، والكنافِر، ونحوها حتى الكنِيسَة التي هي من عَجائب الدنيا سعة ورِفْعَةً وبَهاء، كلها من الرُّخام الأمْلَسِ، بناها الپاد شاهُ المرحوم نِكالَاي[3] والدُ هذا الپاد شاه، ويقال: لا حَصْرَ لِمَا أصْرَفوا في بنائها من الدراهم.

فإن قلتَ: «هل يجوز لنا دخول الكنائِس بغيْرِ إذنهم؟» قلتُ: «بل يحرم ذلك بلا إذن منهم، كما هو مقرّرٌ في محلّه».

وأعجبُ ما رأى في فِتر بُرغ: دِيكُ الذهب المَوجودُ في قصور الپاد شاه، له صِياح كصياح دِيكِنا الأهليِّ بلا تفاوتٍ مَّا، فسبحان من سَخّر الأشياءَ بقدرته، وفَضّلَ بني آدم بالمهارة على سائر خَلقِه.

---

[1] أي: مَارِيَا أَلِكْسَانْدرُوفْنَا (١٨٢٤-١٨٨٠ م)، زوجة الإمبراطور أَلِكْسَانْدر الثاني. *

[2] في (ب): ففي الغد زار إلى إخوان الپاد شاه قُسْطنطين ونِكالَاي ومِخَائيل، فاحترموه بغاية الاحترام، وأزواجهم أيضا على ما هو دأب الكرام، ثم أروا له عجائب البلدة، وقصور الپاد شاه.

[3] هو: نِيكُولَاي الأول الرُّومَانِي، إمْبرَاطُور رُوسِية من سنة: (١٨٢٥ م) إلى: (١٨٥٥ م). *

هذه عُصَارة القصةِ المَتْلوّةِ عليّ الإمام وبعضُ أصحابه الذي كان معه يومئذ، فمن شاء فليُؤمِن ومَن شاء فليَكفر، نحن لا نُسْمِع المَوتى.

ثم إن الپاد شاهَ أرى له بلدة كَالُوگـه مَسكناً، وهي تَحكي بلادَنا في أكثر الأشياء؛ مِن طِيب الهواء، وحُسن المنظَر، وكثرة الغِياضِ والأنهار والآكام ونحوها[1]. ويقال: لما مَرِضَت والدةُ الپاد شاه هذا.. انتقَلَتْ إليها، وسكنتْ بها مدةً، فوَجدت الشفاء لمرضها، وعادَت إلى الوطن الأصلي.

وأمَر لرئيسِ البلدة حينئذ: أن يُخيَّرَ له في سكونه في أيِّ بيوتٍ شاء من البلدة، فلم يَخْترها بنفسه إنْصافاً لِما رأى منهم مِن إعزازِه واحترامه، وفَوّضَ أمرَها إليهم، فأسكنوه في دُورٍ فاخرة ليست مثلَها بها، واكْتَروْها له بألف مَنات مِن الخزينة، وفي قُدّام هذه الدور حديقة ناضرةٌ واسعة جداً، ذات ثِمار وأزهارٍ، وعُشْب غَزيرٍ ليَخْرُجوا إليها للتفرُّجِ متى شاؤوا، وهي خالية من الأغيار، وبها حمامٌ مخصوص لمن يُريد الغُسْلَ والنظافةَ في الشتاء. وأمروا حاكمَ المدينة بتهيئةِ ما فَسد منها كُلَّ سنةٍ من الخزينةِ. وقبل وُصولنا إليها[2] وَجدْنا تلك الدورَ مُهيّأةً، مصنوعةً فيها كل ما نَحتاج إليها من: الكَرَّاسِي، والعُروش، والمقاعِد، والفُرُش، والبُسُط، والبُرُدِ، والمِخَدّات، والمَرائي، والساعاتِ ونحوِها بأسْرِها بعَددٍ مَبْلغُه إلى نَيِّفٍ وسبعةِ آلافِ مَناتٍ بالحساب القليل، وسوى ذلك: الخَشَبُ من الخزينة للإيقادِ كلَّ عام بأكثرَ مِن مائتي تُومانٍ[3]، وأيضاً: نَصَبوا عندَه[4] رجلاً ليُعَلِّم له حَوائجَهُ، فيَكْتُب هو إلى الپاد شاه، وترجمانين:

---

[1] في (ب): كما وصفها الپاد شاه له وقت التعيين.

[2] أي: قَبل وُصول عِيال الإمام مِن شُورَه إلى كَالُوگـه، وكان ذلك: في (٢٣) مِن جمادى الثاني سنة: (١٢٧٦ هـ/ م ١٨٦٠). *

[3] في (ب): وسوى ذلك كان الوَقُود من الخزينة كل عام ما يساوي بألف منات.

[4] إمام. (منه).

رُوسيّ وغَزانِيّ بوظيفةٍ تَزيد من أربعة آلاف منات[١]، مثلا: (٣٠٠٠) له[٢]، و (١٠٠٠) للترجمان الروسيّ، و (٦٠٠) له، فتَصير جملةُ ما ذُكِر أكثرَ مِن أربعةِ آلاف، فيكون ما سامحوا للإمام[٣] في كل عام: (٢٠٠٠٠) منات بحَسب ذلك كلّهِ أي: لكونهم لازمينَ عليهِ مُكفَّلين لأجلِه.

فأعجِبْ من حرمةٍ لا يُماثلها أخرى[٤]، ولم يسمَعْ في عهد الملوك الماضين نظيرها لأحد، فلا عِبْرةَ بما يتفوّهُ به الحسّادُ الماردُون من مفاسدِ الأوهام الناشئة مِن سُوء الضمائِر، وخبْث السرائر، فقاتلهُم الله ما أحمَقهم وأجهَلهُم، وهل ينقص الجوهر قيمةً بتلويثِها ألسنة الجُهّال، أو يباع العُودُ بأرخص قيمةٍ ببعدِه من أرضه؟! هَيْهاتَ ذلك ثم هيهاتَ، وإنما يَعرف ذا الفضل مِن الناس ذَوُوه.

تذنيبٌ لِما بقي: وحين خرج الفِرْمان العليُّ من حضرة الپاد شاه - ذي القدر العالي والجاهِ - بتهيئةِ الدُّورِ للإمام.. كان مأموراً أيضاً بشراءِ أساس الطعام من الفضة الخالصة له، فلم يَقبل ذلك على ما يَقْتضِيه المعروفُ من مذهب الشافعي رضي الله عنه، وبذلك الكلام زاد قَدرُه عندهم لعلمِهم: أن قِلّة الحِرْص على الحُطام الدنياوية من مكارم الأخلاق والشيم، ومِثلُه قليل فينا، ولله در القائل في هذا المعنى:

اقْنَعْ بِأَيْسَرِ رِزْقٍ أَنْتَ نَائِلُهُ ... وَاحْذَرْ وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلإرَادَاتِ
فَمَا صَفَا البَحْرُ إلَّا وَهُوَ مُنْتَقِصٌ ... وَمَا تَكَدَّرَ إلَّا فِي الزِّيَادَاتِ.

---

(١) في (ب): وستمائة منات.

(٢) أي: للمنصوب المذكور. *

(٣) أي: لأجله. (منه).

(٤) في (ب): لا يماثلها من مالك آخر لمثل الإمام الذي كان معاندا له قاليا، فلا بأس بما يتفوه به الحساد الماردون المعاندون، فـ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

وما أحسن ما قيل أيضاً في مدح القناعة:

اقْنَعْ بِمَا أُوتِيتَهُ تَنَلِ المُنَى ... وَإذَا دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ فَتَصَبَّر

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ فَلَو ... رُمْنَا زِيَادَة ذَرَّةٍ لَمْ نَقْدِر

واللهُ أَرْحَمُ بِالعِبَادِ فَلَا تَسَلْ ... بَشَراً تَعِشْ عَيْشَ الكِرَام وَتُؤْجَر

فَإِذَا سَخِطْتَ لِضُرٍّ حَالِكَ مَرَّةً ... وَرَأَيْتَ نَفْسَكَ قَد عَدَتْ فَاسْتَبْصِر

وَانْظُر إِلَى مَنْ كَانَ دُونَكَ تذَّكِر ... لِعَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فَتَشْكُر.

وزِدْتُ على ذلك ما يعجِبُني حُسنُه وصدقُه وقلتُ:

القَانِعُ غَنِيٌّ وَإنْ جَاعَ وَعَرَى ... وَالحَرِيصُ فَقِيرٌ وَإنْ مَلَكَ الدُّنْيَا.

ولما وقفتُ على قصة عجيبة في زُهد الكلب وصَبْره.. ذكرتُها هنا ليَعتبرها السامعُ الواعي، ولَعَمْري؛ إنها مَنْقَبة يَستحسنها كل عاقل لبيب أن تكون فيه، وذلك مِصداقاً لما يُوجد في كتبنا؛ مِن أن في الكلب أربعة خصال حميدةٍ يَليق أن تُوجدَ في مُؤمن، فإن كان المذكورُ حقّاً.. لعل ما أذكرها الآن هي الواحدة منها إن شاء الله تعالى، فقال[1]:

يا مَن هو ناظر مِن وَراء الحجاب، يا من هو محجوب عن المسبَّب بالأسباب، يا مُسبلاً ثيابَ الإعجاب، تأدّب بآدابي، فإن فِعْل الجميل دأبي، وسِسْ نفسَك بسياستي، واسمَع ما أقول لك من فراستي، وما عليك من خَساستي، فإني وإن كنتُ في الصورة حقيراً.. تجدني في المعنى صابراً على التَّباريح، وفقيراً لا أزال واقفاً على أبواب سادتي؛ غير راغبٍ في سيادتي، فلا أتغيَّرُ عن عادتي، ولا أقطعُ عنهم مادّتي، أُطْرَدُ فأعُود، وأضرَبُ ولَسْت بالحقُود، وأنا حافِظ للوُدِّ، باقٍ على العُهودِ، أقوم

[1] أي: الكلب. *

إذا كان الأنام رُقودا، وأصُون والخوّان ممدود، وليس لي مَالٌ معْهُود، ولا سِماطٌ مَمدُود، ولا رِباط مَشهود، ولا مقام محمود، إن أُعْطِيتُ.. شكرتُ، وإن مُنِعْتُ.. صَبرْتُ، ولا أُرَى في الآفاق شاكياً، ولا على ما فاتَ باكياً، إن مَرِضْتُ.. فلا أُعَادُ، وإن مِتُّ.. فلا أحْمَلُ على أعواد، وإن غبْتُ.. فلا يقال: ليتهُ عادَ، وإن فُقِدت.. فلا تبكيني الأولاد، وإن سافرت.. فلا أَسْتَصحِبُ الزادَ، ولا مَالَ لي يُورث، ولا عَقار فَيُحْرث، إن فقدْتُ.. فلا يُبكى عليّ، وإن وُجِدْتُ.. فلا يَنظر إلَيّ، وأنا مع ذلك أحُوم حَول حِمَاهُم، وأدُوم على وَفاهم، عاكفٌ على مزابلهم، قانعٌ بِطَلِّهِم دُون وَابِلهِم، فإن أعجبَك خِلالي.. فتمسَّك بأذيالي، وتعلقْ بحِبَالي، فإنْ أردتَ وِفَاقي.. فتخلَّقْ بأخلاقي، وأنشدُ لك في ذلك شعراً:

وَتَعَلَّم حِفْظَ المَوَدَّةِ مِنِّي ... وَتَمَسَّك إِلَى العُلَا بِحِبَالِي
أَنَا كَلْبٌ حَقِيرٌ قَدْراً وَلَكِن ... لِي قَلْبٌ خَالٍ مِنَ الأَدْغَالِ
أَحْفَظُ الجَارَ فِي الجِوَارِ وَدَأبِي ... أَنْ أُحَامِي عَلَيْهِم فِي اللَّيَالِي
وَتَرَانِي فِي كُلِّ عُسْرٍ وَيُسْرٍ ... صَابِراً شَاكِراً عَلَى كُلِّ حَالِ
لَا يُبَالَى عَلَيَّ إنْ مِتُّ جُوعاً ... وَسَقَتْنِي الأَيَّامُ مُرَّ النِّكَالِ
لَا يَرَانِي الإله أَشْكُو إِلَى الخَلْقِ ... إِذْ عَلَى الله فِي الأُمُورِ اتِّكَالِي
أَحْمِلُ الضّيمَ فِيهِ صَوْناً لِعِرْضِي ... وَفِرَارِي مِنْ مُرِّ ذُلِّ السُّؤَالِ
فَخِلَالِي عَلَى خَسَاسَةِ قَدْرِي ... فِي المَعَالِي يَفُقْنَ كُلّ خِلَالِي.

انتهى.

أقول: في هذا الكلام غُنْيةٌ لمن تفكّرَ، وعِبرة لمن اعتبرَ، وقليلٌ فينا مَن يتنبّهُ لمثل ذلك، فلا يبْعدُ أن نحكمَ أحياناً بأن في الحيواناتِ من هو أذكى وأعقل منه في الناس،

وكيف لا؟! مع أن هذا كلامٌ لا يتفطّنُ له غالبُ العقلاء من الخلق، فضلا مَن دُونهم في الحَظّ مِن الفَهْم، فإذا كان الأمر كذلك.. أعْجَبُ ما أتعجّبُ منه: عَدّ الكلب عندَنا من أخبث الحيواناتِ العُجُمِ[1]، ووُجُوب غسل ما مَسَّه منَ البدن سبْع مَرّاتٍ، إحديها بالتراب، كما هو المعروف مِن مذهب الشافعي خلافاً للإمام مالك، فإنه يقول بـ: طهارته، مع قول أبي حنيفة بـ: كِفايةِ الغُسْل من ولوغه مَرّة واحدة، اللهم؛ إلا أن يقالَ: إن الغسل من وُلوغِه سبع مرّات تَعبُّدِيٌّ.

ثم بعد زمانٍ من قَراره[2] في كَالوگه.. أهدى له الپاد شاه الأعظم عَجَلةً فاخرة نفيسةً جداً، قيل: «إنها تُساوي بألف مَناتٍ إن قُوّمَتْ»، واشترَوْا له فَرَسيْن جَيّدين فارهينِ بسبعمائةِ منات، والحمد لله رب العالمين.

ثم إن ذلك الرجلَ المنصوب عنده، وهو الكَفِطَان أَفُلّون رُونُوْسْكِي قد أحْسنَ سِيرته ما دامَ عندَه، وصانَ حرمتَه وخاطرَه، وسمعْتُ - وهو ونحن في قَصر الپاد شاه حين ذَهبْنا إلى بلدة فتر بُرْغ - يقول له الپاد شاه شِفاهاً: «إني راض عنك لخدمَتِكَ الأمِينة»، فذات يوم جاء إلى الإمام وقال له: «إن في مَكانٍ قريب منا مَعْمَل الكَوَاغذ» أي: تُصنع بها، «فإن شئتَ.. نذهب إليه للتفرّج»، فقَبل ذلك، وسافر إليه ونحن معه حتى إذا وصَلْنا المعْمَلَ.. وجَدْنا مالكهُ متهيئاً لإضافتنا كأنه عَلم مجيئنا إليه قبْل ذلك بشهرٍ، وكان ذلك الأمر معلوماً عنده بظرافة أَفُلّون، فأرانا صاحبُ المَعمل جميعَ ما هنالك من العجائب الصادرة من مَهارته، فلنذكر لك نبذة منها:

فأولاً: نَصبوا فيه قُدوراً كباراً مُدوَّرةً كالكُرّة تدور دائماً، وعندها شيء كثيرٌ من الخِرَقِ والأطمار، فيُلقونَها في تلك القُدور لِتَصيرَ نظيفةً من الوسخ، فبعد التنظيف..

---

[1] في (ب): ما عدا الخنزير.

[2] أي: الإمام. (منه).

تَرْمِيها القدور إلى مَقْطَعٍ آخرَ رَمْيَ الحَبّةِ من الرَّحَى، وبه شيءٌ كالفَأس يجعَلها قِطَعاً كالحَشِيش المَجْزوزِ، فيَجعل ما جُزّ في قُدور أخَر؛ فيها ماء حتى تتنظّف بغَسل جَيّدٍ بالدوران بها، ثم يُجْعل ما أخْرِجَ منها في أخر، فتصير آخِراً كالحَسَا[1].

وبهذا المعمل دَواليب من الحديد، والحِبالُ، وأشياء أخَر صُنِعَت بأيدي العَملة المهرة، لا تُدْرِكها الأبصار وإن أُمْعِنَ النظرُ، وأُدِقّ الفكر، لكن منتهى نظر مَن حَضر هنالك دَهْشةٌ محضةٌ، وأوهام صِرْفة، ففي انتهاء هذه الدواليبِ ونحوِها تُرى أوراق الكواغذ تَسْقط من الأعلى إلى الأسفل مُربَّعةً مهيأة للكِتبة، وتحت مسقطها غلامينِ - لم يبلغا الحُلُمَ - يَلتقطان ما سقط منها إلى الأرض مِن مِيزابها نظير ما في الرحى، وجميعُ الخَدَمَة هنالك بدوالِيبَ من الحديد.. لا تحتاج إلى مُعين آخر من الخَلق، إلا ما كان في إلقاء الأطمارِ في القُدور كما سبق ذكره.

وذلك لا يعادل ما يتحمّله الحمر في حمل الأقفِزَةِ إلى الأرْحيةِ في ديارنا، وأقول في وَصْف الحِمار القائم على ضَيْمٍ يُرادُ به دائماً شعراً فما أحسنه:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ[1] يُرَادُ بِهِ ... إِلَّا الأَذَلَّانِ: عَيْرُ الحَيِّ وَالوَتِدُ
هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ[2] ... وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ.

وهو المسكين أذلّ الحيوانات العُجُم عندنا حتى إنّه يَحْمل السِّرْجين إلى المزارع وَنحوه. وقد نظمَ أوْحَديّ من علماء داغستان[3]، مشهورٌ بها بغَوْرِه في العلم، وحَلّ المشكلات ما يشتمل على الرثاء في حماره الذي كان يُعين به في خدَمات البيت

---

[1] الحَسَا: المَرَقُ ونحوُه، والجمعُ: أحْسَاءٌ، وأحْسِيَةٌ. «المعجم الوسيط». *

[1] أي: ظلم. (منه).

[2] وهو: قطعة حبل بالية.

[3] وهو: سعيد أفندي الهركني المشهور. (منه).

حتى صارَ عنده أعزَّ من الكبريت الأحمر، وأرحم في حلّ الشاقّة، وإيصاله إلى أربَاتهِ، فهو يُرْثِيهِ ويجزع بعد غيبة عنه:

وَلَمَّا نَعَى النَّاعِي بِمَوْتِ حِمَارِنَا ... تَفَاقَمَتِ الأَحْـزَانُ مِنْ كُلِّ جَانِب

وَبِالخَبَرِ الكُنْدِيِّ[1] قَد بِتُّ سَاهِراً ... وَأَصْبَحَ فِي قَلْبِي كَسُمِّ العَقَارِبِ

وَضَاقَت عَلَيَّ الأَرْضُ مِن بَعْدِ رَحْبِهَا ... وَعِيلَ بِهِ صَبْرِي وَغُصَّت مَشَارِبِ[2]

فَيَا أَيُّهَا اليَعْفُور كُنْتَ عِمَادَنَا ... وَكُنْتَ لَنَا عَوْناً عَلَى كُلِّ جَانِب

وَلَقَّنْتُهُ التَّوْحِيد بَل كُنْتُ قَارِئاً ... لِسُورَةِ يسٓ لِكَشْفِ المَآرِبِ[3]

بِحَقِّكَ يَا رَحْمَنُ اجْعَلْهُ صَاحِباً ... حِمَارَ عُزَيْرٍ[4] فِي الجِنَانِ الكَوَاعِبِ[5].

وهي قصيدة طويلة، فيا له من حِمَارٍ بكى عليه مَالِكُه، ولعله كان من أنفع دَوابّهِ له.

ثم دعانا مالك هذا المعمل إلى الضيافة، ورَجعنا من عندِه مُسْتأنَسِين بما رأيناهُ.

فبعْدَ انقضاء مدة مِن ذلك جاء الكَفِطان أَفْلّون إلى الإمام ثانياً يَدعوه إلى مَعْدِنِ السُّكَّرِ أيضاً، وكان هذا قربَ بلدة كالوگه باثني عشر وِرْساً، فارتحل هو إليه مَعنا، فإذا انتهيناهُ.. وَجدنا مالِكَهُ[6] متهيئاً كأنه يَنتظر قدومَ ضيفٍ كريم عليه، والموائدُ مبسوطة

---

[1] اسم قرية من قرى غازي غمق. (منه).

[2] في (أ): مشاربي.

[3] أي: كنت لقّنتُ حماري بكلمة التوحيد، وقارئا لسورة يس كما هو عادة المسلمين عند المحتضر. (منه).

[4] وعُزَيْرٌ: اسم نبي أماتَهُ الله تعالى مائةَ عامٍ ثم بَعثه، قال له: «كَم لَبِثْتَ؟» قال: «لَبِثْتُ يوما أو بعضَ يوم»؛ لأن موته كان من طلوع الشمس وبعثه وقت غروبه، وظن أنه بعثه الله تعالى في اليوم الذي مات فيه، فنفاه الله تعالى بقوله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٩]. (منه).

[5] أي: ذات الكواعب. (منه).

[6] أي: جُوكُف.

بين يديه، وعَلِمنا: أن هذه المهارة لا تكون إلا للكفطانِ أفلون رُونُوْسْكِي، فعَقِبَ نُزولنا به.. حُمِلْنَا إلى المعدن، فإذاً به ما بِمَعْدِن الكواغذ مِن الدواليبِ، والحِبالِ، والقُدورِ بلا تفاوتٍ مَّا، غير أن هذا أخبثُ من مَعْدِنِ الكواغذ بكثيرٍ، ولنذكر لكم يسيراً من حكايته:

مثلاً: رأينا به جُزُراً كثيراً ونوعاً آخرَ منه يُسمّى بلساننا: چُكُلْطَ[1]، والخدماءُ قائمون دائماً بهذا المعدِن يُلْقونها في القدور التي تَدور كالأرحية، فهي تَدقّها حتى تَصيرَ كالحسَا، ثم تَعْصِرُ المَدْقُوق بخرائدَ من كَتّانٍ، فيَقْطر عَصِيرُها إلى الأسفَل ويبقى بها شيء كالدُّرْدِيِّ، فيُغْلى العَصير حتى يَنْجَمِد، ويَصير مائعاً غليظاً كالعَسَل، ثم يَصُبّون المَغْلِيَّ في القُدور الأُخَر تدور بسُرْعةٍ، فيَصيرُ آخِراً كالدهْنِ المَغْلِيِّ المُنْجَمِد، ثم يَجْعلون هذا المَغليَّ في قَوالبَ من الحديد الأبيض على هيئات رُؤوس السكّرِ، ثم يَضعونها في بيتٍ باردٍ جداً في مَهبّ رِيح لِيَصير المجعولُ بها صُلْباً على هيئةِ تَرى الآن، وهذا مآلُ السكرِ، لكن يبقى به صُفرةٌ يُحتاج إلى إزالتها، والعلاج له: أن تُؤخذ العظامُ فَتُحْرَقها إحراقاً جيداً، فَتُدَقُّ مَحروقُها حتى يصير كالدقيق في النعومة، ثم يُسْتعمل للسكر منها قَدرٌ يفي الحاجةَ في تَبييضه[2]، هكذا قيل لنا بهذا المعدِن، ولم نر كيفيتهُ بعُيوننا، انتهت القصة ملخصة.

***

[1] چلْكُطَنْ أي: شَمَنْدَرٌ. *

[2] في (ب): فإذا رأى الإمام هذا المعدن.. امتنع عن وضع السكر في چاي أياما عديدة، وصار يشتري قصب السكر، ويطلبه في حَوانيت بلدة كالوگه، وكان أغلى من السكر المعلوم، وسببه: كيفية جعل السكر لم تكن نظيفة وإن كانت آلاتها وما يجعل منها طاهرة، وخاصة لما رأى استعمال العظام الخبيثة في جعله، فإذا وجد في كتب المذهب الشافعي رضي الله عنه بعد التفحص التام - وخاصة في كتاب «سيدي على الأنوار» شكر الله سعي مصنفه -: «أن العظام إذا أحرقت تصير محروقها طاهرة بواسطة النار».. تلج لأكل السكر خاطره ثانيا، ورجع عن الامتناع.

ولنشرَع الآن في بيان كيفيةٍ يسيرة من تبجيل أهالي بلدة كالوگه للإمام وسائر الزُّوّارِين إليه من الرؤساء والأمراء والغِنارالات وسائر الوجوه من الناس.

نحن سَكنا فيهم زماناً يسَعُ به إدراكُ أحوالهم، وعلمُ مناقِبهم، ولكن لا سبيلَ للإنسان أن يعْلم الأشياء بحقائقها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الآية[1]، ومع ذلك يزعم الإنسان دائماً على العلم، وبهذه المدّةِ لم نَر منهم كبيرهِم وصغيرهم ما نَعافهُ ونعْبسُ به قولاً وفعلاً، سراً وجهراً سوى الإعزاز والإكرام، في القعود والقيام، وفي الليالي والأيام حتى إذا لقيناهم في الأزِقّةِ أو المحافِل.. يُحَيّونَنا مثلاً: بخَلع القلانِسِ، والمصافحة بالأيدي، والمحاورة الحَسَنةِ بالأفواه، وهكذا... إلخ.

ولو ذهبنا إلى الضيافة بدعوة منهم أو بدونها.. يقومون لنا احتراماً، ويقدّمون إلينا ما عندهم من الطعام أو الشراب، بل لو أردنا الصلاة في حضرتهم لِقيام وقته.. يُوسِّعون لنا المكانَ، وذلك حُرمة منهم لنا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ الآية[2]، وجميعُ ذلك: فضل الله تعالى يُؤتيه من يشاء، ومَرحمة الپاد شاه الأعظم.

ثم من المعلوم البيّنِ لكل ذي طبع سليم ورأيٍ قَويم.. أني لا أُحَسِّنُ الكلامَ بما ليس في الواقع صادِقاً، ومع ذلك ربما ينكر عليّ في حديثي هذا مَن خَبث باطِنه، وضعف يقينهُ بلا خيرٍ به لأحد، وحينئذ يحسن لي بيتاً هو أليق في حق مَن ذكرَ من التِّبْرِ الأحمر في جِيد الكواعبِ، وذلك البيت هذا:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي دَمَانِ[3].

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٨٥. [2] سورة الروم، الآية: ٣٢.

[3] تَمَرَّغ: أي: تلطّخ. دَمَان – لغة –: في الدم. (منه).

ولي في مِثل هذه القضيّةِ حكاية عجيبة يَسْتلذّها القارئ والسامع الواعي، وهي: أن الله تعالى خَلَق طبائع الخلق مختلفة، وليس فِيمَن خلقهُ الله تعالى على وَجه الأرض - ممن يمشي على أربَع أو على رِجلين أو يطير بجناحَين - شيء مَّا أفضل من الإنسان بنص: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية[1]، أي: فَضَّلناهم على سائر الخلق بالعقل، والعلم، والطهارة، حَيّاً وميتاً وغيرها، ولكن فيهم البرّ والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسِّبَاع والطير ما هو أوفى منه ذمَّة، وأشدّ محاماة على الحرمة، وأشكرُ للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجبُ على ذوي العقول مِن أولي الأمر - مَلِكاً كان أو غيره -: أن يضعوا مَعروفهم في مواضعه، ولا يضيّعوهُ عند مَن لا يحتمله، ولا يقوم بشكره، ولا يصْطنعوه أحداً.. إلا بَعد الخِبْرة بطرائِقِه، والمعرفة بوفائه، ومَودّتهِ، وشكره لئلا يرجعَ شوماً عليهم بقلَّةِ شكر مَن وضعوه لهم.

ولقد أحسَنوا وأعقلوا بوضْعِهم إياه[2] في جَانبِه ومَوْضعِهِ، واستِئْهالهم للإحسان أهله وإن كان بعض الحسدة اللئام يَتمزَّقونَ بذلك، ويَسْتصْعَبونه بقِلّة إدراكهم الأمور، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية[3] أي: لِانهِمَاكهم في أكل لحُوم إخوان الدِّين، وذِكرهم إياهم بسوءٍ، وإخباثهم البواطِن في حق المؤمنين أشِحّةً على الخير، بل لا ينبغي لذِي الحِجَى: أن يخصّ بالإحسان قريباً لقرابتِهِ إذا كان غير محتمل للصّنِيعَة، وأن يَمْنعوا مَعروفهُم ورِفْدهم عن البعيد إذا كان يَقيهم بنفسه، يحميهم بشكرهِ؛ لأنه يكون حينئذ عارفاً بحقّ ما اصْطنع إليه، مؤدّياً لشكر ما أنعم عليه، محموداً بالنصحِ، معروفاً بالخير، صَدوقاً عارفاً مؤثِراً لِحَميد الفِعال، وشريف الخصال.

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

[2] أي: الإمام شمويل. *

[3] سورة البقرة، الآية: ١٠.

وكذلك كل من عَرف بالشِّيَم المرضية، ووَثِقَ منه بها كان للمعروف موضعاً، ولتقريبه واصْطناعِه أهلاً، مثلاً: إن الطبيب الرفيق العاقل لا يَقدر بل لا يحب مُداواة المريض إلا بعد النظر إليه، والجَس لعُروقِه، ومعْرفة طبيعته، وسبب علته، فإذا عَرف ذلك كله حق مَعرفته.. أقدَم على مُداواته. فكذلك العاقل، لا ينبغي له أن يصطفي أحداً ولا يَسْتخلِصَهُ إلا بعد الخِبرَة، فإن من أقدمَ على مشهور العَدالة كثير الغُنيَةِ مِن غير اختبارٍ.. كان مخاطراً في ذلك، ومُشرِفاً منه على هَلاكٍ وفساد، ومع ذلك ربما صَنع الإنسان المعروفَ مع الضعيف الذي لم يجرّب شكرهُ، ولم يعْرف حاله في طبائعِه، فيقوم بشكر ذلك، ويكافئ عليه أحسَن المكافآت. وربما يحذر العاقل من الناس ولم يأمَنْ على نفسِه أحداً منهم، وقد يؤخذ ابن عِرْسٍ[1]؛ فيُدخِلهُ في كمّهِ، ويخرجُه من الأخرى كالذي يحمل الطائر على يدهِ، فإذا صادَ شيئاً.. انتفع به، وأطعَمهُ عنه. وقيل: «لا ينبغي لذي عقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس، ولا من البهائِم، ولكنه جديرٌ بأن يَبْلوَهُم، ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يَرى منهم».

وأنا أمَثِّلكم لكون الإنسان أقل المخلوقاتِ شكراً بمثال جَيّدٍ مُفيدٍ لمن تأمل فيما أقول، فعمل بمقتضاه، وهو: أن جماعة حَفروا رَكِيَّة[2]، فوقع فيها رَجل صَائغ، وحَيَّة، وقِرْدٌ، وبَبْرٌ؛ وهو دُوَيْبة تتّخذ من جلدها الفِرَى، فمرَّ بهم رجل سائحٌ، فأشرف على الركية، فبصَر بالرجل والحيّة والبَبر والقِردِ، فتفكر في نفسه وقال: «لستُ أعْمَل لآخِرتي عملاً أفضَل من أن أُخَلِّص هذا الرجل من بَين هؤلاءِ الأعداء»، فأخَذ حَبْلاً وأدْلاهُ إلى البِئر، فتعلَّق به القرد لخِفّتهِ؛ فخرج، ثم أدْلاه ثانيا، فالتفت به الحية؛

---

[1] ابن عِرْس أو السُّرْعُوب أو السُّنْعُب: جنس من الحيوانات يتبع الفصيلة العرسيات من رتبة اللواحم، طوله من: ١٥-٣٥ سم. *

[2] أي: بِئراً. *

فخرجَت، ثم أدلاه ثالثا، فتعلق به البَبر؛ فأخرجه، فشكرْنَ له صَنِيعه وقلن له: «لا تخرِج هذا الرجل من الركية، فإنه لا شيءَ أقل شكراً من الإنسان، ولا أَكْفَر نعمةً ونِسياناً لها منه، وخصوصاً هذا الرجل»، ولعلّهُن أدركنَ حالهُ بالبئر، وإلا.. فلا سبيلَ لتخصيصِه بالشر.

ثم قال له القِرْدُ: «إن مَنْزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها: نَوَادِرَخْتْ»، وقال له الببر: «أنا أيضا في أجَمَةٍ بجانب تلك المدينة»، قالت الحية: «أنا أيضا في سور تلك المدينة، فإن أنت مَررت بنا يوماً من الدهر واحتجتَ إلينا.. فصَوِّتْ علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسدَيت إلينا مِن المعروف».

فلم يلتفت السائح إلى ما ذَكرْنَ له من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرجَ الصائغ، فسجَد له شاكراً وقال له: «لقد أوْليتني معروفا، فإن أتيت يوماً من الدهر بمدينة نَوَادِرَخْتْ.. واسأل عن منزلي، فأنا رجل صائغ لَعَلّي أكافيكَ بما صنعت إليّ من المعروف»، فانطلق الصائغ إلى بَيتهِ، والسائح إلى جانبِه.

فعَرض بعد ذلك حاجة للسائح إلى تلك المدينة؛ فانطلقَ، فاستقبله القِرْدُ، فسجَد له، وقبّل رِجليه، واعتذر إليه وقال: «إن القرودَ لا يملكونَ شيئا، ولكن اقعد حتى آتيك»، فانطلقَ القرد، وأتاهُ بفاكهة طيِّبَة، فوضَعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم إن السائح انطلق حتى دَنى من المدينة، فاستقبلهُ الببرُ، فخرّ له ساجداً وقال له: «إنك قد أوليتني مَعروفا، فاطمئن ساعة حتى آتيكَ»، فانطلق البَبر، فدخل في بعض الحِيطان إلى بنتِ الملِك؛ فقتلها، وأخَذ حليها، فأتاه به، والسائح لم يَعْلم مِن أين أخذ ذلك الحَلْيَ، فقال في نفسه: «هذه البهائم قد أوْلَتْني بهذا الجزاء العظيم، فكيف لو قد أتيتُ إلى الصائغ - فإنه إن كان مُعْسراً لا يملك شيئا - فسَيَبِيعُ هذا الحلي فيَستوفي ثمنهُ، فيعطِيني بعضهُ، ويأخذُ بعضهُ، وهو أعْرف بثمنه مِنّي».

فانطلق السائح؛ فأتى إلى الصائغ، فلما رآه.. رَحبَ به، وأدخَله إلى منزله، فلما بَصَر بالحلي معه.. عرفه، وكان هو الذي صاغه لابنةِ الملك، فقال للسائح: «اطمئن حتى آتيك بطعام، فلسْت أرضَى لك ما في البيت»، ثم خرج الصائغ وهو يقول: «قد أصَبْتُ الفُرصة، أريد أن أنطلق إلى المَلِك وَأدلّه على ذلك، فيَحْسنُ منزلي عندهُ»، فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: «أن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي»، فأرسل الملك وأتى بالسائح، فلما نظر إليه وبصَر بالحلي معه.. لم يمْهلهُ، وأمَر به أن يقتل أو يعذب، ويطاف به بالمدينة ويُصْلبَ، فلما فعلوا به ذلك.. جعَل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: «لو أني أطعتُ القرد والحيّةَ والببرَ فيما أمَرْنَني به وأخبَرْنني من قلة شكر الإنسان.. لم يَصِر أمري إلى هذا البلاء»، وجعَل يكرّر هذا القول.

فسمِعَت الحية مَقالتهُ؛ فخرجت مُسْرعة من جُحْرِها فعَرفته، فاشتد عليها أمره، فجَعلت تحتال في استخلاصِه من ذلك البلاء، فانطلقَت حتى لدَغَتْ ابن الملك، وتخايلَت له وقالت: «إنك لا تبرأ حتى يرقيكَ هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلما»، وانطَلقَت الحية إلى السائح، فدَخلَت إليه السِّجْن وقالت له: «هذا الذي كنتُ نَهيتك عنه مِن اصطِناع المعروف إلى هذا الإنسان، فعَصَيتني فوقَعْتَ في هذه الوَرْطة والعَطَب»، وأتتهُ بوَرَقٍ ينفع من سمّها، وقالت له: «إذا جاؤوا بك لترقي ابن الملك.. فاسْقِهِ من ماء هذا الوَرَق، فإنه يبرأ، وإذا سألك الملكُ عن حالك.. فاصْدقهُ، فإنك تنجو إن شاء الله تعالى، فإن النجاة دائما في الصدق، كما أن الهلاك في الكذب».

ثم إن ابن الملك أخبر له: أنه سمع قائلا يقول: «لن تبرأ حتى يُرقيك هذا السائح الذي حُبس ظلماً»، فدَعا الملك بالسائح، وأمره أن يرقي وَلدهُ فقال: «لا أحسن الرقي، ولكن أسقيه من ماء هذا الورق، فيبرأ من عِلّته بإذن الله تعالى»، فسَقاه؛ فبرأ

الغلامُ، وفرح الملك، وأعطى له عَطية حسنة، وأمَر بالصائغ أن يُصْلبَ، فصَلبوه لكذْبهِ وانحرافه عن الشكر، ومجَازاته الفِعلَ الجميلَ بالقبيح.

وذلك مِصْداق قول الحكيم: «مَن حَفَرَ.. وَقَعَ»، ففي صَنيع الصائغ بالسائح، وكيْدِهِ له بعد إنقاذه إياه من الهلاك، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه.. عِبرة لمن اعتبر، وفكرةٌ لمن تفكّرَ، ونصح لأولي الألباب في وَضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرَم، قريباً كان أو بَعيداً لما في ذلك من صَواب الرأي، وجَلْبِ الخير، وصَرْفِ الشر.

وفي ذلك أنشدتُ نصحاً لإخوان الزمان، وخلّان الأوان:

النَّاسُ كَـالأَرْضِ وَمِنْهَا هَمُو ... سٌ خَشِنٌ فِي اللَّمْسِ أَو لَيِّن
وَجَـنْـدَل تَـدْمِـي بِـهِ أَرْجُـلٌ ... وَإِثْـمِـدٌ يُـجْعَـلُ فِـي أَعْـيُـن.

ثم عند وُفود الزائرين إليه[1] من الأطرافِ من أعيان الناس والوجوه، خصوصاً مَن لهم صَدارة لدى الپاد شاه الإيمبراطور الأعظم مَنبع الجود والكرم.. يُلاطِفون له الكلامَ، ويُواجهونه بمحاسن المحاورة، ومَفاخر الأقوال، إيناساً له من وَحْشة الغُرْبة، والبعد عن وَطنه، ويُعزّونه بالعزاء الجميل على قضاء الرب الجليل، كما هو طبيعَة غالب كبرائهم، عكسَ اللئام، ولكنهم أقل فيهم من أن يُذكروا فهم بمنزلة العَدم، وفيهم يقول الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه:

بُلِيتُ بِقَـوْمٍ كَالبَهَائِمِ يَرْتَعِي ... أَرَاذِلُ قَـوْمٍ فِـي صِـفَـاتِ أَكَـابِـرِ
وَلَـوْ شَـاءَ رَبِّـي خَصَّهُم بِثَلَاثَةٍ: ... قُرُونٍ، وَأَذْنَابٍ، وَشَقِّ الحَوَافِرِ.

[1] أي: الإمام. (منه).

ولا أعلم أمِنْ هذا وسعوا أصحاباً وأنصارا، وكملوا سواداً ودَولة، ومَالَ أكثر الناس إليهم فيما يشاهَد حتى أرباب الأديان المختلِفة من غيرهم، والله؛ إن في ذلك لحكمة خفيّة لا نكاد نطلعُ عليها، ولله در الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال في مَدح التواضع وذمِّ الخُيلاء شعراً:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحَ لِنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَلَا تَكُن كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... عَلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهُوَ وَضِيعُ.

ثم عند وَداعِه يَدْعون له بالخير ممن في يده مقاليد الخير والشر، ويُظْهِرون له الحرمةَ والإكرام قائلين له: «نحبك لِشِيَمِكَ المرضية، وخِصالك الحميدة التي اشتَهرْتَ بها بين الورى، وأقطار الدنيا من سائر بني العوامّ، وذلك دَأبنا لأهل الصِّدْقِ والوفاء، وأما الخائِنُ عندنا.. فحائنٌ[1]؛ لا نحبّهُ أبداً، ولا نقبل منه العذرَ بعد ثبوته، فلعنة الله على الخائنين، إنه لا يهْدي كَيْدهم أجمعين».

هكذا كلامُهم له، وأما أفعالهم.. فأبلغُ في إيصال الخيُورِ، وكأن ذلك من توفر العقل والتجربة في الأمور، ومِن ثم تثلج لهم الخواطر من العوام، وتكشف لديهم سَرائر الأنام، كما شاهدنا ذلك عيَانا، فلا اعتبارَ بطعْنِ بعض الحسدة المعاندين مِن الأوباش الذين يحسبون أنهم يُحْسِنون صنعاً، والله؛ أنهم لفي سكرتهم يعمهون، وإلى الخير لا ينالون. ويحسن فِي ذلك المعنى قول الشيخ العارف محمد البُوَيْصِيرِي رحمه الله تعالى[2]:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ.

---

[1] الحائن: الأحْمَق. «قاموس». *

[2] هو: إمام الشعراء الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حَمّاد الصَّنْهاجي الدلاصِي المغربي البوصيري (٦٠٨-٦٩٦ هـ)، كان أحد أبويه من بوصير الصعيد، والآخر من دَلَاص، رحمهم الله تعالى. *

حكايةٌ مُفْصِحَةٌ عن مَهارة رجل إنْگِلِزِيٍّ حضرَ إلى بلدة كالوگه مع ابنيْهِ، مشهور بِـچَفْمَن.

يزعُم: أنه أمْهَرُ الخلق في اللَّعْب بأمور شتى، فعيّنَ هذا الرجل يوما لذلك في قصور كالوگه... مَبْنِيّةٍ لجمع أمرائها فيها للمشوَرة أو لحادث آخرَ، ويُسَمّون لهذه القصور بلسانِهم: دْوُرَنْسْكِي سُبْرَانِ، ومعناه: مَجْمَع الأمراء للمشورة أو للتفرّج، وهم الذين تفرَّدوا من غيرهم بالعبيد على اختلاف طبقات الناس في روسية من الأدنى إلى الأعلى، فأدنى الناس رتبةً عندهم: مُجِكْ، وهم عبيد الأمراء وخدمائهم في كل شيء، وكانوا ضربوا عليهم الخراجَ المعلومَ عندهم كل سنة، وهم يؤدّونهُ إليهم بلا نكير منهم، ولكنهم الآن في اختيارهِم كسائر الأحرار، ومع ذلك يعطُون لهم الخراج المضروبَ عليهم بالفرمانِ العَلِيّ الإيمبراطوري بَعدما عتقهم الإيمبراطور الأعظم.

فينبغي لسائر الناس من المسلمين وغيرهم: أن يدخلوا في ذلك القانون الذي نصبَه الپاد شاه، فلهم في ذلك ثواب العِتق وثناء إيتمار وَلي الأمر، كما أمر الله تعالى بذلك في كلامه الشريف بقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الآية[1]، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية[2].

ومعلوم لمن تأمّلَ: كون المال والعَبيد ملكا لله تعالى؛ لأنه الذي خلقهُم من العدم، ثم رزقهُم كما قال تعالى في كلامه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ، أي: مِلْكاً وخَلْقاً وعبيداً، فزعمُ: بعضِ الأنام المِلكِيّةَ على بعضٍ من العجب العُجاب.

---

[1] سورة النساء، الآية: ٥٩.

[2] سورة النور، الآية: ٦٣.

ولله در علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيثُ يقول في ذلك:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُم آدَمُ وَالأُمُّ حَوَّاءُ
وَإِنْ يَكُن لَهُم فِي أَصْلِهِم شَرَف ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالمَاءُ
مَا الفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُم ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقِيمَةُ المَرْءِ مَا قَد كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ العِلْم أَعْدَاءُ.

ولا يخفى على العوام: أن في ديارنا أمراء اتخذ آبائهُم السالفون عبيداً من سكانها بقسر، فتطاول العهدُ على ذلك بل ضربوا عليهم وعلى أراضيهم الخراج تؤدّى إليهم كل سنة، ثم جاء قومٌ من بَعد قوم من أولادهم فزعموا: أن ذلك بحقٍّ وصَواب، وأن ما كان يُؤدّى إلى آبائهم من الخراج.. ينبغي أداؤه إليهم بغير سلطان مُبين، ولئن سلِّم ذلك منهم.. فلا شك في لزوم أدائه الآن إلى والي الأمر على العموم لانقطاع حَقِّهم بانقراضِهم، وللآية السابقة أي: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾... إلخ.

ثم الذي أعلى منه[1] يسمى بـ: مِشَّانِنْ، وهو: كالبغلة المتولّدة بين الفرس والحمار، ثم الأعلى منه[2]: طبقة التُّجّار، ثم الأعلى منهم أولئكم الموسومون بـ: دُوُرَنِنْ[3]، ثم الأعلى منهم: غَرَاف[4]، ثم كِيناز أي: الأمير، ولا شيء فوقه سوى جُرْسُومة الملوك، وهؤلاء الناس[5] على اختلافِ الطبقات لا يمكن لبعضِهم الدخول في زُمْرة الآخر إلا بحكْمٍ قانونيٍّ.

---

(1) أي: مِن مُجِك.

(2) أي: مِن مِشَّانِن. *

(3) أي: النَّبيل. *

(4) أي: جراف (گرَاف). *

(5) أي: المذكورون من: مُجِك، ومِشَّانِن، وتَاجِر، وغراف، و... إلخ.

...فدعا ذلك الرجلُ الإنْكْلِزِيّ المذكورُ آنفاً شمويلَ إلى تلك القصور، وكنا معه، ولم يكن سوانا أحدٌ مًا من سُكان بلدة كالوگـه، فأرانا مهارته، منها: أنه استلقى على شيء مُربّع ليّنٍ كالمِخدّة، ثم رفع رجْلاهُ إلى العليا؛ فجاء إليه آخر مِن خُدمائه، وناوله أسطوانة طويلة مُدوّرة منحوتة من خشب لا يحملها إثنان إلا بشقّ الأنفُسِ، ثم يَضعُها على أخمصَيْه وهو مستلق، فيلعَبُ بِتَدْويرِها بهما كأنها عَصايةٌ خَفيفة بيده، فتطرحها إحدى رجْليه إلى الأخرى، وهي إليها ثانيا على التناوُب بلا مَسٍّ بيده.

ومنها: أنه يَأخذ عُوداً طويلا منحوتا[1] أيضاً، فيضعُ طرفهُ على ذِقْنِهِ وهو قائم، ويرْكبُ على طرفهِ الأعلى[2] ولدهُ منكبا أي: كأنه مَغْروزٌ ببطنِهِ بذلك العود، فيرفع الرَّجلُ العُودَ والولدَ جميعاً بذِقْنِه، ولا يتحرَّكانِ كأنهما لاصِقان به، وذلك عجيبٌ جدا يَستنكره من لم يَرهُ بكريمتَيهِ.

ومنها: أنه يَأخذ كُرىً صِغاراً مجوفةً على قدر التفاح من الأصفرِ[3]، وهي ستة كرة، فيَرميها دُفْعَةً إلى العليا واحداً بعْد أخرى؛ فيَلعبُ بها رمياً بعد رَمي، ولا يتركها لتسْقط على الأرض.

ومنها: أنه يأخذ سكريّات صُفْر صِغارٍ؛ فيمسك بيدَيهِ قضيبَيْنِ، ثم يضع سكريّة واحدةً على طرفَيها العُلْوِيَّينِ، ويمسك قضيباً آخر بفمِّهِ، فيضع على رأسِه سكريةً أخرى أيضا؛ فيدوّرها بها كالرحى والدُّولابِ، وكذلك يدَوِّرُ إناءً مِن الأصفر مُجَوّفاً على شكْل الكُرّةِ، فيضعُه على طَرف عُودٍ كالرمح، وأمثال هذه الأشياء أكثر له من أن تحصَى، تركنا ذكرها رَوْماً للاختصار.

---

[1] في (ب): مدورا.

[2] في (ب): على طرفه الآخر في الهواء منكبا.

[3] أي: النحاس الأصفر. (منه).

ثم إن ذلك الرجلَ يَحمل ولدَيهِ على عاتِقيْهِ، وهما قائمان مُنْضَمَّا الأيدي إلى أباطِهما.

وأما مهارة أولاده:

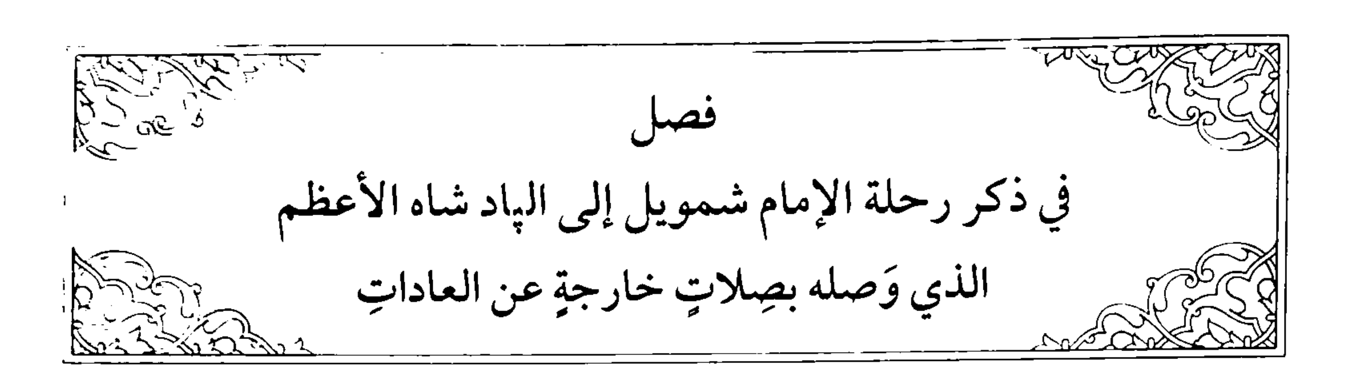
منها: أنهما يَضعان إبْريقا من زُجاجَةٍ على كُرْسِيٍّ مِن خَشَبٍ؛ فيَقومانِ على فمّ ذلك الإبريقِ بإحْدى رِجْليهما.

ومنها: أنه ينْصِبُ لهما عُود طويل مدَوَّرٌ مَنْحوتٌ؛ فيعْتمِدُ كل منهما برأسهما على رأس العُود المنصوب، ورِجْلاهما مُرْسَلتانِ إلى الهواء عكس قيام الرجلِ، وساعِداهما مَقْبوضانِ إلى آباطِهما، وهذا أعجب وأصعَبُ بكثيرٍ من الأولى أي: مهارة أبيهما.

والذي أعجبنا مِن هذا ومن جميع ما ذكِر: أن كلباً لهم مُعلَّماً يَلعب بـ: كَنْجَفَتَ، وهو الكواغذ المُرَبَّعة المنقوشة المشهورة الآن عندهم[1] بـ: كَرْتْ، يُلاعبون بها مُعاوضِينَ من الجانبينِ، ثم يغلب عليهم غالبا ويُغلَبُ، فاعجبْ من حيوان مُعلّم كالإنسان، وهذا من مهارتهم الوافرة جدا، انتهت.

***

[1] أي: الروس.



فصل
في ذكر رحلة الإمام شمويل إلى الپاد شاه الأعظم
الذي وَصله بصِلاتٍ خارجةٍ عن العاداتِ

ففي السنة السابعة والسبعين، بعد الألف والمأتين.. جاء الفِرمانُ العَليّ بِتِلغْرافٍ مِن مدينة فِتر بُرْغ يَدعوه إليه... وهو خيْط من حديد مُجوّف، ممتدٌّ من البلاد إلى أخرى على رؤوس عُمد طِوالٍ مَغْروزةٍ في الطرقِ مِن منزلٍ إلى آخر، مثلا: أَرسلوا ذلك الخيط مِن مُسْكُوْ إلى جهاتٍ مختلفة شَرْقاً وغَرْباً، جَنوباً وخلفاً، ومن فتر برغ إليها، وإلى وَرْشَوْ[1]، وَخَرْكُوف، وَأُدِيس[2] وفلان وفلان، من المُدُنِ الكبار ليخبروا به عما حدث فيها من الخير أو الضير، ومن الحوائج المهمةِ في أسرع وقتٍ، وأظن: أن هذا الخيطَ يَصل عن قريب إلى ديارنا[3]، وليَسْهَل لهم الوصول حينئذ إلى الحوائج بسُهولةٍ، فيَفوزوا بما يشاؤونه من أقاصي البلادِ في لحظةٍ من الحين، وتلك نعمَة جَسيمة لِمَن لا يمكن له الوصول إلى أَرَبِهِ إلا بِشَقّ الأنفُسِ، ولكن يَحتاج إلى صَرْفِ الفلوس، ولا اعتبار به نظراً إلى سهولة حصَلت بذلك، وربما يقع للإنسان حاجة مَسِيسَة لا يَصل إليها بإجهاد نفسه، وبصرْف المال جميعاً، فلا يبعد أن يقول قائل: «لو كان هذا الشيء في عهد الماضين من الخلفاء والملوك.. لعدُّوهُ معجزةً وخَرقاً للعادة»، ولا يخفى ذلك على مَن تأمّلَ فيه، كيف لا؟! مع أنه لم يُعْهَد هذه السرعة إلا لريح سليمان عليه السلام التي غُدوّها شهرٌ، ورَواحها شهرٌ.

---

[1] «وارسو» (Warsaw): عاصمة بُولندا، وأكبر مدنها. *

[2] «أودِيسا» (Odessa): مدينة من المدن الكبرى في أوكْرَانِيَا، تقع على ساحل البحر الأسود. *

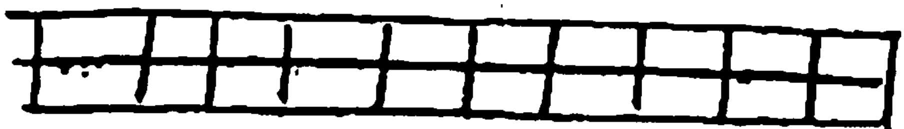
[3] أي: ققفاز.

...فارتحلنا معه، وصاحَبنا الكَفِطان رُونُوْسْكِي، وفِلْتِيغِر المرسول من بلدة فِتر بُرْغ بخَراج للإمام إلى الطريق، وهو: سَفيرٌ مِن قِبل الملك يرْسِل بسُرْعةٍ لأمر مُهمّ مخصوصٍ.

فركب الإمام مع ولده الأعز في عَجلة فاخرة، ونحن في أخرى حتى نَصِل إلى مُسْكو، ثم جَلسنا منها على دَرْبِ الحديد المصنوع بين مدينتي مُسْكو وفِتر بُرغ، وكان هذا السفر في شهر محرّم الحرام.

ولنذكر لك يَسِيراً من حكايته لتكون تذكرة لمن رآه، وعِبرة لمن عداهُ، لمَا سمعتَ أنه شيءٌ عجيب لا يُوصَف إلا بالعَجْزِ عن صُدور مثله من طَوْق البشر، وربما تَسْتبعِدُه قَريحةُ مَن لم يَره بعينه لِعظم شأنِه في الخيال، ولكن لا غَرْوَ في صُدوره من أيدي مَن صَدر الخيْطُ المذكورُ منهم لمكانِ الشِّبَهِ بينهما تعجّباً، ومعلوم: أن الفَهِمَ الذكيَّ يُدرك بنظر واحدٍ ما لا يدركهُ البليدُ بألفِ شاهدٍ، ولذلك أكتفِي بيَسيرٍ من حكايته، فليَكُ هذا القدر على ذكْرٍ منك.

مثلا: أنهم وسّعُوا الطريق من بلدة مُسْكو إلى بلدة فِتر بُرْغ بخَفْضِ ما ارتفعَ، ورفع ما انخَفض، بحَفر وإهالَةِ ترابٍ، ووَضْعِ جُسورٍ من حديد على المياه والأودِيةِ، ثم دسُّوا به دِقاقُ الحَصى ليكون صُلبا في التقطير الأقدام، ثم دَسّوا فيه عَرَضاً جُذعاً مَنْحوتةً مربّعة، فأحكموا فوقها طولاً حتى ينتهي إلى فِتر بُرغ ألواحاً[1] من حديد على مِثال خَطينِ، بينهما مِقدار ذراع، ولا يَزيد عَرْض تلك الألواح مِن إصبَعينِ طولاً، وصورته هذا:



[1] مفعول لِـ: (أحكموا).

فالمَدُّ الوسطى هو: صورة الطريق، والخطوط التي خُطّتْ عرضاً هي: الجذوعُ المَنحوتة، والخطان في طول الطريق هما: خط الحديدِ، فتمرُّ عجلة الحديد - عليها بُيوت مُرَبّعة - على الخطين المخطوطينِ في جانبي الطريق. فإني لم أُصَوِّرْ هنا صورة البيوت - التي تطير فوق الطريق بسرعة شديدةٍ كالبَرْق الخاطفِ - لأني لا أُحْسِنُ التصويرَ كما ينبغي، فمن أراد رؤيتها.. فليراجع كتب الروس.

وحاصله: أنهم بعدما عَملوا بيوتا مُربّعة مُسْتوِيةَ الأشكال في الارتفاع والانخفاض، والطول والعرض، مَطْليّةً بطلاءٍ مختلِفةِ الألوان التي يسَعُ في كل واحدة منها نحو: عشرة رجال أو أزيد مع جميع حوائجهم. وفيها: المِرآة، والكُروسُ، والمِخدّات، ومواضع للاستنجاء، كلها من الماهُودِ صَنعوا لكل من تلك البيوت سلاسِل الحديد قِصارٍ ليرْبطَ بعضها على بعض. ثم صَنَعوا في قدامِها قِدْراً عظيما مُدوّراً من نحاس مشابهٍ بـ: سُمُوَار يغْلى به چَي[1]، ولهذا القِدْرِ مَخرجُ الدخان، فيصُبّون فيه الماء، ويُوقدون النارَ تحتها، فبِقوّة غليان الماء يجري كسفينةِ النار على وجه الماء. وله حين يُرْسَل صَوت منكرٌ يختلف قوةً وضُعفاً بحسب إرسالِه أي: له عُرْوة يمسك بها، فإذا حَرّكها مُدَبِّر أمرها إلى جِهةٍ.. يُصَوِّتُ بصَوتٍ يَعافُه السماع، وإلى جهةٍ آخر لا يُصوّت، فاعجَبْ من بيوت يسع فيها أُلوفاً من الرجال والنساء تجري بسرعةٍ بواسطة الماء والنار، ومع ذلك يُمسِكهُ الرجل ويُرسِل متى شاء، فسبحان من عظم شأنه، وجَلّت قدرته، كيف سخر الماءَ والنار لمخلوقه، وهما من أجل جُنوده وأبْطشِها.

ثم إنهم عمّروا قصوراً فاخرةً بين مدينتي مُسْكو وفِتر بُرغ لنزول المارّةِ من بعضِها إلى أخرى، وفيها ما تشتَهِيهِ الأنفُس، وتلذّ الأعين من الأطعمة، والفاكهة، واللباس

---

[1] سَمُوَار: وِعاء يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي. *

وكل شيء، لكن بمالٍ لا مَجانا. ولوقوف المارةِ بهذه المنازل أوقاتٌ معينة بساعةٍ، مثلا: في منزلٍ عَشْر دقائقَ، وفي آخر: عشرون، وفي آخر: ربعُ ساعةٍ ونصفها، وثُمنها، وسدسها، وسبعها وهكذا، وهذا القدر المعيّن من الزمان؛ لأن منهم من يريد الغَداء أو العشاء أو الاستنجاء أو الرحلة إلى قرىً في الطريق أو مثْل هذه الأمور الماسّةِ، ولنزول الجلساء في هذا الدرب في فتر برغ أو منها إلى مُسْكو وقتٌ معيّن لا يتقدّمُ ولا يتأخرُ، فمن تأخر الجلوسَ عليه من الأحيان المذكورة.. يبقى في المنزل إلى اليوم القابل حتى يمرّ ثانيا.

وسمعنا: أن الإيمبراطور أو إخوانه الأمراء العِظام أو أولادَه أو حليلته الملِكةَ أو واحدا من جُرْثومَتِه.. لهم بيتٌ خَاصّ يَجْلسون به، ويَمرّون بسرعة من سائر العوام، انتهى الكلام على دَرْبِ الحديد، وما يتعلق به ملخصاً.

وَلنذكر الآن بعض ما تلقاه الإمام من الپاد شاه الأعظم

- محل الجود والكرم - مِن التوقير والإكرام:

بعدما نزل هو ونحن من دَرب الحديد.. وَجدنا في طرف مدينة فتر برغ - عَقب النزول منه - صديق الإمام ومحبه، العاقل اللبيب، الترجمانَ الماهر، الآن في داخِل محروسة إسلام بُول من طرفه العليّ، فُلْكوْنيك بُغُسْلَاوْسْكِي[1] الذي يحاوِرُ ويُترجِم بلسان العرب، والفُرْسِ، والإنْكلِز، والأفْرَنْج، والتُّرْكِ وسائر اللُّسُن اليوْرُفِيَّةِ، وكان حينئذ أتوتاناً لِدِجُرْنِ غنارال - مُعِين وزيرِ الپاد شاه - الذي ولي على أمور عساكر الدولة الروسية كافةً، وكان رجلا له مِن العَقل والظرافةِ والأمانة القِدْح المُعلَّى، ومن

[1] هو: دميتْرِي بن نِيكُولاي بُغُسْلَاوْسْكِي (١٨٢٦-١٨٩٣ م)، نصب مترجما عند شمويل زمن إقامته في فِتِر بُرغ، ثم في كَالوگه، وفي الأخير كان لدى قُنْصُول في سَفارة الروس بإسلام بُول (١٨٦٢-١٨٧٠ م). *

ثَمّ جعلوه ترجماناً بينه[1] وبين الپاد شاه الأعظم مراتٍ، وبين السردار فِيلْد مَارْشَل كِيناز بَرَاتِنْشكِي أيضا. ووَجَدنا معه عجلة فاخرة مُتهيئة للإمام، فتقدَّم إليه ذلك الفُلْكوْنيك وصَافحه ورَحَّبَ به، وأكرَم نزلهُ ومَثْواه، وتكلم معه بلسان العرب، وله مهارة فيه أيّ مهارةٍ، وحاصلهُ: «مرحباً بضَيْفٍ كريم محترَم مَقبولٍ، نَزل بملك عظيم مُقْسِطٍ مِعْطاءٍ لا يَمَلُّ أبداً، قَدِمْتَ خيرَ مَقْدَم»، هكذا... إلخ.

فركبا على تلك العَجلة، ووَلداهُ في الثانية، ورُفقَتُهُ في الثالثةِ حتى انتهينا إلى قصورٍ ذاتِ طبقاتٍ خمسةٍ أو ستةٍ، وهكذا غالبُ بُيوتهِم بل لبعضها سبع طبقات، فأنزلنا فيها، وهي معمورة جدّاً بأنواع الملابسِ، والفروش، والكروس المخيطةِ من الدِّيباج الملوَّنِ، وفيها: أطعِمَة شتى، وفواكه كثيرة، لا مَقطوعة ولا مَمْنوعة، وفُرش مرفوعة، كأنها جَنّة، قُطوفها دانيةٌ، وقال لنا: «كلوا واشربوا هنيئا لكم هذه حرمة خصّصْتَ لها الپاد شاهُ أيها الإمام»، فأثنى على ذلك عَمَلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾[2]، وبقول الرسول الكريم على الرب الرحيم: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ.. لَا يَشْكُر الله تَعَالَى»، وشكر المنْعِم واجبٌ، وما أحسن ما أنشد له[3] حينئذ بيتا، وهو هذا:

أَقَـامَـتْ فِي الـرِّقَـابِ لَـهُ أَيَـادٍ ... هِيَ الأَطْوَاقُ وَالنَّاسُ الحَمَامُ.

ثم أرْدَفَهُ نصْحاً لِنفْسِهِ وَلأصحابهِ، فقال:

إذَا كُـنْـتَ[4] فِي نِـعْـمَـةٍ فَـارْعَـهَـا ... فَـإِنَّ الـمَـعَـاصِـي تُـزِيـلُ الـنِّـعَـمِ
وَدَاوِمْ عَـلَـيْـهَـا بِـشُـكْـرِ الإلَـهِ ... فَـإِنَّ الإلَـهَ سَـرِيـعُ الـنِّـقَـمِ.

---

[1] أي: الإمام. [2] سورة الضحى، الآية: ١١.

[3] أي: الإمام للپاد شاه الأعظم. (منه).

[4] خطاب للعامة. (منه).

ولما حادَنِي الشَّوْقُ، وأطربَني الوَجْدُ والعِشق.. ترنّمْتُ حينئذ ترنمَ البُلْبُلِ الصادِحِ على أغْصانِ دَوْحَةِ[1] الشكرِ الواضِح، كما قال الحَرِيرِيُّ بيتاً:

وإذَا البَلَابِلُ أفْصَحَتْ بِلُغَاتِهَا ... فَانْفِ البَلَابِلَ بِاحْتِسَاءِ بَلَابِلِ.

وقلت أبياتا هي أخرى في حقه[2] من التِّبر الأحمر، والمسك الأذفرِ:

أَنْوَال مِثْلكَ بِالعَوَارِضِ يَمْنَعُ ... وَنُفُوذ حُكْمِكَ بِالمَعَارِضِ تدْفَعُ
وَلَكَ الوِلَايَةُ فِي الأمُورِ جَمِيعُهَا ... تعْطِي بِفَضْلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ[1]
حَاشَا جَنَابِكَ أَنْ يُضَامَ نَزِيلهُ ... أَوْ يُسْتَهَان مَنِ اجْتَدَاكَ وَيقْمَعُ
إنَّ المُلُوكَ لِأَمْرِهِم حُكْم القَضَاءِ ... وَلِحُكْمِهِمْ حَدّ الحسَام وَأقطعُ
إنْ كُنْتُ لَا أنْهَى إلَيْكَ مُلِمَّتِي ... فَإلَى مَن الشَّكْوَى وَأَنْت المرْجع
أو كُنْتَ لَا تُصْغِي لِمَا قد نَابَنِي ... فَمَنِ الذِي يُصْغِي لِذَاكَ وَيَسْمَعُ
هَل فِي الزَّمَانِ لِغَيْرِ حُكْمِكَ صَوْلَةٌ ... أو هَلْ لِغَيْرِكَ يُرْتَجى وَيضَرّعُ
وَإذَا بَعُد لَكَ لَا تَكُونُ مَطَامِعِي ... فَبِعَدْلِ مَنْ ذَا أَسْتَكِنُّ وَأَطْمَعُ
أَعَلَيَّ لَوْمٌ إنْ رفعْت قَضِيَّتِي ... وَعَدَوْت مِنْ جَوْرِ العِدَا أَتَوَجَّعُ
لَا وَالَّذِي شَرعَ العَدَالَة فِي الوَرى ... وَإلَيْهِ يُجَارُ فِي الخُطُوبِ وَيَرْجِع
لَا لَوْمَ فِيَّ لِأَنَّكَ الحَكم الذِي ∴ بِالحَقِّ تَعْدِلُ فِي الأمُورِ وَتَصْدَع

انتهى.

[1] الدَّوْحَةُ: الشَّجرةُ العظيمة. «القاموس المحيط». *

[2] أي: الإيمبراطور الأعظم. (منه).

[1] عَمن تشاء. (منه).

فخرج فُلْكوْنيك من عندنا بتلك المحاورة المذكورة آنفا وتَفقّدَ، فبعد ساعة رَجع إلينا ثانيا، وجَلس معنا للطعام، ثم مضى.

ففي صبيحة الغدِ أتانا قائلاً: «إنا نذهب الآن أولا إلى دِجُرْنِ غنارال» - معين الوزير كما مر، فمضيْنا إليه ومعنا صديقُنا الكَفِطان رُونُوْسْكِي، فإذا انتهينا إليه.. قام إلى الإمام وصَافحهُ قائلا: «مرحباً بك، وبِخَيْر جِئْتَ»، وتلقّاهُ بكلام لَيِّنٍ مُنْشِطٍ، فأظهرَ له الإمامُ: كَونَه يُريد الانطلاقَ إلى الوزير، ومتى يَتفق له ذلك؟ فأجابه بما أراد: «متى شاء»، ووَعَدَهُ بإعلام هذا المراد إلى طرفه[1]، ثم يجيب له بما بَدا له منه، فخرج من عنده بهذا الكلام.

ففي صبيحة الغد ذَهب فُلْكونيك بُغُسْلَاوْسْكِي إلى ذلك الغِنارال لأجل ما قاله الإمام أمس، فرجعَ هو مِن عندِه بقضاء أرَبِه. فارتحلنا إلى الوزير مِلُوتِن[2] في بيتِهِ، فتلقّى منه ما تلقّى من مُعِينه دِجُرْنِ غنارال قبْل ذلك من التوقير والحرمة، والمحاورة الحسنة، فطَلب الإمام منه الإعلامَ للپاد شاه بأنه يُريد الاجتماع به، ومتى يَتّفِق له ذلك.

فبعد يوم أو يومين جاء الفرمان العلي بالحضورِ إليه، فإذا انتهينا إلى كَرَسْنِمْ سِلُ[3] - وهي قرية قربَ فِتر بُرغ على عِدة وِرْساتٍ منها، يسْكنها الپاد شاه الأعظمُ صيفاً لطيب نسيمها، وهذه القرية محفوفة بحدائقَ وأشجارٍ، وبها بهجة تفوق العدّ، ويومئذ كان متهيئا للخروج إلى المعَسْكر في صحراء واسعة هنالك، يسكنها العساكرُ

---

[1] أي: إلى طرف وَزِير الحرب مِلْيُوتِن. *

[2] هو: وزير الحرب دْمِيتْرِي بن أَلِكْسِيْ مِلْيُوتِن (١٨١٦-١٩١٢ م)، رئيس أمور عساكر الإمبراطورية الروسية كافة (١٨٦١-١٨٨١ م)، مات في رتبة غنارال فِيلْد مَارْشَل في قِرِم. *

[3] «كْرَاسْنُي سِلُ» (Krasnoye Selo): بلدة على (٢٨) كم مِن فِتر بُرغ. *

في فَصْلي السنة الربيع والصيفِ - وجَدْناه[1] في قصور فاخرة، وعند الباب زِحَام من وُجوه الناس، وكبراء أهل النظام، واقفين به حتى يخرُجَ إليهم كما هو شأن العظام، وخصوصاً يومئذٍ؛ لأنه كان في شُغل الخروج وأُهْبتِهِ، فلم يتفق له الفرصةُ للفَراغ إلى الدعوة بِبَيْتِهِ، ولذلك وقفنا معهم على الباب، فإذا بصَر الإيمبراطورُ بالإمام بادِيَ النّظَرِ من مِرقاة القصْر.. مَشى مُسْتقيما إليه بلا التِفاتٍ لمن يَليهِ من الجانبينِ، ووَقف قُدامه، والناس هنالك يَنظرون إليهما ويتعجّبونَ مما تلقاهُ منه من التوقير البليغ، وسألهُ عن حالهِ، وأظهر له المَسَرّةَ والطلاقةَ برؤيته ثانياً على الصحة والأمان تحت لحاظِه بعين المرحمة والعِناية، ولم يُطِل المحاورة وأشار إليه بمجيئه إلى المُعَسكر - لو شاء - لِيَسْتأنِسَ بالنظر إلى التفرُّج الذي كان يُحاوِلُه في سالف الأيام كما لا يخفى على المتأمِّل.

ثم التفتَ إلى مَن حواليْهِ من الغِنارالاتِ العظام، والوجوه الكرام عليه، واستخبرَ عن أحوالِهم وأوطارهم، فمنهم: مَن سَلّم العريضةَ أو الحاجة إلى أتُوتانِهِ، ومنهم: مَن أمْسَك واستغنى بما قاله شِفاهاً، ثم رفع يدهُ إلى عاتقه، وذلك علامة التوقير عند الروس التي يَقتضيه القانون المطَّردُ بينهم، ثم ركب على عجلتِه الفاخرة، ومضى مع أتوتانِهِ.

ثم خرج من تلك القصور أخوه الإيمبراطور العظيم الأميرُ الفخيم نِكَالَاي أو مِخائِيل، ثم المَلِكَةُ في جماعةٍ مِن نِسوة الرؤساء، كلهن خلف الپاد شاه إلى المعسكرِ.

فبعدما غابوا عنا أُحْضِرَت لنا العَجَلاتُ أيضاً، فجلَسْنا فيها ومَضينا إثْرَهُم، ومعنا فُلْكُوْنيك بُغُسْلاوسْكي المذكور آنفا، فإذا انتهينا إلى المُعَسْكَرِ.. نزلنا منها

---

[1] جزاء لـ: (إذا انتهينا).

أي: الپاد شاه. (منه).

وركبنا على الأفراس الموجودة هنالك مُتهيئة للركوب، ووَقفنا في ناحيةٍ راكبينَ قربَ الپاد شاه، وهو يَعْدو بفرسِه يمينا وشمالا بين العساكِر ويقول: «كيف حالُكم أيها الفِتيانُ؟» فَيُجِيبونه بصَوْتٍ واحدٍ: «نُحِبّ الصحةَ لِعَظمتك الإيمبراطوريِّ»، فبعدما دار حولهُم على هذا المِنْوال.. قام[1] على فَرَسِه التي وصَفها الشاعر بقوله المليح:

وَلَـوْ طَـارَ ذُو حَـافِرٍ قَبْلَهَا ... لَـطَـارَتْ وَلَـكِـنَّـهُ لَـمْ يَطِر.

وقول الآخر أيضا في وَصْف فارهٍ لا يُتعب راكبها[2]:

فَعَادَى عِـدَاءً بَيْنَ ثَـوْرٍ وَنَعْجَةٍ[1] ... دِرَاكـاً فَلَمْ يُنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ.

واسْتراحَ قليلاً[2]، وتلك الفرس كانت لا تبْرَحُ من مكانٍ لو أرْسِلَتْ بين العساكِر مع ما فيهم مِن الغَوْغاء، وقَعْقَعَةِ السلاح والأصواتِ و... إلخ، فهي داخلة في ذلك تحت قول الشاعر يَصِف فرسه بطِيب خُلقهِ:

وَإِذَا احْـتَـبَـى قَـرَبُـوسَـهُ بِـعِـنَـانِـهِ ... عَلَكَ الشَّكِيمَ إِلَى انْصِرَافِ الزَّائِرِ.

ومع ذلك لو وَقعَتْ في مَضائق المجامع، وباشرت شدائد الحرب.. تكون كالفرس التي وصَفها الآخرُ بقوله[3]:

---

(1) أي: استوى. (منه).

(2) في (ب): وقول امرئ القيس يصف فرسه بإدراكه الصيد بسرعة.

(1) ثَوْر: وهو الذكر من بقر الوحش. نَعْجَة: وهي الأنثى من بقر الوحش. (منه).

(2) في (ب): مما يتعجب منه الشعراء بالعجز عن إتيان مثله، ثم لما استراح قليلا.. التفت إلى الإمام وتكلم معه بكلام لطيف لين، وأما الفرس فكان لا يبرح من مكان... .

(3) أي: امرئ القيس المشهُور. (منه).

وَشَوْهَاءَ[٤] تَعْدُو بِي إِلَى صَارِخِ الوَغَى ... بِمُسْتَلْئِمٍ[٥] مِثْلِ الفَنِيقِ المُرَحَّلِ.

بل لو دعَت الحاجة إلى ذكر محاسنها.. تليق أن توصف بما وصَفه الشاعرُ بقوله:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ.

ثم إن المِلكةَ كانت جالِسَةً يومئذ على تَلٍّ مُرْتفع في ذلك الصحراء في خيمة مَضروبةٍ لها عليه، واسعةٍ جداً، وعندها من نساء الرؤساءِ والهَام العِظام مَن لا يُحْصَيْن حتى حَلائِل إخوان الپاد شاه الأعظم الأمراء الفِخام نِكالاي ومِخائيل بل وأختِه مَارِيَ.

فبينما الپاد شاه الأعظم يأمرُ عساكره بالمُرور بين يديه ركباناً ومشاة - وهي تنظر من أعلى التَّلّ وبجانبه نحن قريباً منه - مُطِرَ علينا مطر سِجَال من السحب الماطِرةِ الغزيرة الماء، مُسْترخِية الأذيال حتى بلّ ثيابَنا والأسلحة، وكل ما هنالك، كأنهم خرَجوا من بِرْكةِ ماء. فلم تَعُقْهُ عن إرادتِه، ومضى على حالِهِ، فكلما مر نفرٌ من الركبان أو المشاة بين يديه.. جعَل يقول: «كيف حالكم أيها الشبان؟» فيُجيبُونه بصوتٍ واحدٍ: «نريد الصحّة لعظمتك الإيمبراطوريِّ العَلِيّ». وهؤلاء الأنفار لا يشابه بعضهم ببعض في المراكب والملابس والشّكلِ، بل لكل نفر منهم هَيئة مخصوصة يتميز بعضهم عن آخر، مثلا: منهم مَن قَلانِسهم مُذهّبة مَصنوعة على غرَرها صور العِقْبان، فتراهم من بعدٍ كأن على رُؤوسهم طيرٌ من الذهب الخالص في الإشراق والبهجة والصفاء، ولباسهم أيضا مذهّبةٌ إلى مَحل شدّ النِّطاق، وأفراسهم

---

[٤] والتقدير: رُبّ فَرَسٍ شَوْهاءَ أي: قبيحة المنظر لِسَعة أشْداقها أو لما أصابها من شدة الحرب. (منه).

[٥] أي: لابس لأمَةٍ. (منه).

على قامةٍ واحدةٍ في اللون، والكِبَر، والصِّغَر، كأنها مفرُوغة في قالبٍ، وهكذا مَرَّ بين يديه أنفارٌ لا يحصَوْن كثرة مُخْتلِفِي الأثواب، والأسلحة، والأفراس.

وحين سألنا مَن هنالك يومئذ عن عَددهِم؟ أجابنا بـ: أنهم يبلغون إلى أربعين ألفا أو يزيدون. فما ظنك بمن بقوا في مدينة فِتر بُرغ بلا خروج إلى الصحراء، ومن الذي يُحْصي شوكة هذا الإيمبراطور الأعظم إلا هو تعالى شأنه؟! فبالنظر إليها عَدَدنا وعُددنا كحُفْنة ترابٍ من صحراء أو غرفة ماءٍ مِن بحر، والذي يبارزهم ليس إلا كخُفّاشَةٍ تصادِمُ الجبالَ أو عصْفورة تبارز الرجال، فمن رَابَ فيما أقول.. فليجرِّبْ بالطواف في روسية، وليس الخبر كالعيان، وأما مَن يرْقصُ في الهَواجِرِ مستعظِماً ظِلَّه.. فلا شَكَّ يَجدُه يَضْمَحِلّ مع الشمس أو كضَوْءِ سراجٍ مُوقَدٍ في النهار.

ثم إن الإيمبراطور الأعظم كان يُعْلِن رضاءه عن رئيس النفر أن رآه حسنا في نظم أمورِهم، ويحجب الآخرين عن ذلك. فبعدما مر الركبان خرج المشاة عَقبهم، وكان فيهم ابنه[1] ماشيا أيضا يفعَل ما فعلوا، وحين بصرَ به في طرف صَفهم.. أراه الإمامَ قائلا: «انظر؛ ذلك الولد ابني»، ومر بين يديه ابن له أيضاً في صَفٍّ آخرَ، فأَرَاهُ له كالأولِ بمثل ما قال. ثم خرج نفرٌ من الركبان أحْسَنُهم أفراساً، وسِلاحاً، وقُدوداً، قيل لنا: «هم أخْيَرُ مَن كانوا هنالك يومئذٍ»، وكان في مُقَدَّمِهم ابنُه الأعز، وليّ العهدِ بالإيمبراطورية العُظمى بعدَه في سلاح شاك، فعَدَى بفرسه بين يديه والركبان خلفه، فإذا وَصل إلى جانب يلي والدهُ الأعظم من ورَائه.. اعتزل قريبا منه متأدّبا معه، مُعزّزا جنابه.

وقضية ذلك: أن القانون المصمّم لا يميّز بين الوالد وولده عند رعايته من الانخرام، وإلا.. فأيّ فائدة تحصل عند التقاطِ الحماقة التي لا تثمن ولا تغني

[1] أي: الپاد شاه. (منه).

مِن جُوع، كما هو شأن من يزعم السياسة غالبا، وهو لا يشمُّ ريحها. وقد يُوجَد في الديار التي لم تنخرط في سلك التعليم، ولم تَرْعَ مِن كَلاءِ البصيرة، ورياض الغنيمةِ اليقظانية.. مَن أهْملوا إهمال البهيمة في المرْعى، وهي تأكل ما وُجد من المفيدِ والمضرِّ، فلا يَتفطنون لِما سيَحْصُل في العواقب، فلا ينالون نيلا إلى أدنى المراد، فهم في ذلك كمن يُجْرِي السُّفُنَ على اليَبس، وذلك مما لا يَقبله العقل ولا النقل، وما أحسن ما قيل في مثل ذلك وأجادَ:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى اليَبِسِ.

ولله در الآخر حيث يَمْدح التواضعَ وعدم التكبر بقوله:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْم لَاحَ لِنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُـوَ رَفِيعُ
وَلَا تَكُن كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... عَلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهُـوَ وَضِيعُ.

ثم رجع الپاد شاه الأعظمُ، وأولاده، وإخوانه، وسائر الجيوش أجمعين من تلك الساحةِ مُبْتلّينَ، ونحن كذلك جالسينَ على العَجَلات حتى ننزلَ بـ: زْرْسْكُي سِلُ[1]، ومعناه بلسانِهم: قرية منسوبة إليه[2]، وذلك: لكونه يَسْكنها غالباً مع أهله في الصيف لِطِيب نسيمها، وبها: دَرْبُ الحديد حتى ينتهي إلى فِتر بُرغ، فهو يطير إليها في لَمْحَة من البصَر إذا شاء.

ثم مَضينا من هذه القرية الناضرة إلى فتر برغ بعد تمام النظر إلى العَساكِر.

فبعد مُضيّ يومينِ أو ثلاثةٍ من ذلك سِرنا إلى السردار فيلد مارشل كيناز بَراتِنْسكي الذي يحترمُ الإمامَ دائما ويحبّه، وكان يومئذ بقريةٍ مبنيةٍ بشاطئ البحر

[1] «زَرْسْكُي سِلُ» (Tsarskoye Selo): بلدة على الضفة اليسرى لنهر نِيفَا في فتر برغ. *

[2] أي: إلى الپاد شاه. *

الممتدّ إلى فتر برغ، وهي التي تسمّى بـ: فِترْ گُـوفْ[1]، ومعناه بلسانهم: قرية منسوبة إلى الپاد شاه القديم فِيُوتُر الكبيرِ[2]، كما يقال لِمَا اشتُهرتْ بأسماء بانيها من القرى والبلدان: إسْكَنْدَرِيَّة، وَمَجِيدِيَّة مثلا[3]، فالأولى: مدينة مشهورة ببانيها إسْكَنْدَر ذو القرنين[4]، والثانية: بالسلطانِ المرحوم عبد المجيد[5]، كلتاهما: في ضَبْطِ سلطان الولاية العثمانية السلطان الأعظم عبد العزيز خان[6].

ولما كان ما رأينا في هذه القرية الفاخرة مما يتعجّبُ منه السامعُ فضْلا الناظر.. ذكرتُ هنا بعضا من عجائبها لمن أراد الاسْتِماع، فأقول: وصَلناها من فتر برغ من البحر بسَفِينة النار المختصّة لأخي الپاد شاه الأعظم، الأميرِ العظيم قُنْسْطَنْطِن نِكالَايِـچْ، وهو الذي وُلّيَ على السُّفُنِ والعساكر البحرية الروسية بأسْرِها، وقد كانت شيئا عجيباً ذات طبقتين، وفيها ما تشتَهيه الأنفسُ، وتلذّ الأعينُ، وفرشها من القطيفة الحمراء تخطف الأبصار بَهاء، فأنزلونا في قصر الپاد شاه الأعظم المَحفوف بما لا تُوصَف منظرا.

---

[1] «فِترِ هُوف» (Petergof): بَلَد على الساحِل الجَنوبي لخليج فِنْلَنْدا. *

[2] هو: إمبراطور بيُوتُر الأول (١٦٧٢-١٧٢٥ م)، حكم روسية من عام: (١٦٨٢ م) حتى وفاته. *

[3] في (ب): ومعناه بلسان لِمْسْ: قرية منسوبة إلى الپاد شاه المشهور فُيُوتُر؛ فاتح مبنى فِترِ برغ، ثم بانيها، ولذلك سميت بذلك الاسم أي: البلدة المنسوبة إليه بلسانهم، ومناسبة تسميتهما بلسانهم لا بالروس؛ لأن مبناهما كانت مخصوصة لدولة لِمْس قبل فتحه بجيش فُيُوتر، فاشتهر باسمه كما اشتهرت اسْكندرية ومجيدية باسمي بانيهما.

[4] أو إسكندر الرومي. (منه).

[5] هو: سلطان العثمانيين عبد المجيد الأول بن محمود الثاني، خليفة المسلمين الثالث بعد المائة، ولد في سنة: (١٢٣٨ هـ)، وتولّى السلطنة في عام: (١٢٥٥ هـ) إلى أن توفي سنة: (١٢٧٧ هـ). *

[6] هو: سلطان عبد العزيز بن محمود الثاني، ولد في سنة: (١٢٤٥ هـ)، وتولى السلطنة بعد وفاة شقيقه عبد المجيد الأول حتى خلعه وزراؤه في جمادى الأولى سنة: (١٢٩٣ هـ)، وتوفي بعدها بأربعة أيام، وقيل: انتحر، وقيل أيضا: قد قتل. *

فبعدما تَغدّيْنا دُعِينا إلى السردار، وقد كان مُقيماً في قصور آخر للپاد شاه، فدخل الإمامُ عليه مع فُلكوْنيك بُغُسْلَاوْسْكِي، وبَقِينا في بيتٍ يَليهِم حتى يَتمّ كلامهُما، ثم دَخلْنا عليه، وحاصِل ما قال له لدى الوَداع: «أني أحِبّكَ كأخي الشقيق، والآن أذهب إلى مملكةٍ أخرى بعيدةٍ» - وقد كان حينئذ يتأذى بمرض رجْلِهِ، ولذلك ارتحل إليها[1] - «فاكتبْ إليّ أحوالَك، وأنا أكتب إليك أيضا، ولا أنساك وإن غبتُ عنك في أقاصي البلاد». فانظر إلى عِظم توقيرهم إياه، وحبهم له تجده عيْنَ الإكرام الذي لم يُسْمع من واحدٍ مثلهُ لواحدٍ في بسيطِ الأرض، كيف لا؟! مع أن العداوة التي رسخَت بينهم وبينه منذ ثلاثين سنةً أو أكثر قد انقلبت محبة كما قيل: «خيرُ خَلِّكم خَلُّ خَمْرِكُم». وما أحسن قول الآخر الظريف: «المحبةُ بعد العداوة أشدّ»، وذلك نظير قولهم: «المُنْساق بالتعب.. أعزّ على النفوس، وأوْقع فيها من المُنْساق بلا تَعَب»، ويعجبني قولهم في هذا المعنى:

بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي المَحَبَّةِ نِسْبَةٌ ... مَسْتُورَةٌ عَن سِرِّ هَـذَا العَالَمِ
نَحْنُ اللّذَانِ تَحَابَبَتْ أَرْوَاحُنَا ... مِنْ قَبْلِ خَلْقِ اللهِ طِينَةَ آدَمِ.

ولكن الواشِيَ ربما لا يَستحسِنُ ما أحكِيهِ قُلْ: «مُوتوا بغيظِكم لن تَنالوا خيراً»، وحينئذ أليق ما قيل في أمثالهم قول الشاعر:

شَجْوُ حُسَّادِهِ، وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ، وَيَسْمَعَ وَاعٍ.

فَلا غَرْوَ في استشكال كلِّ ضِدٍّ، هذا الأمر المُسْتَحسَن عند كل كريم عليم بالأمور مُجَرِّبها، وفي المَثل العَيْن.. لا تحب الأخرى، ولذلك حِيلَ بينَهما أرنبة الأنف، فما ظنك بقَوم كالبهائم يَرتعي؟! وهم الذين عَنى الإمامُ الشافعي رضي الله عنه بقوله:

---

[1] في (ب): بمشاورة الأطباء الحُذّاق.

بُلِيتُ بِقَوْمٍ كَالبَهَائِمِ يَرْتَعِي ... أَرَاذِلُ قَوْم فِي صِفَاتِ أَكَابِرِ
وَلَوْ شَاءَ رَبِّي خَصَّهُم بِثَلَاثَةٍ: ... قُرُونٍ وَأَذْنَابٍ وَشَقِّ الحَوَافِرِ.

كيف لا؟! وقد قال الآخر في وَصف أكثر من لا يعْقل:

لَا يَمْدَحُ النَّاسُ سِوَى مَيِّتٍ ... وَمَن نَأَى عَنْهُم وَمَن بَانَا
لَوْ مَاتَ إبْلِيسُ عَلَى غَيِّهِ ... لَقِيلَ: مَا أَحْسَن مَا كَانَا.

ومن ثَمّ كان الإمام يَتَمثّل أحياناً بين قومِهِ بقول الشاعِر يَصِف ناساً لا يُميِّزون بين الخير والشر:

أَصْبَحْتُ مُطَّرَحاً فِي مَعْشَرٍ جَهِلُوا ... حَقَّ الأَدِيبِ فَبَاعُوا الرَّأسَ بِالذَّنَبِ
وَالنَّاسُ أَجْمَعُهُم سَهْلٌ وَبَيْنَهُم ... فِي العَقْلِ فَرْقٌ وَفِي الآدَاب وَالحَسَبِ
كَمِثْلِ مَا الذَّهَبِ الإبْرِيزِ يَشْرِكُهُ ... فِي لَوْنِهِ الصُّفْرُ وَالتَّفْضِيلُ لِلذَّهَبِ
وَالعُودُ لَوْ لَم يَطِبْ مِنْهُ رَوَائِحُهُ ... لَم يَفْرِقِ النَّاسُ بَيْنَ العُودِ وَالحَطَبِ.

إذا تقرّر في ذِهْنك جميع ما ذكرنا.. اتّضحَ لك بلا خَفاء أن قولَ الشاعر هذا:

أهْنأ المَعْرُوفِ مَا لَم يَبْتَذِل فِيهِ الوُجُوهُ ... إنَّمَا يَعْرِفُ ذَا الفَضْلِ مِنَ النَّاسِ ذَوُوهُ.

لا يَتمشّى إلا في حق هؤلاء القوم؛ لأنهم الذين أخذوا معناه بحقّهِ، وعملوا بمَنطوقِهِ، ويؤيّد ذلك ما قررناه هنا. وهذا الذي بسَطت الكلام عليه مَرْتَع كل مُنصِفٍ، ومذهب كل عبد مُنيفٍ، منظوم في سِلك مَن لهم تميز مُبْعَدٌ عمن لا خَلاق لهم من النصَفة، فتاهوا في مَفاوِز الحَسْرة والندامة، أولئك شر مكانا، وأضل سبيلاً، نعوذ بالله تعالى من سَلْب العِلم، ورسوخ الغَباوةِ والجهل.

ثم إذا خَرَجْنا مِن عند السردار.. دَخلنا بحديقة الپاد شاه الأعظم، وهي بشاطئ البحر، وبها بيوت الپاد شاه القديم فِيُوتُر المذكور سابقا، المشهور عندهم بغايةٍ من العَقل والسياسَةِ بل يَنْسبون أكثر الأمور النظاميةِ المقتضي بها قانونهم إليه، فبَصرْنا بها: أثاث البيتِ حتى الفِنْجَانات التي كان يشرب بها چَي، بل وسائر الأمتعة التي بقيَتْ منه إلى الآن، وقد اتخذوها عِبرة لمن خلفهُ، وبها: رِداؤه، وطَيْلَسانُه، ومَكاعِب حَليلتِه يِكَتِرِنَ[1]، وهي التي اسْتَوْلَت على أمور الدولةِ الروسية بعد وَفاتِه أي: كانت مَلِكةً لهم، فالدَّرَاهِمُ العَتيقة التي توجد مَضْرُوبة بصُورة امرأة مُتَوَّجَة[2].. هي التي ضُربت في عَهدِها.

وبهذه الحديقة[3]: سِلاح خَنَه[4] المرصّعة بالأحجار الغالية النفيسةِ مِثل اليواقيت والزمرد ونحوهما. وبها: فرس الپاد شاه المرحوم نِكالاي محشوّة جلدها، وهي قائمة مُنَعّلة مُسرَّجة كأنها حية، تبدو عُروقها في مواضِعها من باطنِ الجلد، ففي بادئ النظر تعجَّبنا مِن حبس الفرس في القصر الفاخِر حتى ذهلنا عن كونها لا تعلِف، فسبحان من عَظمت قدرته كيف أقاموها.

وبهذا القصر: رَايات المسلمين المَجلوبة مِن قِبل ديارنا أو غيرها في الوقائع، بل وبها أيضا: نِشانات الفضة التي كانت تُعلَّق على عَواتِق مَن أظهر الشَّطارة في الحروب، وقد نُسخت عليها العبارةُ المشهورة عندنا: «مَن تَفكّر في العواقب لم يَشجَع»، أو: «هذه عَلامة الشجاع»، أو: «هذا فتى كَمُلَت في الحرب هِمّتُه، وفي المعارك يَسْطو

---

[1] هي: إمبراطورة كاثِرينَ الأولى، استَولت على أمور الدولة الروسيّة بعد وفاة زوجها منذ: (١٧٢٥ م) حتى وفاتها سنة: (١٧٢٧ م) في فِترِ بُرغ. *

[2] تَوَجَهُ: أَلْبَسَهُ التَّاجَ. «المعاني». *

[3] أي: التي في فِترِ كُوف. *

[4] يعني: مخزن الأسلحة. *

سَطْوة الأسدِ»، أو: «هذا النِّشانُ أعطاه الإمام لِمن أظْهَر الشجاعة بين الأنام»، وأمثال هذه.

ورأينا أيضا: فَأساً يُحَزُّ به الرقابُ، ويقال: جَلَبُوه من وقعة كُتِشَه، قرية مِن قرى داغستان، كان بها الوَقعة بينه وبين الروس[1]. وبها: راية السلطان دانيال بيكِ الإلِسَّوِي التي خَانَ عنها للروس هاربا إلى الإمام، ومعلومٌ: أن الرجل إذا خانَ.. هانَ، ومَن هَان.. خان، والخيانة: سواد الوجه أينما كان.

إذ اتضحَ لك ما ذكرنا.. أذكر لكم شيئاً يسيراً من عجائب الحديقة ليكون علما على عِلم كما يقال لمن صبح فانجلى له شعاع الشمس: يا هذا؛ أصبحْتَ في نورٍ على نور.

اعلم: أن بها صُوَرٌ شتى مُذهَّبة لم يَقع لها نظير على وجه الأرض فيما سمعناه، منها: صورة قائمةٌ على صَخرة عظيمة في غَديرٍ من الماء، شاخِصة نحو السماء، يفورُ الماء مِن فيها كالعمادِ، ارتفاعهُ في الجوّ يزيدُ من عشرين ذِراعا، وأخرى: يَفور الماء مِن مَنْخريها، وأخرى: من مَفْرق رأسها، وأخرى: مِن إصْبعها، وأخرى: من عَورتها كالمُستنجي، وأخرى: مِن إبْطيْها. وأخرى: صورة ضِفدع يفور من فيها. وأخرى: حية يفور من فيها أيضا، وهكذا على اختلاف الأسماء والأشكالِ، وكأنها عند التأمّل صنِعَت مجوفة. ثم أقِيمت بدواليب من الحديد، فجُعلت موازيب مدوّرة، ونصبت في تحت الأرض على مثال خيط، فأسِيلَ بها الماء إليها، فيفور منها بقوة كما يفور[2] من مجوّف مقير الثقبة، وأيّمَا كان من الأمور المخطورة بِبَال الإنسان.. فلا شك في كونها مما يتعجَّبُ منها.

---

[1] في شهر ذي القعدة سنة: (١٢٦٢ هـ/ م ١٨٤٦). *

[2] في (ب): فيفور منها بقوة زحام السيلان كما يفور... .

وبينما نَدور في هذه الحديقة نلتفت مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك يمينا وشمالاً.. انتهينا إلى كرسيٍّ من خشَب نُصبَ بها للجلوس، فأخذنا جالسين بأطراف الأحاديثِ بيننا، وحينئذ أُمْطِر علينا مطر خَفِيف، فأمْعَنّا النظر قائلين: «ما هذا العجاب اليوم، يوم مشمّس وليس في السماء قِطعة سحاب، فَمِن أين هذا المطر؟» فقال بعض منا: «هذا المطر من هذه الشجرة»، فسفَهَهُ الآخر قائلا: «يا أحمق؛ وهل يمطر من الشجرة الخضراء ليس عليها سوى الأوراق؟» فأجابه: «بل أنت أبلهُ، فإن الروس يمْطِرون من الشجر اليابِس فضلا الأخضر، ألا ترى كيف أسالوا الماء مِن صور النُّحاس الذي لا رطوبة له أصلا، فكيف من الشجرة لها رطوبة خلقِيّة، أليس ذلك بأعجبَ من هذا؟!» ثم لما لم يَنجَع مُجَرّدُ التّشاجر بينهم في رَفع نِقاب الجهل وكِنان العِيّ عن دَرْك ما يحاولونَه.. تقرّبوا إلى الشجرة، ومَسَحوا أعينهُم، وظنوا: أن غِشاوة عليها تمنعهُم من الرؤية، فعلموا كونها شجرة مجوَّفة الأغصان والأوراق، مَصْنوعة مِن حديد مَطْليّة بِطَلاءٍ أخضر، فوالله؛ كأنها واحدة من أشجار تلك الحديقة، والحيلة في إسالة الماء على مثال المطر من أغصانها.. أنها صنِعت مُرْسَلة العروق المجوَّفَة مِن تحتِ الأرض، ثم جعلوا عروة في أصلها عند ملتقاها، وأجروا إليها ماء مِن بعد، فإذا أرادوا الإمطار بها.. دَوَّرُوا العُروة إلى جانبٍ، فتمصّ العروق الماء حتى يَسِيل في الأغصان، فَبِقُوّة ازدحام الماء في المخارِج.. يَفيض من الأغصان، وأما إذا أرادوا إمساكه من السيلان.. يدَوِّرون تلك العروة إلى الجانب الآخر؛ فيمكث، انتهى الكلام على الحديقة وما يتصل بها.

تتمة لبعض ما بقي من حكاية سلاح خَنه المذكورِ سابقاً:

وحين أشْرفنا عليه.. رأينا به سُرجا، ولجما، ومكافيل مرصّعة بأحجار البِرْلِيانات المشهور عندنا بـ: أَلْمَاس، وهو الحجر الغالي عند الروس حتى من حجر الياقوت

والزمرد وغيرهما، وهي هَدايا السلطان المرحوم محمود[1] - والد رئيس الإسلام السلطان عبد العزيز - للپاد شاه المرحوم نكالاي لأجل المصادقة له[2]، وأيضا رأينا به هدية شاهِ الفُرْس[3]، وهدايا سائر الملوك له، هذا.

ثم بعدما رجعنا منها[4] إلى بلدة فِتر بُرغ.. ذهبنا من البحر بسفينة النار إلى قلعة حصينةٍ لهم[5]، مُشيّدة بأيدي الاحتكام في وسط البحر، اسمُها: كُرَنْشْتَتْ[6]، بينها وبين فِتر بُرغ مسافة يَسيرة، وتلك السفينة.. سفينة الإيمبراطور العظيم، الأمير الفخيم قُنْسْطَنْطِن أخي پاد شاهنا، وهي التي جَلَسْنا بها إلى قرية فِترْ كُوفْ حضرة السردار، ومرّ ذكرهُما مبسوطاً.

فلنذكر لكم الآن يسيراً من حكاية هذه القلعة، لتكون عبرة لشوكة الدولة الروسية، فقس عليه البواقي:

وحين نزلنا بها حملنا إلى السفن الكبارِ هنالك، ذات طبقات سبعة، مملوّة بالمدافع الكبار، وهي موجّهة بعضها فوق بعض إلى الجهات الأربع، لتكون هيّنة للرمي حيثما توجّهَ العدو، قيل لنا: «جملة ما في واحدة منها من المدافع يزيد عن مائة

---

[1] هو: السلطان العثماني محمود الثاني بن عبد الحميد الأول، صاحب الانقلاب، وُلد في قصر طُوب قَابِي سنة: (١٧٨٥ م)، وتولى السلطنة في سنة: (١٨٠٨ م) حتى مات سنة: (١٨٣٩ م). *

[2] في (ب): للپاد شاه المرحوم نكالاي حين تصادفا في عهد تجييش محمد علي باشا المصري المرحوم على السلطان وتضييقه إياه، فإذا استغاثه عليه.. أمده بجيش وافر على القانون المستمر بين الدول عند استغاثة بعضهم ببعض في النوائب والشدة، إلا ما يقع بينهم في بعض الأحيان من الحروب، فلا اعتبار بها عند الحاجة.

[3] في (ب): المشهور بـ: قَجَار.

[4] أي: مِن فِتِرْ كُوفْ الموصوفة بما ذكرنا. (منه).

[5] أي: للروس. (منه).

[6] «كُرُنْشْتَات» (Kronstadt): مدينة على جزيرة كُوتْلِين في الخليج الفِنْلَنْدي التابع لبحر البَلْطِيق. *

مِدفع»[١]، ولم نعلم عدَدها تحديدا غير أنا لم نر في روسية مدافع أخرى مثلها غلظاً وطولاً...

وقد كان عندنا في داغستان مدافع كبار أيضا، لكن لا تبلغ حدها كبراً، وهي التي بقيت في قرية أَرْغَنِه، وبقلعة ژَطَنُخ، وقلعة زِرَنِ، وقلعة گَرْگَب[٢]، وَفي قرية گَرَطَه، وقلعتي عِرِب، وچُوخ، فالأولَى: قلعةٌ طارَ منها دانيال بيك الإلسوي، والثانية: اسمٌ لِما طار منها النائب الباسل الأسد المخرق إسماعيل الـچُوخي. وقد قدّمْنا لك نبذة يسيرة مِن مناقبهما السنيّةِ[٣]، ومآثرِهما البهية نظماً ونثراً مما ذكرهُ بعض مِن علماء داغستان أهل التجربة والعرفان، ولكون غالبها بل أكثرها مما لا توجد في آخرَ من وجوهِ الناس والأبطال.. أطلت الكلام عليها آنفا، فراجعه.

وناهِيك تفاخرا بهما على سائر الأقران: أنهما كانا من أجل أصحاب الإمام في الإقْدام والجُرأةِ على مَن لم يتحلّوا بحِدّةٍ من الغَضّ وغِلظ القلب، ولم يَنْصِب لهم ميزان القوة لدى تقطِيرهم باليد أو اللسان عنده، بخلاف من له حِدّة في قلبه وفصاحة في لهجَتِهِ، فإنهما[٤] في جَنْب هذا وأمثالهما صاروا عُزلاً، بل كانوا يهرعون إلى تَموِيه المحاورة معه دُبُراً وقبلاً، لِمَا أنهما عَلِما حِدة لسانهم وجَنانِهم لديه إن شاسوهُم[٥] وعبَسوهم، ومِن ثم وصَفَهم الشاعر الداغستاني بقوله الفصيح لله دَره:

فَتَبّاً ثُـمَّ وَيْـلاً ثُـمَّ سُحْقاً ... لِأَوْبَـاشٍ أُولئِكُمُ اللِّئَامِ.

---

[١] في (ب): تزيد من خمسمائة مدفع.

[٢] «ژَطَنخ» (Tsatanikh)، و «زِرَانِ» (Zirani)، و «گَرْگَب» (Gergebil). *

[٣] في (ب): والثانية: تركها إسماعيل الـچُوخي لما خان أصحابه، وأقرباؤه خاصة، وعاين أن لا إمكان للمقاومة مع العدو إذ ذاك، وتكلم عنه بما لا يُجْدي بعد الأضداد، وقد قدمت نبذة يسيرة من مناقب دانيال.

[٤] أي: دانيال بيك وإسماعيل.

[٥] شَاس: نَظَر بمُؤخِر العَين تَكبُّراً أو تغيظا أو تَصغير العين وضمُّ الأجفانِ للنظَر. «قاموس». *

تَنْبِيهٌ:

قَضِيَّةُ ما قلنا في حق أولئكم الوُلاةِ، ومَن وافَقوهُم في أكثر السِّير من المدح أو الذمّ.. هو الذي قال به أكثر مَن في ديارنا ولو سرّاً، وليس الأمرُ كذلك على الإطلاق بل الذي يَترتّبُ على ذمّهم وتَسْفِيهِهم فيما قلنا.. ذمُّهم الإمامَ نفسَه كما هو مفهوم سِياق الكلام؛ لأن مَن سَبّ الأنبياء عليهم السلام.. لا يَبْعُد أن يسُبَّ الله تعالى؛ لأنه أرسلهم إلى الخلق بالحق، نعوذ بالله من ذلك، ومن ثم قرن تعالى رضاءَه برضائِهم، وسخطهُ بسَخَطِهم بقوله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الآية[1]، فأمرنا تعالى بإطاعتِهِ أولا، فبإطاعة رُسلِهِ ثانيا، وإطاعة الولاة ثالثا، ولا شك أن مقتضى الأمرِ هنا.. هُو الوجوبُ لا غيرُ، وأن ضدّ الإطاعة.. هو الخِلاف، فكما أن مُوجبها الجنة.. مُوجبُ الخيانة الهاوية.

ونتيجة الكلام: أن أكثر الولاة كانوا على مَحَلٍّ مِن الإطاعة لأمر الإمام وإن خالفوهُ في بعض الأمور، ومعلوم: أن عامة الولاة لا تخلو مِن ذلك، لا في ديارنا ولا في غيرها، إذ هي[2] التي حَفَّت بالشهوات كما أن مقابلها حفَّت بالمكاره، فاندفع بما قلنا ما نسِبُوا من قِبل العوامّ مِن التسْفيهِ، والتذمِيم المُسْتغرقَيْنِ بهم كافةً. فحَسُنَ أن يقال فيهم: أنهم كانوا بين الإفراطِ والتفريط، غير أنهم أوْقدوا نيران الظلم بين الرعايا التي هي رأس كل مَضرة وفتنةٍ، لا فتنة فوقها، ولا داء لإزالة الولاية والمُلك[3] كما هو الحق الجَليّ الواضحُ لدى أهل البصيرة، هذا ما ظهر لي مِن ثَمرة الكلام عليهم، والعلمُ بالحقيقة عند الله تعالى.

---

(1) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(2) أي: المخالفة للأمر. (منه).

(3) في (ب): أكبر منه، كما هو الحق.

...فبعدما رأينا هذه السُّفن وما بها من المدافع الكبار، والعُدد الحربيّةِ التي لا تشابهُها أخرى بنادقاً كانت أو بارودا، والجموع الوافرة الشائكة مِلئ السفن بهم في الصيف والشتاء.. حملنا إلى بيوت بها من القيون مَن لا يُحصُون كثرة، منهم: صانعوا المسامِير السُّفنية لا غير، وآخرون: صانعوا الألواح من حديد لتدسَّ بها، ومنهم: صانِعوا سائر الأُهْبة لها وللمدافع، وهكذا، أي: لكل واحدٍ منهم صنعَة مخصوصَة لا يَفترون منها ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاء، يشيّدُونَ هذهِ القلعة يوماً فيوماً، فهي الآن كسَدِّ ذي القرنين الذي ذكره الله تعالى في كلامه الشريف، وقصتهُ مشهورة، ومن ثم لم أبْسطها هنا. وعند هؤلاء القيُونِ مِطْرقةٌ عظيمة، وزنها: ألف فُودٍ[1] أو أزيد على ما قيل لنا، ومع ثقلها يحرّكها الرجل بسهولة بدُولاب حديد، وهي: تَدقّ الحديدة العظيمة المحمرة بضربات قليلة حتى تجعَلها رقيقة، ومثل هذا رأينا هنالك ما لا تحصى كثرة وغرابة.

ثم إنا رجعنا من تلك القلعة إلى مدينة فتر برغ، فبعد يوم ذهبنا إلى مَعْدِن الزجاج أي: يصنع فيه أباريق، وفنجانات، وقنادِيل منه، مثلا: يجْعَلون أصل الزجاج من الرمل، فيصير كعسلٍ مَقْلِيٍّ بالنار في الليُونة، فإذا أرادوا أن يجعَلوا فِنْجاناً.. يأخذون منه شيئا يسيراً مقدار قبْضِ كفّ، ثم يعْرضونه على النار الشديد ببُوصَة حديد، فإذا احمر.. يَتليّن بحيث لا يمْسك بعض أجزائه ببعض أي: يكاد يسيل من كل جانب[2]، فيخرجونه إلى هَواء باردٍ رَخاء، فينفخون بتلك البُوصة كما في المثانة فينتفخ، فيدوره بيدِهِ حتى يَنْجَمد، فيصير استِكاناً[3] صرفاً. فإذا أرادوا نقشه.. يسَلِّمُونه إلى أيدي عَمْلة هنالك في بيوت أخرى بها دَواليب مِن حجر، فيخرطونه بخَرَاطٍ، ويَجعلون نَقشاً مختلفاً.

---

[1] بُود (Pood): الرِّطل، هو وحدة لقياس الكتلة، ويساوي: ١٦,٣٨٠٤٩٦٤ كيلو غرام. *

[2] في (ب): كالرصاص المزاب.

[3] أي: الكُوب (الزجاجي). *

وبهذا المعْدِن قناديل منه[1]، مُسَلْسلة بفضة، تساوي كل واحدة منها بثلاثمائة منات بقيمةٍ عندهم.

ثم ذهبنا إلى مَضْرَبِ الدراهم، وهو في قلعة فِتر بُرغ، مُسماة بـ: فِتْرُ فَوْلُوْسْكِي[2]، مشيدة بسُورٍ من الصخور العظام، وحولها ماء راكدٌ عميق تجري فيه السفن، وبوسْطِها: كنِيسَة فاخرة رفيعةٌ جدّاً، أزيد مِن مائة ذراع في الجوِّ، دفِن بها الپاد شاه المرحومُ نكالاي، والدُ پاد شاهِنا الأعظم هذا، وبجانِبه قبور سائر الملوك الروسية.

وبهذا المضرب جم غفيرٌ من العملة المهرة، فمنهم: من يضعون في النار ألواحاً من الفضة الخالصةِ[3]، فبعد احْمِرارها يُصيِّرونها بين عمادَين غليظينِ من الحديد يَدوران كالدُّولاب، فيضمّان تلك الألواحَ، ويرَقِّقانها بقدر معلوم لهم، ثم يأخذونها بعد الترقيق، فيقطعها على وزن عباس[4] أو ستة شاهٍ[5] أو شَاهِيَيْنِ أو نصف منات بعمادٍ آخر من حديد؛ بأن يدسَّ عليها كما يثقب الحداد على نِعال الأفراس بآلة منه، ثم بعد ذلك يُصَقِّلها الآخرون، ثم يُبيِّضها الباقون مِن وجهَيْها؛ لأنها تضرب أولا مُسْوَدّة الوجوه بذيْنِكَ العمادينِ، ثم يَزنونها بمَوازين كثيرة مُقيمة بعضها فوق بعض أي: على ثلاث دَرجات: أعلى وأسفل وأوسط. فما كان من الدراهم المضروبة بتلك الكيفية المذكورة متساوية في الوزْنِ.. تقع من الموازين الوسطى كما تقع حبّات البر في الرحى من مِيزابها، وما دُونها ثِقَلا أو خِفّة تقع من العليا أو السُّفلى، فما

---

[1] أي: الزجاج.

[2] (Peter and Paul Fortress): الواقعة في جزيرة نهر نِيفًا في فِتر بُرغ. *

[3] في (ب): لمجرد التليين.

[4] عَبّاسِ: اسم العُمْلَة، والعباس الواحد كان يساوي: عشرين كُفِيكاً. *

[5] شَاهِي: اسم العُملة أيضا، والشاهي الواحد كان يُساوي: خمسة كُفِيكاً، ورُوبل واحد يساوي: مائة كُفِيك. *

سقط منها يلتقطها الخدمة هنالك، ويَرُدُّونها إلى العملة ليجدّدوا ضربها ثانياً حتى تقع مستوية الوَزْنِ والمقدار.

ولكل منهم شغل مُسْتقِل لا يَدخل بعضهم في الآخر أي: على هذا الترتيب، مثلا: منهم مَن يجعل ألواح الفضة فقط، وآخرون: مَن يَقطعُها، وآخرون: مَن يبيّض المضروبَ بمناخِل الحديد العجيبةِ، وآخرون: من يَعدّ الدراهم لا غيْر، وآخرون: من يُملئ البدور والخرائد والصُّرات، ويحملونها إلى بيتٍ آخر لتضرب السّكة، وصِفته[1]: أن عدة من الدراهم يجعلونها في ثقبة حتى تمتلئ، فتسقطها إلى الأسفل شيئا فشيئاً مُتتابعة مَضروبة، وأكثر ما بهذا المضرب بدَواليب من الحديد أي: لا تتعبُ العملة بكثرة الشغل.

ولو كان تسخير النار لإبراهيم، والحديد لداود، والإنس والجن لسليمان، والبحر لموسى عليهم السلام يُسمى معجزة.. لا غَرْوَ في ذلك مع مَنصب النبوة، بل العَجب كل العجب تسخيرُ كل ما ذُكر لمن ليسوا أنبياءَ ولا أولياء في هذا الزمان مع انقطاع النبوة منذ: ألف ومأتين، وثمانين واثني سنة، وكذلك الأولياء قد اختفوا مِن منذ: ثلاث مائة سنة، فلا يبعد أن يكون ذلك من قبيل المعجزة وإن لم يعدّ معجزة بعينها[2].

فإن قلتَ: «كيف تقول بكون مثل ما ذكر من قبيلها[3] لا مِن نَفسِها؟» **قلت:** «لمّا كان أكثرُ ما قلنا في حَق هؤلاء مما لا يَصْدرُ عن طوق البَشرِ للعَجْزِ عن إتيانِ

---

[1] أي: ضرب السكة الدراهم. (منه).

[2] في (ب): ولو كان تسخير ما ذكر لمن ليسوا أنبياء ولا أولياء في هذا الزمان.. فلا يبعد أن يكون ذلك من قبيل المعجزة، وإن لم يكن بمعجزة بعينها.

[3] أي: المعجزة. *

أمثالها غالبُ الناس بل أكثرهُم.. لم يَبعد أن تكون مِن قبيلها باعتبار هذه الحيثية، وأما باعتبارٍ آخر.. فلا تعدُّ معجزةً نفسها عند أهل السنة، لكونها من شأن الأنبياء المكرَّمِين فقط، لا تنسب إلى غيرهم وإن عَجز الإنسان عن إتيان مثله، حتى لو أتى وليٌّ بما لا يقدرُ الرجل على مِثلِه كطيَرانِه في الهواء، وأخذ ملئ كف ذهباً من الجَوِّ، وجعْلِ الحجر تِبراً مثلا، ونحو هذه.. لا يسمى حينئذ مُعجزة، بل يسمى: كرامة، كما هو مذكور في كتبنا مبسوطاً».

ففي أثناء الطريق - حين رجعنا من هذا المضرب - وجدنا سِباع خَنَه[1] أي: دُورا بها سباع مألوفة بأيديهم مع أجناس الطيور، والوحوش، والقِردة، والتماسيح، والحيّاتِ، والأسد، والنمر، والدُّبوبِ[2]، والذياب، واليرابيع، وابن آوَى، وبَناتِ عُرْسٍ، والضبابِع[3]، والثيران العجيبةِ خَلقاً وخُلقاً، والسَّنانِير الوَحشية، والقَنافِذ ونحوها من كل الأجناس والأنواع طيراً كان أو دابةً حتى البَبَّغاءُ بأجناسِهِ، وهو طيرٌ يعلم اللسان أي: يفهم ما قيل له، ويتلفّظ أحيانا بألفاظنا.

وبهذه البيوت رأينا دُبّاً أبيض كالثلج، وأسود كالفحم، وحَوامِل القِرَدةِ، وذَوات الرضيع، وجنساً آخر، منها: لها ريش كالخفّاشةِ، وجهُها كوجه الآدميّ بلا تفاوتٍ مّا، وهذه تَسْكن في القفص كالطير.

وأما الأسد مَلك السباعِ.. فلم نر بينها أحلم منه وأصْبَر، ومن ثم يُشبّهُ به الشجاع الحليم، فكلما ضَيّق عليه ازدادَ حلماً وسكوتا، لكن إن بالغ الرجل في إيذائِه.. يفترس دُفْعةً فيهْلكهُ كَذِي الصبر والحلم لا يكدّرُه كل خَطْب، وأما الخفيف

---

[1] أي: حديقة الحيوان، وتعرف أيضا باسم: حَيْر الحيوان. *

[2] لعل الصواب: دِبَبَةٌ أو أدْباب، جمع: الدُّبّ. «قاموس». *

[3] لعل الصواب: ضَبُع، جمع: ضِباع. «معاني». *

الراعِن.. فيرقصُ بكل ناعقٍ وناهِقٍ كورقة تحركها عَصْف الرياح في الفَلاة، فتأمل فيما بين الحالينِ كي تُدرِك أحوال العالمين.

وأما الحَية ذات الحِيلة والبصَرِ بعد النَّسْرِ؛ سيد الطيور والذئب، يقال: ليس له شم، وإنما يَصيد ليلا لِحِدّةِ بَصره، فيرى من بُعْدٍ فيصيد، ولو كان له شم مثل ما للكلب.. لكثرَ أذاهُ جدا، وأيضا يقال: ليس للحية سَمع، ولذلك قَلَّ أذاها، ولو كان لها سمع كالبصر.. لاغتنمتْ بهما بالترقّب للإنسان من بُعد، فكأنها الشقي يقع عليها على حِين غفلةٍ لذلك[1] ويقْتلُها أو يقتَل[2]، ففات منها إحدى الحَواسِّ الخمس، ونِعم ذلك ثم نعمَ.. فمحبوسةٌ[3] في صندوق مُقفّل، فإذا رَفع مالك هذه الدوابِّ طَبقتهُ لنَنظرَ.. قامَت من مَضْجَعها كأنها تريد اللَّسْعَة، ولسانها كسَنَا لهبٍ لم يتّصِلْ بدخانٍ، وهي رَقْطاء، ولها بُيوضٌ كبيض الحمامة، فأخذها مالكها من قفاها باحتياطٍ، ثم لَفّها حول رَقبتِه كالحبل وغِلَظها يزيد من العَضُدِ ولا يبلغ الفخذ. قيل لنا: «ليس لها سُمّ، ومع ذلك لا يَأمن[4] شرَّها لعداوتِه للإنسان». وكذلك لا ينبغي للعاقل أن يَعْتمدَ عَدوّهُ ويتّكل عليه وإن طال صُحبته معه، وأراه الخلّة بل يكون دائما على حَذَرٍ منه واحتياطٍ مِن خيانته أمانتَهُ؛ لأنه يُنغِّص عليه حَلاوة صحبته المغرور بها في وقتٍ من الأوقاتِ، فيظن كأن الخلّة لم تقع بينهُما قط لِما رأى منه من المرارة.

ولي في ذلك حكاية عجيبة: وهي: أن الحية الموصوفة بذات الحِيلةِ والخداعة - فيما مر - قالت للثعلب يوماً - وهذا أمكرُ منها فيما يقال -: «إني أريد المواخاة معك في البأساء والضراء، ولا أفارقك»، فرَضي الثعلبُ بذلك ومَشيا، فإذا انتهيا إلى شطّ

---

(1) أي: لفقد سمع لها. *

(2) في (ب): فكأنها الشقي الذي يقع عليها الإنسان على حين غفلة لذلك، فيقتلها أو يقتل باللسعة.

(3) جواب (أما). * (4) أي: مالكها. (منه).

نهر.. قالت الحية للثعلب: «أيها الأخ؛ إني لا أحسن العَوْمَ، وأنتَ أمهَر مني في ذلك، فاحملني على ظهرك، وقد تواعدْنا على تحمّل مَكروهِ بعضِنا عن بعض كما هو شأن الإخوان، فأنا العاجز؛ إن لم تحملني على ظهرك.. بقيتُ هنا، وذلك شَقاوة عظيمة لي»، فتمَكّن لها الثعلبُ من نفسِه ورَكِبتْ، فإذا وصَلتا في وَسْطِ النهر.. لفّت الحيةُ على رَقبتِهِ في غفلةٍ منه وقالت له: «أُرِيكَ الآن مهارتي»[1]، فتعجَّب الثعلبُ من أمرها قائلا: «أيها الأخ؛ ما هذه الخيانة والخداعةُ، وهل يليق ذلك بين الإخوان، ألم تكن وَاخَيْتَنِي وأخَذنا المواثيقَ بيننا على ذلك؟!» قالت له: «لا أسمَعُ منك الآن شيئا مَّا، وهل يكون المواخاة بين الحية والثعلب»، فإذا تيقّن له: أن حلاوة المحاورة لا تؤثّر فيها ولا تنجعُ.. قال لها: «يا أخي؛ إن كنتَ لا تَرْثي لي.. أمْهِلْني حتى أوصيك بأقوال تنفَعُكَ حيثما كنتَ»، قالت له الحية: «عليك بها سريعا فإني أخنقك»، وهي تَغطّهُ شيئاً فشيئاً في تلك الحالة، فطلبَ الثعلبُ منها تقريبَ رأسِها لِيوصِيها شِفاهاً، فلما أرَت الحية رأسها له لتسمعَ منه الوصية المشوبة بمكرٍ.. عَضَّ رأسَها، فاسترخت الحيةُ قليلاً قليلاً حتى فارَقت الرقبة بالكليةِ، ووَقعَتْ على الماء، ورأسها في فمه، فإذا جاوز النهرَ بها.. وقف الثعلب في طول الطريق، ووَضع جثة الحية فيه طولا مُسْتقيمة وقال لها مُستهزئاً: «أيها الأخ؛ إذا وَاخيت أحداً بَعدي.. فاستقِم في أمرك هكذا، ولا تبغي الاعوجاج»، ومضى.

ولكون الثعلب أمكر السباع حتى صار مُشبّها به في المكيدة، ومقِيساً عليه غيره.. حَكيتُ هنا حكاية أخرى مليحة تشعر مهارته فيها، وهي: أنه مَرض الأسدُ، فعادهُ السباع ما خَلا الثعلبُ، فنمَّ الذئبُ عليه فقال له الأسدُ: «إذا حَضَر فأعْلِمني»، فلما حَضر.. أعلمهُ، فعاتبهُ في ذلك فقال: «فِيّ الدواء لمرضك»، فقال: «أيّ شيء؟» قال: «خضرةٌ في ساق الذئب، ينبغي أن تخرج فتحرق؛ فتسقى»، فضرب الأسد بمخالبه

[1] في (ب): «أريد الآن قضاء وطري منك».

في ساق الذئب؛ وسل الثعلب، فمرّ به الذئب بعد ذلك اليوم والدم يَسيل، فقال له الثعلب مستهزئاً به: «يا صاحب الخفِّ الأحمر؛ إذا قعدْت عند الملوك.. فانظر إلى ما يخرج من فيك، فاحفظ لسانك فتبتلى».

فانظر إلى ظَرافة الثعلب، وشقاوة الذئب قد لحقهُ شوم الكذب والسعي عنه، فما أصْدق المثل السائر: «مَن حَفر.. وَقع»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1]، و: «كل ما لا يصْدق في الحقيقة.. فعاقبتهُ الخيْبةُ والخسران»، نعوذ بالله مِن الفضيحة والهَوان، إنه الحنان المنان، هذا.

ثم سألنا من مالك هذه السباع عن طعام تلك الحية، ومتى يطعِمها؟ فقال: «طَعامها إما الدجاجة أو الأرنبة أو الطير أو نحوها»، ويقال: إنها تخنق الثورَ بحيلة، ولم نر ذلك بعيوننا. ولا يُطعمها في أسبوع إلا مرة أو مرتين كي لا تَتقَوّى في الإيذاء، فيفهَمُ من ذلك: أن العدو لا يضعف إلا بإماتة قلبه، ولا يخفى على المتأمِّل علاجه، انتهى.

تتمة لما بقي:

وحين قصَد الإمام إلى الرجوع من فتر بُرغ.. أراد الاجتماعَ بالإيمبراطور الأعظم مرة ثانية الذي أحَلّه المنزلةَ الشامخة؛ بحيث لا يخفى على ذي بَصَر وبَصِيرة، وأما من لا يَرى ذلك ولا يفهمه بحقيقته.. فليمُتْ بغيْظِهِ لن ينال خيراً. والسبب لذلك: أن جَنابَه السامي لمّا أظهر له الحرمة الوافرة، واستأهَله للإعزاز والإكرام، وسَتر بجَناح رأفته وشفقته ما سَلف منه في الأيام الماضية العُدوانية.. التزمَ على نفسِهِ أن يَشكر له شِفاهاً، ويُعلِنَ رضاءه من صميم القلب عن جميع مَعْروفاته ومَرْحَماته له، ليكون سبباً لزيادة النعمة، وزوال النِّقْمَة، كما قال الله تعالى في كلامه الشريف:

---

[1] سورة فاطر، الآية: ٤٣.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ الآية[1]، فطلبَ مِن جَنابه العليِّ القَيْصَرِيّ الإذنَ لذلك، فبالفرمان القاهر والحكم الباهر.. أَذِن له في مَطلوبه، وأمَر بتقريبه إليه. فإذا انتهينا معه إلى الباب العالي.. أُدْخِلَ في بيت مخصوص له[2] مع فُلْكوْنيك بُغُسْلَاوْسْكِي الذي سبَق وَصفه في هذه الرسالة، وبقيتُ أنا وأخي الصغير عبدُ الرحيم وصديقُ الإمام - منصوب الدولة العلية عنده - كَفِطان رُونُوْسْكِي في بيت قدام ذلك البيت، فتحاور الپاد شاه والإمام طويلا، ولا أعلم ما كان بينهما حينئذ من الكلام إلا أنه خرج مِن عندِه ووَجْهُه يَتهَلّلُ من شدة الفرح والنَّشاط لِما رأى مِن كَرمهِ وفضله، حُرْمةً مَوفورة تَفوق جميعَ المذكورات القديمة، من إعطائه له سيفا من ذهب غالٍ جدّاً بيده، ذات الحرمة والإكرام، لا زالت ينابيعُ الجود تنفجر من أنامله، وتضحَك أشجار السماحة من محاسنه ومكارمه:

هُوَ البَحْرُ مِن كُلِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... وَلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ وَالبِرُّ سَاحِلُهُ.

فلا يَذهَبنَّ بك أيها السامع: أن هذا[3] شيءٌ مطردٌ مع كل رفيع ورئيس فضلاً مع الغريب، كَلّا، ذلك أمرٌ قُضي به مع واحد في عصر واحدٍ.

وَلِلأُمُورِ مَوَاقِيتُ مُقَدَّرَةٌ ... وَكُلّ شَيْءٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَان.

ومعلومٌ: أنْ لا شامِل[4] إلا من هو ساكنٌ في كالوگه، وواهبُ السيف له واحدٌ في هذا العصر، وكل كامِلٍ شامِل ولا يَنْعكِس. وأظن - والله أعلم - أن سبَب تخصيصِ

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(2) أي: للپاد شاه. (منه).

(3) أي: إعطاء السيف أو غيره بيد الپاد شاه الأفخم. (منه).

(4) أي: الإمام شمويل. *

السيف له مِن بين سائر الهَدايا إظهار شكر وافرٍ مِن جنابهِ[١] العليّ لربهِ الأعلى على ظَفَرِه بمن كان يبارزه به، وجَعْلُ ذلك شكراً للقدرة عليه، وهو[٢]: من كمال الحِجَى لا يتفطن له إلا مَن وهبه الله له قلباً سليما، وفهْماً مُستقيماً بخلاف مَن لا يفهم ذلك بحقهِ.

قال علي رضي الله عنه: «إذا قدَرْتَ عَدوَّك.. فاجعل العفوَ شكراً للقدرة عليهِ»، وقال أيضا: «لا سُؤْدد مع الانتقام». ولا يخلُو قول حكيم مِن حِكمته، ففي هذا القول حكمة خفيّةٌ لا يخفى على حكيم.

ثم دعاني الپاد شاه إليه، والكفطان أفُلون رُونُوْسْكِي الذي كان معي حينئذ، فإذا تقَدّمْنا إليه.. رَحَّبْنا له على عادة الروس أي: بانحناءِ الرأس، فإذاً عَرَفتُ سِيمَا الطلاقةِ في وجههِ، والنشاطِ الفِطْرِيِّ على ما يقوله عامة الناس من كونه ملكاً طيِّب القلبِ والقولِ والفعل، فَتكلّم معي بكلمات مثلاً: كيف رأيتَ فتر برغ، وفلان ونحوه؟ فأجبته بحسَب علمي وعقلي، ثم التفتَ إلى رُونوسكي وقال له: «إني راض عن خدْمتك»، ومضى، وخرجنا عقبه من بيته، وَأتينا إلى فتر برغ.

فبعد يوم من ذلك جاء رُسل من الملِكة بهدايا سَنية لحلائل الإمام وبناته، فأروا له جميع ما معهم منها قائلين: «هذا لفلان وهذا لفلان»، بتعيين أسماء كل منهن على حِدَةٍ. وأُبيِّنُ هنا تلك الهدايا لتكون أوقع في نفس السامع الواعي والمستمِع المُسْتفيد، منها: ثلاثُ تَسْبيحات من المرجان، قيمةُ كل واحدة تساوي: ثلاثَمائة منات. وظَرْفان مُربَّعانِ، بهما طيرٌ من الذهب على صورته الحقيقي، يُصوِّت بِتَرنُّم عجيبٍ لم نر مثلَه قبل ذلك طول العمر، وهما من الوَرِقِ. وإبْرَتان من الذهب

---

[١] الپاد شاه.

[٢] أي: اصطناع المعروف بالشر. (منه).

مُرصعتان بالأحجار الغالية - لِحَليلتَي الإمام - تُغْرَزانِ في جَيب القميص، وكذا إبراتٌ لسائر البناتِ.

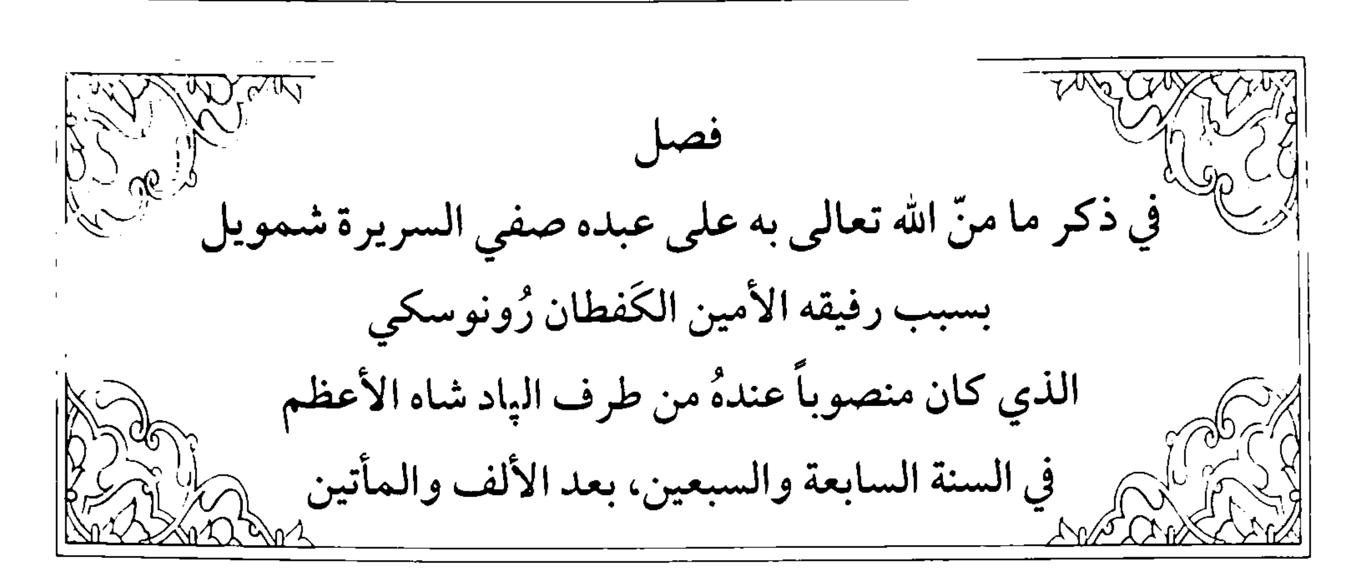
فكيف يَنسى هذه الاحسانات المتواترة مِن الملك والملكة مَن له شائبة من النَّصَفة والرجولية؟! وأي شيء ومنفعة في قدرة شمويل أن يكافئ لهما بمقابلة هذا الإكرام سوى الدعاء بالخير لهما ولذريتهما؟! وقد مر في أول الكتاب ما يتعلق بالدعاء مستوفى، فراجعه.

وبهذه الهدايا والجوائز والحرمةِ الجَسيمة رجع الإمام مِن فِتر بُرغ، مُقيَّداً مأسوراً بِسَلاسل الإنعام، مَكتوفا بحِبال الإكرام.

وليتني أُسِرْتُ بما أُسِرَ، وقُيّدتُ بما قُيد؛ لأن كل أسير مقيّدٌ، وليس كل مقيد بأسير، فتأمل، غيرَ أني لمّا تَذكرتُ قانونَ رجالِنا في تكفيل الأسارى.. يَقشعِرُّ جلدي، ويَنقبِض طَلاقةُ وجهي كقُنْفذٍ مَسَّ بالقضيب خَجلاً مما نَراه هنا، وأتيقّنُ حينئذ أن مَبنى ذلك كلهِ تفاوُتُ القلوب لِيناً وخشونةً، ولا يخفى على العوام: أن الإحسانَ إلى المُسيء من أعز الأمور، وأنه الذي أوصى به جميع الأنبياء - عليهم السلام - أُمَمَهُمْ، وخصوصاً عيسى بن مريم رُوح الله تعالى، ونبينا محمد عليه السلام، وغيرهما، ولكنه[1] نادرٌ بين الخلق، ذلك: أن العدو لا يضعف إلا بإماتة قلبه، ولا يخفى على المتأمل علاجه.

❊ ❊ ❊

[1] أي: المحسن إلى المسيء.



فصل

في ذكر ما منّ الله تعالى به على عبده صفي السريرة شمويل بسبب رفيقه الأمين الكَفطان رُونوسكي الذي كان منصوباً عندهُ من طرف الپاد شاه الأعظم في السنة السابعة والسبعين، بعد الألف والمأتين

اعلم: أنه لمّا علِم رُونُوْسْكي كونَه[1] يحب إكرامَه[2] وتوقيرَه في جِواره الذي لا يحقّر من نزل به ولا يُضام، ولذلك تواترَ إحساناته إليه منذ ما نزل به.. أراد[3] أن يَختبِرَ حاله: هل هو راض من صميم قلبه عن صُنع الپاد شاه له، أم بقي له رجاء آخرُ لم يَصل هو إليه بعد، ليجتهِد في إيصاله إلى ما بقي إن كان، فرأى رُونوسكي كونه شاكرا لله تعالى وله على جميع النعَم راضٍ جدّاً، غير أنه بقي في خلدهِ شيءٌ آخر لا يعلمُه، فاجتهَد رُونوسكي في دَركِه على عادتِهِ قبل ذلك ولو من لسان حالِهِ، فأدرَك مرادَه مع ما في تحصِيلهِ مشقة أكيدةٌ حتى وجَدَهُ مما لا طماعِيَتَهُ في حصوله لبشرٍ، ومع ذلك اعتقدَ على تكوينِهِ له بفضل الله تعالى، وإعانة الپاد شاه الأعظم واجتهادِهِ.

ففي بعض الأيام غابَ رُونوسكي عنا كالهدهد عن سليمان؛ وقصته مشهورة، فبعد انقراض مُدةٍ يسيرة عاد إلى كالوگه مع شخصٍ عجيب الخُلقِ، اسمُه:

---

[1] أي: الپاد شاه ألكساندر الثاني. *

[2] أي: شمويل الإمام. *

[3] جواب (لما علم). (منه).

كِرْجِنَوْسْكِي، وجاء به إلى الإمام، فجلسَ قريباً منه، وأجلسَه في جانب، فتحاورا طويلا، وهو يُخبِرُه عما رأى في فِترِ بُرغ ومُسْكو من الحكاية أو القصة، فإذاً كلامه مليحٌ، ولكن لا يُوافِق بكلامِنا، بل كل ما يَحكي ألفاظ غريبةٌ مُغيّبة عن عُقولِنا، فقلنا في أنفسنا: «مَن هذا، أمَلَكٌ هو أم جِنّيّ أو وليّ كان مُختفِياً عن الخَلق؟!»، فعَلمنا كونَه إنساناً لا ملكاً... إلخ.

وعند ذلك قال رُونوسكي: «أيها الإمام؛ إني كنتُ أطلب الدواءَ لقلبك منذ زمانٍ، فوجدت هذا الدواء» - مشيراً إلى ذلك الرجل - «في دَكّاكين فِترِ بُرغ، فاشتريته لك مَجّاناً ليكون أنجع في إزالة خطرات بَقيت في خاطرك إلى الآن منذ ما كنتَ في قفقاز»، فتعجبْنا منه ومن قوله ذلك، وظَننا أنه يُمازحه[1]، فلما رأى رُونوسكي إنكارَنا عليه فيما يتأمل.. لم يجد بدّاً من كشف أمره لدينا ليكون حجة له في دَركه لمَا خبِئ في ضَمير الإمام، فقال: «أيها الإمام؛ أنه بقي في خاطِرك عُقدة عُقدَت في داغستان، وأرجو الله تعالى أن يَحُلَّها بهذا الدواء، فلا يبقى لك حينئذ مطلوبٌ إلا حَصل»، فتعجب هو من قوله وأراد علمَ العقدة يقيناً، فقال أُفْلُون رُونوسكِي: «إن بنتك نَجابة[2] المولودةَ مُعْوَجّة الأقدام أظن أنها تَتأذّى منها، وتَشتكي إلى الله تعالى دائماً، فطِبْ نفساً، إنه تعالى يُصلحها بهذا الدواء في مدةٍ يسيرة»، فتعجَّبنا حينئذ من ظرافته وإطلاعِهِ على ما كان مُخْبِياً في سريرة الإمام، مع أنه لم يُخبرهُ بذلك قط ولا لواحد منا أيضاً، فعلمنا كونه أهلا للإحسان والرتبة، ولائقا للمنصب حيثما كان، ثم وَقع بذلك في خُلد الإمام انشراحٌ كامِل حتى لو كان له أجْنحة.. لَيَطِير من شدة الفرح.

---

(١) أي: الإمام.

(٢) هي: نَجَابة بنت شمويل، ولدت سنة: (١٢٦٣ هـ/ م ١٨٤٧) تقريبا، تزوجها دَاود بن محمد أمين؛ نائب الإمام في چِرْكِيس، وتوفيت رحمها الله تعالى في إسلام بُول سنة: (١٢٩١ هـ/ م ١٨٧٤). *

فبعد أيام من ذلك شرَع هذا الرجل في المُداواة لِتَقويم قدمي نجابة بنت أختِنا السيدة زاهدة[1]، وقال لها في أول يوم شرع فيه: «انظري إلى قدمَيْكِ اليوم، واحسِبي صورتَهما، فإنكِ لا تَراهما عليها[2] بعد اليوم إن شاء الله تعالى»، فضحكنا حينئذ وقلنا: «لعله يمازح» وإن لم يَصدر منه مثل هذه المهارة التي عجزت عنها الأطباء الكَالُوكِيُّون والداغستانيونَ، فلم يَمْض من ذلك الكلام خمسةَ عشر يوما أو أقل منه.. إلا وهو أصلَحَها بالكلية، فلم يَستعْمِل هناك سِكينا ولا غيرَه من سائر الأدوية سوى مجرَّدِ رَبْط قدميْها بخِرقة، والحمد لله رب العالمين.

فمنذ ذلك اليوم صار رُونوسكي عزيزاً عند الإمام وأهله بأضعاف كثير، ولم يُعلم كيفية الإحسان إليه، وبأي وجْهٍ يؤدي عِوَضهُ، ثم بعد تقويم هذا الطبيب الماهر لُدْوِك كِرْجِنَوْسْكِي قدمَي نجابة.. أعطى الإمامُ: ألفَ مَنات شكرا لصُنعِه هذا، ولو قيل له حينئذ: «ينبغي لك صرْف ما مَلكتَ في تقويم قدمَيْها».. لمَا يبخل به لما في ذلك مَسرّة لا يماثلها أخرى.

فليعتبر كل واحدٍ من نفسه، ثم ليتكلّم بما اختلج في صَدرِهِ خيراً كان أو شرّاً.

بقية من عجائب مدينة فِتر بُرغ:

وحين كنا بها حُملنا إلى بُقعة بها نَفر من المُنَجِّمين والكَهَنةِ، وعندهم من الكتب ما لا تحصى، ونظارة طويلةٌ جدّاً يُرى بها النجوم في نِصف النهار، أليس عجيباً؟! أنهم يُرُونَ لك بتلك النظّارة أيَّ نجم شئتَ، وفي أي مكان من السماء، بالمطالعةِ في علم النجوم المُحرَّمِ قراءتُها ومطالعتها عندنا، ومن الناس من يُحِلّ ذلك نَظرا إلى

[1] في (ب): نجابة بنت الإمام من أختنا السيدة الحاجّة زاهدة المدفونة في حَجُون مكة المشرفة، في جوار أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها.

[2] أي: على الحالة الأولى.

فائدتهِ، **وجه الأول**[1]: أن المُنَجِّم كثيرا ما يُخبِر عما خَفِي على كثير من الناس، فيَظنّ الجَهولُ - الذي في دِينه ضُعْف - أنه يَعْلم الغيبَ، فيَتَشوّش قلبَهُ، ويُؤدّي إلى شائبةٍ من التشريك له تعالى في ذلك، إذ هو الذي لا يَخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝﴾[2]. **ووجه الثاني**[3]: أنه لِما كان في عِلم طلوع نجم مَنحوس أو مُبارَك.. فائدة للمسافرين أو المُحاربين أو مَن لهم غَرض آخرُ ليخوضوا في المطلوب، أو لِيمْتَنِعوا نظرا إلى نَجمِهِ، فليكنْ حلالا، وما يَجلِب المنفعَةَ إلى الإنسان.. لا ينبغي أن يكون حراما، ولكل وِجْهةٌ هو مُوَلِّيها، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

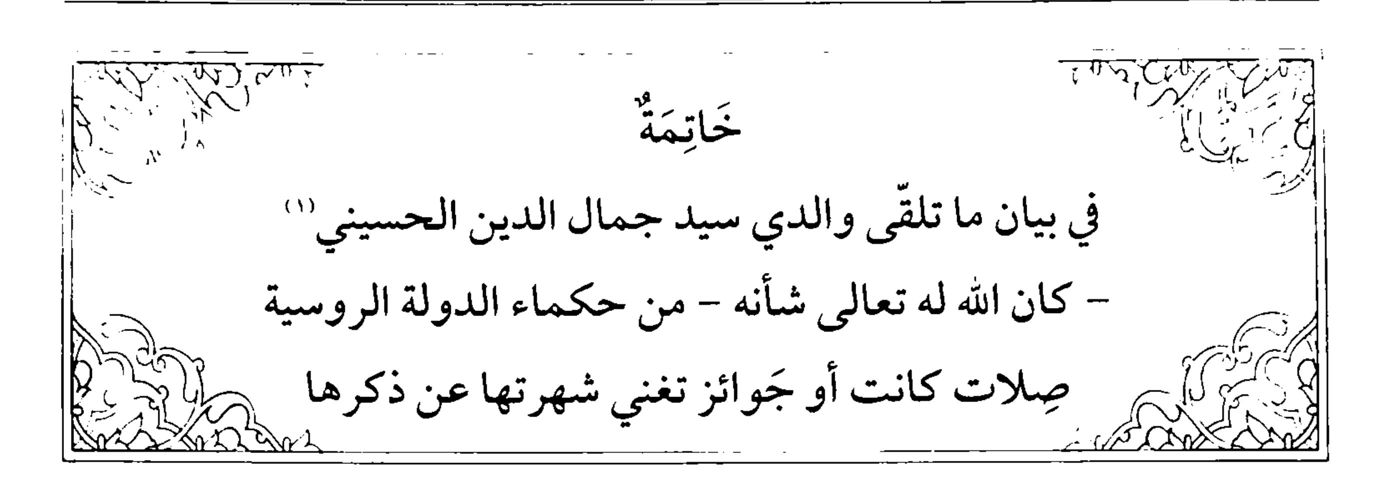
* * *

---

[1] أي: من يحرّم قراءة علم النجوم. *

[2] سورة الرعد، الآية: ٩.

[3] أي: من يُحِلّ قراءتها. *



خَاتِمَةٌ
في بيان ما تلقّى والدي سيد جمال الدين الحسيني[1] - كان الله له تعالى شأنه - من حكماء الدولة الروسية صِلات كانت أو جَوائز تغني شهرتها عن ذكرها

ومما بلغني منه أولا: أن فِيلد مارْشَل كيناز بَراتِنسكي الذي أمْطر على ديار داغستان بالبيضاءِ والصفراءِ، ويَحسُن له في ذلك قولُ الشاعر الفصيح في مَدح جواد:

لَـهُ سَـحَـائِـبُ جُـودٍ فِـي أَنَـامِـلِـهِ ... أَمْطَارُهَا الفِضَّةُ البَيْضَاء وَالذَّهَبُ.

لما انتهى إلى طِلِقّْ - قرية قرب جَبل غنب في وسط داغستان على عدة وِرْساتٍ منه - دعاهُ إليه[2]، وكان بها ساكنا حينئذ، وسجل له رقعة الأمانِ حيثما كان من مملكة الدولةِ الروسية، وذلك بعدما علم ذلك الفيلد مارشل كيناز براتنسكي كونه رجلا ـم يُرد علوّاً في الأرض ولا فسادا قط، باسْتِفْسار مناقبه ومآثره مِن عُرفاء داغستان وأعيانها، منهم: الحاج قِبد الأُنصُكلِيّ الوَسيم بالأمانة والحِجى، ونحوه فيهما.

---

[1] هو: الشيخ جمال الدين بن مَقَبْدً الحسيني النقشبندي الغازي غموقي، ولد في: (٢٧) من محرم سنة: (١٢٠٣ هـ/ م ١٧٨٨)، كان في أوائل شبابه كاتبا لدى حاكم غازي غموق وكُرَاه أسلان خان، ثم دخل في الطريقة أول ليلة من رمضان سنة: (١٢٤١ هـ) في بيت محمد اليراغي، فاستعفى عن وظيفته، ولازم الخلوة، فصار مأذونا منه للإرشاد، ثم هاجر إلى دَرْغِيَه وسكن لدى الإمام شمويل. وفي سنة: (١٢٧٨ هـ) خرج قاصدا إلى بيت الله الحرام، فأصابه المرض الشديد في قَارْص، وفات الحج لخروج الوقت، وفي السنة التالية ارتحل منه إلى الدولة العلية العثمانية، وتوطن في أُسْكُدار، وانتقل إلى رحمة الله تعالى في: (٥) من شوال، بعد الظهر، سنة: (١٢٨٣ هـ/ م ١٨٦٧)، ودفن في مقبرة قَرَاجة أحمد، قدس الله سره. *

[2] أي: جمال الدين إلى براتنسكي. *

ثم انتقل[1] منها إلى قرية غَزانشِ الأسفل - قربَ قلعة تِمير خان شُورَه - وسكن بها مدة، فلما قصَد الارتحال إلى بيت الله الحرام والزيارات العِظام.. أرشدُوه إلى الطريق بحرمةٍ جَسيمةٍ وأموال عظام، وكتب له الأمانَ من قلعة إلى أخرى بل مَكتوبا اسمه فيها بصَلاحِهِ ونجاحه، وحُسْن سيرته، وبكونهِ من الآمنين المطمئِنّين.

فأولا: أعانهُ غِنارال أَدْيُتَانْت كيناز مِيلِكُفْ[2]؛ رئيس العساكر في قَفقاز مِن ولاية داغستان، وغازي غُمُق، وچَار تَلَه[3] وغيرها، وأيضا: كيناز جُورْجَاز[4]؛ رفيع القدر والحرمة فيها، مشهور بها بحسن السيرة والسياسة على ما سمعناه من الثقاتِ، ومن ثم قال بعض الحكماء: «الأصل لا يخطئ»، وعند أهل السَّهْل مَثَلٌ سائر في ذلك المعنى بقولهِم: «آصِلْدَنْ خَطَى چِخْمَاسْ»[5]، وغنارال مَايُور لَازَرُوف؛ حاكم وسط داغستان، خَبير بحالِها، مُحيط بتدبير أمور أهاليها بغاية مِن التجربة والسياسةِ، أخبرني بذلك[6] الإمام شمويل الذي يَعلم سَجاياهُم منذ عدة سنواتٍ، ومن الذي يَليق للعلم سِواهُ؟! مع أنه ساسهم في تلك المدة الطولى، وسَلكهُم في النظام بعدما كانوا قوماً فوضى لا رئيس لهم فيما بينهُم.

---

(١) أي: والدي بعد فتح غُنِب. (منه).

(٢) هو: لِوَان بن إيوَان مِيلِكُوف الكُرْجِي الأرْمِيني (١٨١٧-١٨٩٢ م)، كان في قَفقاز منذ: (١٨٣٧ م) إلى نهاية الحرب، وبعد فتح غُنِب أسكنه الروس رَئيسا لعساكر في داغستان، وفي سنة: (١٨٦٠ م) رئيسا لمنطقة داغستان، ثم في سنة: (١٨٧٧-١٨٧٨ م) اقتحم بقيادته قرية صُغْرَاپ، وبعد المحاربة خنق بالحبل أكابرهم. *

(٣) «چَار» (Dzhar) وَ«تَلَه» (Yukhary-Tala): قريتان كبيرتان في منطقة زَكَا تَلَه بأذربيجان. *

(٤) هو: كِيناز دَاوِد بنُ أَلِكساندر چَوْچَوَزِّه الكُرْجِيّ (١٨١٧-١٨٨٤ م)، مشارك في الحروب القفقازية منذ: (١٨٤٣ م)، وفي سنة: (١٨٥٤ م) حينما هاجم جيش الإمام على قرية زِلِنْدَار.. سَبَوا زوجته بصِبْيتها وجواريها، ثم تفدى بجمال الدين وبثلاثة عشر كيلا ونصف كيل من الفضة. *

(٥) ومعناه: «النبيل لا يرتكب أعمالا مُتَهوِّرة». *

(٦) أي: بكون غنارال مايور لازروف من أعلم أحوال سكان داغستان، وهو بحق. (منه).

ثم لما شرع والدي في طريق الحج.. أوْصَلوه بهذه الحرمة - التي لا تنسى لمن له شائبةٌ من النصَفة، ونأى عن الغَدْر والخيانة كما قال عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ.. لَا يَشْكُر الله تَعَالَى» - وشُكر المُنعِم واجبٌ - الحديث، ومر هذا أول الكتاب في مقامه أيضا - مِن قلعة إلى أخرى حتى إذا نزل في بلدة تِفْلِيس.. كتبَ إليّ كتاباً منه بما حاصلهُ هذا:

«من هذا الشيخ الهرم سيد جمال الدين إلى قرة عينه، حَضرة ابنه عبد الرحمن، السلام عليكم ورحمة الله تعالى. **وبعد**: فلما وَصلتُ إلى بلدة تِفليس.. وَجدت عظيمها المعروف كيناز غنارال أَتَنْفَانْتِرِ أُرْبِلِيَانُوف[1]؛ صاحبَ العقل والكمالة والفضل والإصالة، ذا دَولةٍ طويلة الذيل، عظيمة النّيْل، فعَرف فضلي، واستمعَ قولي، وأكرمَ نُزلي، وأنزلني منزلا كريماً، واحترمني احتراماً عظيماً، وَأعطاني لذلك السفر البعيد أهبةً مَوفورة، زاد الله مرتبته وجاهَهُ يوماً فيوماً، ورضيت عنه غاية الرضاء، ولا أقدرُ على شكر إحسانه إلا الدعاء بالإعزاز والإكرام من الله تعالى، وقد أكرمني بهذا الإكرام. ولإعلام رضائي عنه وإكرامه إياي كتبت هذا إليكم، فأرضوا عنه، وادعوا له بالخير كل وقتٍ إن كنتم أبنائي وتحبّونَني.

ثم بعدما تلقيت منهم حرمة مذكورة.. قمت على ساق الرحِيل إلى ذلك المقصد الحسَن الجميل حتى إذا نزلت بمَحْروسةِ قارص[2].. عرض علي مرض شديدٌ، وبقيت أسيرَ الفراش في أمدٍ بعيدٍ، واشتد الأمر حتى أُشرِفتُ على الموت، وفات الحج في هذه السنة لخروج الوقت، ولذلك بقيت هنا في هذه المدة الطولى بعدما قدمت في السنة الماضية في جمادى الأولى.

---

[1] هو: گرِگُوري بن دِمِيتْرِي أُرْبِلِيَانِ الگُرْجِي (١٨٠٤-١٨٨٣ م)، غنارال المشاة (إِنْفَنْتِرِء)، وغنارال غُبِرْناتور تفليس سنة: (١٨٦٠ م). *

[2] «قَارْص» (Kars): مدينة على شَرق الأناضُول مِن تُرْكِيا. *

ثم إني بفضل الله تعالى دخلتُ في بعض الخِفَّةِ والعافية، وذقت مِن طِيب العِيشة الراضيةِ[1]، أدامكم الله تعالى على الصحة والسلامة، والسلام».

قلت: «هذا أدل دليل لغزارة نوالهِ، وسعَة راحته، فمَنِ الذي ينسى مثل هذه النعمة الجسيمةِ، والهِبة الوافرة[2]؟!

[1] في (ب): غير أني بعد هذا المرض وَهَن الجسم مني، وزالت بقية قوة الجسم عني، ونقص من عيني ضوء البصر، ولم يبق عندي قوة على وعْثاء السفر، وعليّ في هذا اليوم لذلك المرض بقية الأثر، إلا أني أرجو أداء فرض الحج عني إما بنفسي إن أطقت ووفقت لذلك المطلب، وإلا.. فبنيابة مخلص عني، فإني العاجز المغضوب، ولله عاقبة الأمور، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه المصير.

ثم لما حال الحول، ولم يأتني منكم الكتاب ولا القول.. كتبت إليكم بهذا الكتاب المستطاب استخبارا عن أحوالكم، واستعلاما بأعمالكم وأفعالكم، فأنتم تكتبون إليّ حقيقة ما أنتم عليه، وبيان ما سكنتم إليه، وترسلون ذلك الكتاب الموصوف إلى حضرة العظيم غنارال آتَنْفَانْتِر كيناز أَرْبِليانوف، فلعله يوصله لدي، ويرسله لوقته إليّ. ثم إن استخبرتم عنا وعن أهل البيت.. فالكل صحيحون في هذا الوقت، سالمون من العلة والموت، في حسن العافية والمعافاة، عن جميع المكاره والآفات، أصلح الله لنا ولكم الأمور، وشرح لنا ولكم الصدور، وجمع بيننا وبينكم في سرور، والسلام عليكم. في انسلاخ الجمادى الأولى سنة: (١٢٧٩) في قارص، الداعي لكم بالخير، الكاتب سيد جمال الدين الحسيني، هذا.

[2] في (ب): ففي سنة: (١٨٥٤) بالتاريخ المسيحي، لما جيش شمويل الإمام للملاقاة مع رئيس جيوش العثمانيين، البطل المشهور عمر باشا، حين أخبره جاسوس من طرف گُرْجِسْتان من المسلمين بـ: أنه يحض إلى جهة عِمَرَة (إيمِيرِيتِيَ) طائفة منها بجيش وافر، وأنه على قصد المجيء إلى داغستان.. خرج الإمام فِ خمسة عشر ألف مقاتل من الركبان؛ سوى المشاة حتى إذا وصل إلى گرجستان من طرف زُنْطَال - المشهور باسم: دِدُي - علم تغابن الإمام في تجارته، وتيقن له كذب ما سمع، وظهر كون الجاسوس عليه لا له، فاستشار نوابه بالرجوع قهقرى من تلك القرى الكائنة حوالي نهر أَلَزَان، فأشاروا بنهبها والإغارة عليها، وأنهم لا يرون الرجوع من الطريق بلا غنيمة، فأغاروها وأسرت من قرية زِنِنْدَال عيال الكينازين العليين چَوْچَوَاز وأرْبليانوف أي: حليلة كيناز أربليانوف؛ أخ الغنارال المذكور سابقا غِرِغُور (گُرِگُورِي) كيناز أربليانوف، وفيهن أميرة شابة من قبيلة كيناز بَغْرَتِيُوف أو براتوف، وحين وصلت الأميرات المحترمة بين الأسارى إلى قرية دَرْغِه - مسكن الإمام ومهاجريه من چِرْكَه وغيرهم - كفلها شمويل الإمام في حرمة بين عياله، ثم أراد تبديلهن بـ: مِلْيُون نقد أي: ألف ألف منات بإشارة من العساكر، ولم يعلموا مقدار، ومعنى مليون، ومن ثم إختفى خازن الإمام حجيو العرطي في بيت الخزينة مدة ثلاثة أيام يحسب عدد مليون بحبات ذرة، فلم يقدر على عدها، ولم يدرك حقيقتها، وخرج من البيت غضبان على نفسه آسفا.

ومن ثم يَليق له قولُ الشاعر الفصيح يمدحُ جواداً مشهوراً بالحلم والندى، وهو الأميرُ مَعْنُ بن زائدة الشيباني الذي لا يماثلهُ آخر فيهما:

شعر:

يَقُولُونَ مَعْنُ لا زَكَاةَ لِمَالِهِ ... وَكَيْفَ يُزَكِّي المَالَ مَن هُوَ بَاذِلُهُ

إِذَا حَالَ حَوْلٌ لَمْ تَجِدْهُ فِي دِيَارِهِ ... مِنَ المَالِ إِلَّا ذِكْرُهُ وَجَمَائِلُهُ

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذِي هُوَ نَائِلُهُ

فكتب الإمام مرات إلى كيناز أربليانُوف يطلب منه المليون لجيشه؛ لأنه كان وقتئذ حاكما على كافة داغستان في شُوره، وكان المجتهد لأجل الأسارى عموما، فيجاب بـ: أنها العدد الكثير لا قدرة عليها، فمضت على الحالة المذكورة أيام، فإذا صار الإمام يجاب بالامتناع عن إعطاء القدر المذكور.. غضب عليهن، وعزم على تفريق الأولاد منهن، وإعطائهم للنواب، فشكين حينئذ إلى والدنا المذكور، وجزعن عنه، فأراحهن عن الزحمة التي تقاسينها لأجل الأطفال، وقال لهن: «إني لا أقبل قصد الإمام ما دمت حيا»، فذهب إليه وقال له على سبيل النصح: «إن كنت تعزم على التفريق.. فذلك مما لا يمكن، ولا يستحسن؛ لأن هذه الأسارى من بيت عظيم القدر والحرمة في أرضهم، بل من نسل ملوك كُرْجِسْتان، وأنت خبير أن لا سبيل لإهانة دماء الملوك والعظام في شريعتنا، ولا للتضييق عليهم كما يفهم ذلك من قصة الإمامين الخليفتين عمر الفاروق وعلي المرتضى رضي الله عنهما في خصوص بنات كسرى أنو شروان العادل». فإذا سمع الإمام هذا العقول من الشيخ الوالد.. امتنع عن قصده، واستراح عن الغضب. فإذا علمن ما قال والدي لشمويل الإمام، وطيب قلبه، وحرمة له، وسعة شفقته.. شكرن له على صنع بواسطة ترجمان نصراني قَرَبَاغ الذي أسر من مكان لا أدري، وقلن له: «لا ننسى إعانتك ما دمنا حيا، فالله يجزيك خيرا».

ثم بعد زمان سمعنا بل علمنا: أنهن كتبن ذلك إلى كيناز أربليانوف، وسلّمن الكتاب إلى رجل إندراوي؛ سفيره إليه في خصوصهن، وكان هذا ينزل في بيتنا كلما جاء إلى دَرْغه لكونه قريب أم إخواني الكائنين في قسطنطينة بَخْتُوم الإندراوية، ومن ثم استشهر في الألسنة: «ظل الشجرة المثمرة خير من عود الخلاف». فما ظنك بالمصادقة والمراسلة مع الكرام؟! فلم تضع الأميرات نفث والدي لدى المضايقة، والله لا يضيع أجر المحسنين، ولله در القائل:

فَأَبْقِ لَكَ الذِّكْرَ الجَمِيلَ تَدُمْ بِهِ ... فَمَا لِسِوَى الذِّكْرِ الجَمِيلِ بَقَاءُ.

هُوَ البَحْرُ مِن كُلِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... وَلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ وَالبِرُّ سَاحِلُهُ

إذَا مَرَّ بِالوَادِي فَتَبْكِي تَلَا لَهُ ... عَلَيْهِ وَبِالنَّادِي فَتَبْكِي أَرَامِلُهُ

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ... أَرَادَ انقِبَاضاً لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْر رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهُ.

انتهى.

وهذا الأميرُ المشهورُ بـ: مَعْنُ.. هو الذي رُوي عنه: أن شاعراً حَضر بابَهُ، ولم يتفق له إليه وَسِيلة لكونه شديد الحجَّاب، فكتَبَ على خَشبة هذا البيتَ:

أَيَا جُودَ مَعْنٍ نَاجِ مَعْناً بِحَاجَتِي ... فَلَيْسَ إِلَى مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ.

وألقاها في الماء الذي يجري إلى داره، فلما أبصَرها مَعْنُ وقرأها.. استحضَر الشاعر وأعطاه مائةَ ألفِ دِرْهمٍ، ووَضع الخشبة تحت البساطة، فكان كلَّ يوم يخرِجُ الخشبةَ من تحت البساطةِ ويقرأ البيتَ ويُعطيه مائة ألفِ درهم حتى استكمل الشاعرُ أربعمائة ألف درهم في أربعة أيام، وذهبَ الشاعرُ في اليوم الخامِس، فلما طلبَهُ مَعْن.. لم يَجِدهُ، فقال: «كان حقا عليّ أن أعْطِيهِ كل يوم مائة ألفِ درهم حتى لا يبقى في الخِزانةِ شيءٌ».

ومما حكي عنه أيضا: أن شاعراً له - كان يأتي إلى مجلِسهِ أحيانا - انقطعَ عنه مدةً، فلما أتى ودخل عليه قال له: «ما أبطأك؟» قال: «وُلد لي مولودٌ»، قال له معنُ: «ما سميتهُ؟» فقال:

سَمَّيْتُ نَجْلِيَ مَعْناً ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: ... «هَذَا اسْمُ أَفْضَلِ الفَضْلِ وَالجُودِ».

فأمَر له بألف دينار، ثم قال:

قَدْ فَاقَ جُودُكَ جُودَ النَّاسِ كُلِّهِم ... فَصَارَ جُودُكَ مِحْرَابَ الأَجَاوِيدِ.

فأمر له بألف دينار، فقال:

أَنْتَ الجَوَادُ وَمِنْكَ الجُودُ أَوَّله ... فَإِنْ فُقِدَتْ.. فَمَا جُود بِمَوْجُودِ.

فأمر له بألف دينار، فقال:

مِنْ وَجْهِكَ تُضْحِي الأَرْضُ مُشْرِقَةً ... وَمِنْ ثَنَايَاكَ يَجْرِي المَاء فِي العُودِ.

فلما وصَلَ إليه.. قال له: «كفَّ أيها الشاعر، فوالله؛ لم يَبق في بيت المال شيءٌ»، وألْطفُ من ذلك قول الآخر:

أَيَا قَبْر مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْت جَوْدَهُ ... لَقَد كَانَ مِنْهُ البَرُّ وَالبَحْرُ مُتْرَعاً.

وخرج هذا المعْن يوماً إلى الصيد، فانفردَ عن عسكره، ولم يكن معه غير غلام له، فعَطش عطشاً شديداً، فطلب الماءَ فلم يَجده، فبينما هو كذلك إذاً بثلاثِ جَوار.. قد أقبلْنَ يَحملْنَ ثلاث قِرَبٍ من الماء فاستَسْقاهُنَّ؛ فسَقَينَه، فالتفت إلى غلامه وقال له: «أعط لكل واحدةٍ منهن عشرة سهام»، وكانت نصُولُها تِبْراً أحمر، فقالت واحدة منهن: «والله؛ إن هذه الشمائلَ لا تكون إلا للأمير مَعْنِ بن زائدة الشيباني، فَلتقُلْ كل واحدة منكن شيئاً فيه، فإنه أَليق مَن قيل فيه بيتاً»، فقالت الأولى:

يُرَكِّبُ لِلسِّهَامِ نُصُولَ تِبْرٍ ... وَيَرْمِي لِلْعِدَى كَرَماً وَجُوداً
فَلِلْمَرْضَى عِلَاجٌ مِنْ جَرَاح ... وَأَكْفَانٌ لِمَنْ سَكَنَ اللُّحُودَا.

فقالت الثانية:

وَمِن جُودِهِ يَرْمِي العِدَاة بِأَسْهمٍ ... مِنَ الذَّهَبِ الإبْرِيزِ صِيغَتْ نُصُولهَا
لِيُنْفِقَهَا المَجْرُوحُ عِنْدَ انْقِطَاعِهِ ... وَيَشْتَرِيَ الأكْفَانَ مِنْهَا قَتِيلُهَا.

وقالت الثالثة:

وَمَحَارِب مِن فَرْطِ جُودِ بَنَانِهِ ... عَمَّتْ مَكَارِمهُ الأَحِبَّةَ وَالعِدَى
صِيغَتْ نُصُولُ سِهَامِهِ مِن عَسْجَدٍ ... كَيْلَا يعوِّقهُ القِتَالُ عَن النَّدَى.

وهذه الشمائل لم تسمع لأحد غيرَ هذا، فيا له مِن فتى أصِيل، وأيّ شيء يُساوي هذه الشهرة بالجود والإحسان بين الخَلق، أليس الذكر الجميل أعزّ الأشياء للإنسانِ؟! وكفاه[1] فخراً لو لم يكن سوى ما ذكره الشاعر في قوله:

فَأَبْقِ لَكَ الذِّكْرَ الجَمِيلَ تَدُمْ[1] بِهِ ... فَمَا لِسِوَى الذِّكْرِ الجَمِيلِ بَقَاءُ.

ومن ثم دعا سيدنا إبراهيم خليل الرحمن إليه تعالى، وسألهُ منه[2] بقوله تعالى حكاية عنه[3]: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ الآية[4]، فلا ترى مِلة تبغضهُ أبداً بخلاف سائر الأنبياء عليهم السلام، فإن منهم من يَطعَن فيه البعض، ومَن لا مُصدّقا به، جعلنا الله تعالى من المتّبعين بهم، وجَنّبنا من الطاعنين فيهم بِمَنّهِ وكرمهِ.

---

(1) أي: لمَعن بن زائدة الشيباني. *

(1) أي: يبقى الاسم بعد الموت. (منه).

(2) أي: من الرحمن. *

(3) أي: عن إبراهيم. *

(4) سورة الشعراء، الآيات: ٨٤-٨٥.

فإن قلت: «كيف تحكم بأن حكماء الدولة الرُّوسِيّة قد أعَزّوا والِدَك، وبأيّ دليلٍ تزعُم على ذلك مع أنك لم تكن معه، ولا وَصل إليك مُخبرٌ به؟» **قلت:** «ليس لي دَعوىً إلا وأنا آتيهِ ببينةٍ توازي العلمَ اليقينَ، وهي: أن والدي كتب إلي مراتٍ على هذا المِنوال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من سيد جمال الدين إلى ولده الأعز عبد الرحمن، السلام عليكم ورحمة الله تعالى. **وبعد:** فإن الأمير العالي بالجاه غِنارال أدْيُتانْت كيناز مِيلِكف؛ حاكم عساكر داغستان ومَن حَواليها، وإن ولدنا العالي بالجاه غنارال كيناز جُورْجاز؛ حاكم ديوان في قلعة تمير خان شُوره.. قد أعانا لي بإعطاء الپَاسْفُورْتِ[1]، والخراج الكثير الكافي لنا في الطريق حتى نصِلَ إلى المقصد، وبإعطاءِ الكاغذ الآخر إلى جميع حكماء الپاد شاه الأعظم في الطريق لِيُوَقّرونا في النزول والترحَالِ، وبإعطاءِ الكاغذ المخصوص أيضا إلى الأمير المحترم المعلوم غنارال أَتَنفانْتِر كيناز أَرْبلِيانوف؛ القائم مقامَ السردار كيناز براتنسكي لِفُقدانهِ في منزله، مُظهِرينَ فيها[2] الحرمة لنا في كل مَنزل ومكان بهذه الحرمة العظيمة التي لا تفعَلوها أنتم، زاد الله رُتبتهُما كما زاد رتبتي هكذا، وإن شاء الله تعالى لا أنسى إحسانهُم ولو بالدعاء الخير؛ لأن شكر المنعم واجب إما باليد بمكافآت إحسانه أو باللسان بالدعاء الحسن، ولإعلام هذا.. كتبت إليكم هذه الرسالة، والسلام»».

سنة: (١٢٧٨) في قرية إندري.

---

(١) أي: جَواز السفر. *

(٢) أي: الرسائل.

ثم كتب إلينا ثانيا[1] بهذه العبارة:

«من الشيخ الهرم سيد جمال الدين إلى ولده الأعز الأكرم شمويل، فإلى باقي العيال، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. **وبعد:** فمذ ما سمعنا حالكم وشأنكم.. حمدتُ الله تعالى على ذلك كثيرا، واحمدوا أنتم، واشكروا له على ما أنعمَ عليكم بالنعم العظام، وادعوا للپاد شاه بالخير، فقد سمعنا عِظم رحمِهِ وإحسانه إليكم بالنعم الكثير مع كونكم من المسيئين إليه، كيف عاملَ معكم بالإنعام، فإذا كان هذا مع المسيئين إليه.. كيف يكون صُنعُه للمحسنين؟! ولا شك: أن دأب الكرام لكريمٌ، وإحسانهم لعميمٌ، فيجب عليكم وعلينا الشكر على نعمته، والدعاء له بالخير كل وَقتٍ بازديادِ جاهِهِ؛ لأن من لم يشكر الخلق.. لا يَشكر الخالقَ، وشكر المنعم واجب كما لا يخفى عليكم، والسلام».

في سنة: (١٢٧٨) في تمير خان شوره[2].

ثم من المعلوم البيّن: أنه لا يخفى على مُنصِفٍ فَطِن: أني ألّفتُ هذه الكراسةَ تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[3]، لا طَمعاً لمَا في أيدي من ذكروا فيها من الأمراء العظام، والوجوه الفِخام، بل ربما يظن اللئيم الذي لا دينَ له ولا مُروّة ولا نَصَفة.. خِلاف ذلك، فلا بأس به، فليَمُتْ بغيظِه لن يَنالُ خيراً.

ويحسن في مثله حينئذ قول الشاعر هذا:

وَأَنْتَ تَقُولُ: هَذَا الصُّبْحُ لَيْلٌ ... أَيُعْمِي المُبْصِرُونَ عَنِ الضِّيَاءِ.

---

[1] في (ب): ثالثا.

[2] في (ب): في قسطنطينية سنة: ١٢٧٩.

[3] سورة الضحى، الآية: ١١.

فإن قلت: «قد ذكرتَ هنا جميعَ ما رأيت في رُوسية أو سَمِعتَه من ثقةٍ، فكيف يُعَدّ ذلك إخباراً بالنعمة؟» **قلت**: «لما كان غالبُ ما ذكرته هنا مما لم يبصره عامة الناس حتى مَن أقام بها طولَ عمره مِن ولادته كسِلاح خَنَه مثلا؛ الكائن في قرية فِترْ گُوف، ومَضْرَب الدراهم، ونحوهما المذكورة سالفاً.. نُزّل ذلك منزلة الإخبار بها؛ لأن مَن جُعل أهلا لرؤية مَا ذكِر هنا من العجائب التي لم يطّلع عليها أحدٌ غير الإمام.. لا شك في كونه محترماً مُعزّزاً، وذلك نعمة بالنسبة إلى مَن لم يُجعَل».

فتأمل هذه الحرمة التي لا يماثلها أخرى كيف يَعتبره الپاد شاه الأعظم، ويعتني بشأنه؟! وإن حمَله الحسَدة المارِدون إلى مَحامِل فاسدةٍ، وأوهام باطلةٍ.

ولله در من قال في ذلك المعنى:

لَيْسَ يَخْلُو المَرْء مِنْ ضِدٍّ وإنْ ... حَاوَلَ العُزْلَةَ فِي رَأسِ جَبَلْ.

وهذا آخر ما قصدتُه، ونهاية ما حرّرته هنا وقرّرته، فجاء بحمد الله تعالى كما يقال الناظر: «أين هذا مِن هذا الطائر»، فلعل ما فيه يكون قُوتاً لأرباب البصائر، وكفايةً لأهل الفضيلة والخواطر إن اتخذوهُ بالقبولِ، ونظروا فيه من غير كبْرٍ ولا عُدول.

فجعلته خدمة لسُدّةِ الإيمبراطور العظيم، الأمير الفخيم، سلالة الملوك، ومَلْجَأ الملهُوف والصُّعْلوك، حاكم مَمالك قَفْقَاز، أخي الپاد شاه الأعظم، وَلِيّ الأيادي والنعم، مِخائِيل بن الپاد شاه نِكالاي، ولكون المقام أختم فيه الكلام، أتيت هنا أبياتاً مُقرَّرة في حق ذلك الكريم، وقلت:

الحَمْدُ لِلَّهِ الـذِي حَبَانِي ... بِالأَصْغَرَيْنِ القَلْبِ وَاللِّسَانِ

وَإِنَّـمَـا فَـضِـيلَـةُ الإنْـسَـانِ ... وَفَـخْـرُهُ بِالعَقْلِ وَالـبَـيَـانِ

ثُـمَّ صَـلَاة اللهِ وَالـسَّـلَام ... مَا اخْتَلَفَ الضِّيَاء وَالظَّلَام

عَلَى النَّبِيِّ العَرَبِيِّ أَحْمَدَا ... وَآلِـهِ مَن بِهَدْيِهِ اهْتَدَى[1].

❋ ❋ ❋

[1] في (ب): فجعلته خدمة للإخوان، وتحفة لأبناء الزمان من أهالي داغستان، الذين يعتبرون الأمور بدقة وإمعان، فيتحلّون بأحسنها كالمرجان والجُمان، ويتخلون عن السياف والرذائل والخذلان.

وإني كنت ألفت الكتاب في بلدة كالوگه في روسية؛ مسكن الإمام بالأمن والأمان، والفراغة والاطمئنان مع جمود الطبيعة، وكدورة الجنان. ثم لما رأيت فيما ألفت وأفرغت قصورا ببسط ما لا جدوى فيه، وترك ما لا يستغنى عنه.. عدتُ إلى تهذيبه وتنقيحه بمثابة أخرى ترى، فرحم الله تعالى امرءاً أنصف لله واعتبر الأشياء بحقيقتها في أرض الله، ولم يكابر بما لا يقوم حجة في جنب الله، ودعا واستغفر للكاتب المؤلف ما دامت الأشياء بالله، وصلى الله تعالى وسلم على المختار من عباد الله، انتهى.

لإن أدْرَكْتَ فِي نَظْمِي وَشَرْحِي ... فُتُوراً أو قُصُوراً فِي المَعَانِي

فَلَا تَشْتِم بِنَقْصِي، إنَّ رَقْصِي ... عَلَى مِقْدَارِ تَنْشِيطِ الزَّمَانِ.

بقلم محمد منصور حيدربيكوف الأواري الگِنچُقِّي.

٢٩-٦/ ٣٠

❋ ❋ ❋

أهم المصادر والمراجع[1]

- القرآن الكريم.

- «التِّبْر المسبوك في نصيحة الملوك» الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي، (ت ٥٠٥ هـ)، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، ط ١، (١٤٠٩ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت.

- «تذكرة في بيان أحوال أهالي داغستان وچَچان»، العالم السيد عبد الرحمن الحسيني الداغستاني، (ت ١٣١٨ هـ)، بدون تحقيق، محاچ قلعة - ١٩٩٧ م.

- «تفسير الفَخْر الرازي» المشتهر بـ: «التفسير الكبير» = و: «مفاتيح الغيب»، الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر، المشتهر بـ: خطيب الريّ، (ت ٥٤٤ هـ)، بدون تحقيق، ط ١، (١٤٠١ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- «سنن الترمذي» = «الجامع الصحيح»، الإمام محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي، (ت ٢٧٩ هـ)، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: عز الدين ضلي، عماد الطيار، ياسر حسن، ط ١، (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)، مؤسسة الرسالة ناشرون.

- «الشرح الكبير على الورقات»، الإمام أحمد بن قاسم العَبادي، (ت ٩٩٤ هـ)، تحقيق: الأستاذ سيد عبد العزيز، الأستاذ عبد الله ربيع، ط ١، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م)، مؤسسة قرطبة.

---

[1] اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي: اسم الكتاب، اسم المؤلف وتاريخ وفاته، اسم المحقق، سنة طبع الكتاب، اسم الدار الناشرة ومقرها.

- «كشف الأسرار في حِكم الطيور والأزهار»، العلامة عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي، (ت ٦٧٨)، تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد، دار الفضيلة.

- «مختصر المعاني»، الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (ت ٧٩٢ هـ)، بدون تحقيق، ط ١، (١٤١١ هـ)، الناشر دار الفكر.

- «المستدرك على الصحيحين»، الحافظ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، (١٤١١ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت.

- «المعاني».

- «المعجم الوسيط»، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار النشر: دار الدعوة.

- «القاموس المحيط»، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (ت ٨١٧ هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط ٧، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)، مؤسسة الرسالة.

محتوى الكتاب

خلاصة التفصيل

